

مدخل إلى العقيدة المسيحية

كوستى بندلى

و

مجموعة من المؤلفين

مقدمة

إنها الطبعة الثالثة لكتاب " مدخل إلى العقيدة المسيحية " ، وقد نفذت طبعته الأولى والثانية. وقد شعرنا بلزوم إعادة طبعه للضرورة الملحة إليه المتجلية بالطلبات الكثيرة التى تلقيناها. إن مقارنة سريعة لهذه الطبعة مع سابقتها تظهر بجلاء محاولة تطوير هذا الكتاب إلى ما نعتقده الأفضل. فالطبعة الثانية مزودة ومنقحة بالنسبة للطبعة الأولى، وكذلك الطبعة الثالثة هذه. فقد أضيفت إليها فصول بكاملها تتناول المسيح الكونى والثالوث والكنيسة والمعمودية والمجى الثانى والحياة الأبدية. إنها محاولة لجعل هذا الكتاب مدخلا للعقيدة المسيحية ككل، وليس لجانب منها، كما فى الطبعتين الأولى والثانية. كذلك أردنا بإدخال بعض الملحقات المتعلقة بالمناولة المتواصلة ومعمودية الأطفال. أن تضى على الكتاب الطابع التطبيقي الحياتي، والابتعاد به عن الطابع العقائدي البحت. فى اللاهوت الشرقى العقيدة ملتصقة بالحياة إلتصاقاً. ويجدر التنويه بأن مضمون الفصول الجديدة: السابع والثامن والتاسع، وموضوع المسيح الكونى فى الفصل السادس قد اقتبسوا من دروس ألقاها المطران " جورج خضر " على فئة من الشباب جمعتهم حلقة تدريبية أقامتها حركة الشبيبة الأرثوذكسية. أما الفصل العاشر فقد اعتمد فى كتابته على ما ورد فى الفصل السابع من كتاب " الله حى " الذى أعده فريق من اللاهوتيين الأرثوذكسيين فى فرنسا. ولا يسعنا فى مستهل الطبعة الثالثة هذه إلا التنويه بالتعليمات التى ثبتها الأستاذ " كوستى بندلى " فى مقدمة الطبعة الأولى للكتاب إذ قال:

" غاية الأسئلة الواردة فى آخر كل فصل أو باب أن تكون مادة لحوار بين المدرس والطلاب - ونزيد بين الأهل والأولاد - يتدرج هؤلاء من خلاله إلى اكتشاف المعلومات التى تقدم لهم. لذا ينبغى أن يسبق هذا الحوار عرض الموضوع، فيأتى العرض منسقاً ومكملاً الأفكار التى تم الوصول إليها بمجهود مشترك. وغنى عن الإشارة أن صيغة

الأسئلة ليست نهائية بل يُترك تعديلها أو غرض النظر عن بعضها أو إضافة أسئلة إليها حسب الحاجة.

"والكثير من الأسئلة يعود بالطلاب إلى الكتاب المقدس والطقوس، ذلك أن العقيدة إذا لم تردّ دومًا إلى مصدرها الحيّ، وهو كلمة الله المكتشفة في الكتاب المقدس والمعاشة في الليتورجيا، تتعرض للجفاف والتحول إلى رياضة عقلية جوفاء"

الناشر

الفصل الأول

فى دستور الإيمان

دستور الإيمان النيقاوى القسطنطينى:

الإيمان: با حقيقة أو من.

الله الآب: بإله واحد، الله الآب، ضابط الكل.

الخلق: خالق السماء والأرض، ما يرى وما لا يرى،

يسوع المسيح: وبرب واحد يسوع المسيح، ابن الله الوحيد، المولود من الآب قبل كل

الدهور، نور

من نور، إله حق من إله حق، مولود غير مخلوق، واحد مع الآب فى الجوهر، الذى به

كان كل

شئ، الذى من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا نزل من السماء،

التجسد: وتجسّد من الروح القدس ومن مريم العذراء، وتأنّس،

الفداء: وصُلب عنا على عهد بيلاطس البنطى، وتألّم، وقُبر، وقام من بين الأموات فى

اليوم الثالث كما فى الكتب، وصعد إلى السماوات وجلس عن يمين الآب،

الدينونة: وأيضًا يأتى فى مجده ليدين الأحياء والأموات، الذى ليس لملكه إنقضاء،

الروح القدس: نعم أو من بالروح القدس، الرب المحيى، المنبثق من الآب قبل كل الدهور،

الثالوث القدوس: نسجد له ونمجده مع الآب والابن، الناطق فى الأنبياء،

الكنيسة: وبكنيسة واحدة، مقدسة، جامعة، رسولية،

المعمودية: واعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا

القيامة: وأنتظر قيامة الأموات وحياة الدهر الآتى.

هذا الدستور (القانون) للإيمان وُضع على مراحل حسب ظهور الهرطقات واضطرار الكنيسة للدفاع عن إيمانها...

وقد سُمى بالنيقاوى القسطنطينى لأن قسماً منه وُضع فى المجمع المسكونى الأول الذى انعقد السنة الـ ٣٢٥ فى نيقية...

ثم أكمل فى المجمع المسكونى الثانى الذى انعقد السنة الـ ٣٨١ فى القسطنطينية... منذ العهد الرسولى تضمنت العبادة المسيحية الاعتراف العلنى ببعض عناصر مقومات الإيمان وخاصة عند الاستعداد لسرّ المعمودية وإقامته...

وفى شرقنا المسيحى دخل دستور الإيمان النيقاوى القسطنطينى خدمة القداس الإلهى كجزء رئيسى منه فى القرن الرابع، وتصدّر الكلام الجوهرى...

يُستهل دستور الإيمان بكلمة " أؤمن " وليس " نؤمن " ليظهر للشعب المسيحى قيمة الالتزام الشخصى لكل عضو فى الكنيسة...

لذلك يجب أن لا نتلو دستور الإيمان تلاوة هامشية أو أن نوكل ذلك إلى أى كان دون اشتراكنا الفعلى بذلك إذ المطلوب من كل مؤمن قبل اشتراكه فى تناول القدسات أن يتبنى إيمان الكنيسة وأن يلتزمه شخصياً...

" أؤمن " هذا يعنى أئى أنا فلان الحاضر فى هذه الكنيسة أؤمن أى أتبنى لا بشفتى فقط ولكن بكل كيانى هذه الكلمات التى وضعها آباء الكنيسة وسكبوا فيها الحقيقة المعلن عنها، جاعلينها بعملهم هذا فى متناول كل عقل مستنير بالإيمان ببسوع...

ولقد قال المطران " فيلاريتوس "، مطران موسكو فى القرن الماضى، فى هذا الصدد: " ما دام إيمانكم محفوظاً فى الكتاب المقدس وفى دستور الإيمان فهو ملكٌ لله وأنبيائه ورسله وآباء الكنيسة، إنه ليس لكم ولن تبدؤوا فى اكتسابه إلا عندما يملك على أفكاركم وذاكرتكم ... "...

ومن أجل الوصول إلى حالة كهذه علينا أن نسعى جهدنا لفهم الحقائق المُعبّر عنها فى دستور الإيمان ونسمح لها بالتغلغل فىنا فتؤثر الكلمات التى نردها ونسمعها فى القداس الإلهى فىنا عميقاً وتحولنا إلى أعضاء راشدين واعين لكنيسة المسيح... وهذا ما هدفتنا إليه فى الكتاب الذى بين أيديكم...

ولكن لا بدّ قبل الغوص فى ثنايا الكتاب من إبداء بعض الملاحظات التى نعتبرها هامة لفهم صحيح للعقائد المسيحية ولدستور الإيمان:

أولاً: تلاوة دستور الإيمان جزء لا يتجزأ من القداس الإلهي:

إن تلاوة دستور الإيمان جزء لا يتجزأ من القداس الإلهي...
هى تعبير عن قبول الجماعة للكلمة الإلهية وإعلان إيمانها بهذه الكلمة التى سمعوها
عبر الرسالة والإنجيل فى القسم الأول من القداس (قداس الموعوظين)...
وهى كذلك تأكيد لإرادة الجماعة فى أن تصبح جسداً واحداً بتناولها الكلمة الإلهية فى
سرّ الشكر...

إذن، فتلاوة قانون الإيمان عمل ليتورجى، نشيد من أناشيد التسبيح فى الحياة الطقسية...
العقدة والتسبيح مشدودان إلى بعضهما بعُرى لا تنفصم:
" من يصلى فهو لاهوتى، واللاهوتى هو الذى يصلى " قال الآباء قديماً...
إذاً لا يمكننا أن نتعرّف على الحقيقة الكامنة فى عقيدة ما بالتحليل العقلانى الصرف -
فالعقل لا يمكنه أن يحصر الألوهة وأسرارها...
ولكن يمكننا ذلك بالتسبيح والتأمل...

بالرجاء الكلى فى رحمة الله وهو يكشف لنا حينئذ ذاته ويساعدنا على فهم سرّ
محبتّه...

يقول أحد الآباء:

" ليس المهم أن نتكلّم عن الله أو عن حقيقة الله، بلّ المهم الأهم هو أن ندع ذواتنا
تتطهّر بالله فتمتلئ منه ومن حقيقته..."

اللاهوتى الحق، فى المفهوم الشرقى، هو القديس، لأن القديس قد حقق شركته مع الله...
السعى إلى الله أساس الدين المسيحى...

ودراسة دستور الإيمان ليست دراسة ميتافيزيقية، بلّ هى سعى صامت محبّ ودؤوب
يعبق بالتسبيح...

سعى إلى الحقيقة المعلنة من الله والمُعَبّر عنها بالمسيح يسوع ابنه والمحبية لنا فى
الكنيسة بروحه القدوس...

ثانياً: دستور الإيمان يؤكد وحدة الكنيسة:

دستور الإيمان يؤكّد أن وحدة الكنيسة هى، فى الأساس، وحدة فى الإيمان...
والجماعة التى يشدّها إيمان واحد إنما تعبّر عن إيمانها جماعياً مما يؤدى إلى صون
وحدتها وإعلانها للملء...

وهنا تجدر الإشارة إلى أن المؤمنين في القرون الثلاثة الأولى لم يكونوا في حاجة إلى التعبير عن إيمانهم بواسطة دساتير للإيمان... ولكن دفعهم إلى ذلك ظهور الهرطقات... يقول هيلاريوس في القرن الرابع:

" إن شر الهرطقة والمجذّفين يدفعنا إلى القول بالحرّمات، كأن نتسلّق القمم التي لا تُطال ونتكلّم في أمور لا يُنطق بها ونلجا إلى تفاسير ممنوعة. كان علينا الاكتفاء بأن نتمم بالإيمان وحده ما أمرنا به السيد: أن نسجد للآب ونكرم الابن معه وأن نمتلئ من الروح القدس. ويا للأسف فنحن الآن مضطرون لوصف الأسرار الفائقة الوصف. أن خطيئة الآخرين تسقطنا نحن في هذه الخطيئة: أن نُعرّض الأسرار إلى متناقضات " قصور " لغة البشر، بينما هي وجدت لنخدمها في سكون قلوبنا"...

هذا يعنى أن تشويه الهرطقة للحقيقة المسلمة إلى الرسل فرض على الكنيسة وضع معتقداتها في قوالب بشرية مع إدراكها تمام الإدراك أن الكلمات عاجزة كل العجز عن إحتواء الحقيقة كلها والتعبير عنها كلياً...

هذا الوضع جعل العقائد المسيحية تحوى - حسب الظاهر - تناقضات لا حصر لها... فمثلاً نقول بأن الله واحد وإنه في الوقت ذاته مثلث الأقانيم... ونعترف بأن الله لا يُدنى منه وندعو في الآن ذاته إلى حياة الشركة مع الله... ونُقرّ بأن المسيح إله وإنسان في آن...

ونقول عن الكنيسة أنها منظورة وغير منظورة كذلك إلخ... كل هذه التناقضات - ظاهرياً - تعبّر مجتمعة عن الحقيقة...

لكن الجمع بينها لا يتم على المستوى العقلي بلّ على مستوى الخبرة الروحية... وهذا هو معنى السر في المسيحية...

إنه ليس نظرية صعبة الفهم والادراك، ولكنه حياة نحن مدعوون لاختبارها في جماعة المؤمنين الواحدة، أعنى بها الكنيسة... وكلما ازداد اختبارنا لحياة الكنيسة وجدناها أكثر وأعماق...

ثالثاً: وحدتنا في الإيمان ملتصقة بالمحبة:

وحدتنا في الإيمان ملتصقة بالمحبة وملازمة لها...

وهذه الوحدة تؤهلنا للوصول إلى وحدة الحياة الحقّة في اشتراكنا بالمسيح في سرّ الشكر...

وهذا واضح فى القداس الإلهى إذ يأتى دستور الإيمان مباشرة بعد دعوة الكاهن لجميع المؤمنين لممارسة المحبة قائلاً:

" لنحب بعضنا بعضاً، لكى بقلب واحد، نعتزف مقرين بآب وابن وروح قدس ثالثاً متساوى الجوهر وغير منفصل"...
وهذا يعنى أن جماعة المسيحيين المتحدة بالمحبة على صورة الثالوث القدوس هى وحدها مؤهلة ومدعوة لإعلان الإيمان الواحد...
المحبة الحقيقية توأمان لا ينفصلان...
لا حقيقة معاشة دون المحبة وخارجها...
ولا محبة حقة خارج الحقيقة...

رابعاً: الالتزام الشخصى " أومن ":

أخيراً، يذكرنا الالتزام الشخصى المنوه عنه فى كلمة " أومن " بدعوة دستور الإيمان لنا إلى الالتصاق بهذا التدبير الإلهى الذى يسرد أحداثه وإلى تغيير ذواتنا لكى نصبح سفراء للمسيح وشهوداً له فى هذا العالم...
وبذلك تصبح الكنيسة الجامعة خادمة للعالم الحاضر كما كان سيدها...
وهذا جلىّ فى تسلسل القداس الإلهى:
وحدثنا فى المحبة تؤهلنا لأن نعبر عن إيماننا الواحد..
تعبيرنا عن إيماننا الواحد يؤهلنا للاشتراك فى الكأس الواحدة...
اشتراكنا فى الكأس الواحدة وسكنى المسيح فى قلوبنا يؤهلنا للتفتيش عن المسيح وخدمته فى كل مواضع سكنه، أى أيضاً فى الإنسان الآخر وفى العالم، مؤكدين بذلك أن سرّ الشكر لا يكتمل فعله فىنا إلا إذا أوصلنا إلى المناولة فى " سرّ القريب " كما يقول القديس بوحنا ذهبى الفم...

الفصل الثانى

الإيمان بالله الخالق

" أومن بالله واحد.. "

* تحديد الإيمان:

عندما يتحدث الناس عما يؤمنون به، فكثيراً ما يقصدون أفكاراً اعتنقوها أو مبادئ تبناها أو معتقدات انتموا إليها...

لذا فالسؤال المطروح غالباً هو:
بماذا تؤمن؟...

أما الإيمان بمعناه المسيحي الأصيل، فليس، في الأساس، تصديقاً لأفكار أو اعتناقاً لمبادئ، إنما ارتباط صميمي بشخص حيّ، هو الله...
في منظار كهذا، لم يعد السؤال اللائق هو:
بماذا تؤمن؟...

بل، بمن تؤمن؟...

ليس الإيمان، في الأساس، تصديق أمور عن الله...
بل، الانتماء إلى الله، كإلى مصدر كياننا ومرتكزه ومرجعه...
إنه إدراك حيّ، كياني، لوجود الله، لا كما تدرك حقيقة رياضية أو طبيعية أو تاريخية...
بل، كما يُدرك وجود كائن نحن مرتبطون به في الصميم، ومنه نستمد وجودنا في كل لحظة، وإليه تصبوا، في آخر المطاف، كل أمانينا...
حتى إذا أدركنا وجود هذا الكائن، ألفنا وياننا، جعلنا ثقتنا به وألقينا عليه رجاؤنا...
عبارة "آمن"، في العربية، قريبة من "أمن"...
آمن به تعني آمن له...
أن نؤمن بالله يعني أن نأمن له، أن نثق به، أن نجعل منه معتمدنا ونسلم إليه ذواتنا مطمئنين إليه أعمق اطمئنان...

* الإيمان يختلف عن المعرفة العقلية البحتة:

الإيمان معرفة لله...

وهذه المعرفة، ككل معرفة، تفترض مساهمة العقل...

ولكن الإيمان لا يرد إلى المعرفة العقلية...

الله لا يُعرف بالعقل المجرد كما تُعرف حقائق الرياضيات أو نوااميس الطبيعة...
شأن الله في ذلك شأن حقائق بالغة الأهمية في وجود الإنسان، حقائق قد يُكرّس لها المرء حياته أو يموت في سبيلها ولكنه لا يستطيع أن يقدم عنها براهين منطقية قاطعة...

فمن أدرك روعة الموسيقى أو سمو التضحية، من اعتنق مبدأ العدالة والحرية والإخاء بين البشر، من وثق بصديقه إلى أبعد حدّ، من أدرك أن محبوبه شخصٌ فريد، وإن كان هناك من هو أجمل وأذكى منه، كل هؤلاء مقتنعون بصواب مواقفهم وقد يحاولون تحليلها عقلياً لإقناع الآخرين بها، ولكنهم يعرفون أنهم لا يستطيعون تقديم البرهان العقلي القاطع عن صحتها وأن لا سبيل لهم لتثبيتها على طريقة $2+2=4$ ، وأن من لم يختبر بنفسه ما اختبروه هم غير قادر على مشاركتهم قناعتهم ولو قدّموا له أفضل ما لديهم من براهين...

ولكن ما هو صحيح بشأن تلك الحقائق الإنسانية صحيح بشكل أخص فيما يتعلق بالله:

أ - لأن الله لا يحويه العقل:

يقول الكتاب:

[اللَّهُ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ قَطُّ . الْإِنُّ الْوَحِيدُ الَّذِي هُوَ فِي حِضْنِ الْآبِ هُوَ خَبَرٌ] [يوحنا ١ : ١٨] ...

والمقصود بذلك ليس أن الله لا يُدرك بالحواس وحسب، بلّ أنه لا يُدرك بالعقل أيضاً ولا يمكن أن يصبح بداهة عقلية على طريقة حقائق الرياضيات... هذا أمر طبيعي إذا تذكرنا أن الله هو الكائن اللامحدود... فكيف للعقل المحدود أن يدركه؟...

ذلك أنه لو أدركه لاستوعبه وحواه وامتلكه...

ولكن أتى للمحدود أن يسع غير المحدود...

أتى لنقطة الماء أن تستوعب البحر؟...

كيف للعقل، الذي هو من الكون، والذي من الكون يستمد أفكاره وعلى نموذج أشياء الكون يبني تصورات، كيف لهذا العقل أن يدرك من هو متعال على الكون؟... ثم أتى للعقل أن يحوى الله ويمتلكه، طالما الله هو مصدر العقل نفسه، هو قاعدته وأساسه؟...

مفاهيم العقل البشرى أبداً محصورة....

لذا، فتاريخ الفكر البشرى كله، على كل الأصعدة، من علمى وفلسفى واجتماعى وغير ذلك، إنما هو تاريخ محاولة مستمرة يقوم بها العقل البشرى لتخطى محدودية تصورات، نحو حقيقة أغنى وأكمل...

إنه بذلك التخطى المستمر لمكاسبه ومواقفه يشير إلى الكائن اللامحدود الذى منه يستمد انطلاقته اللامتناهية...

ولكن كيف لى، وهو الذى لا يملك أبدًا سوى حقائق جزئية، أن يحوى ذلك المطلق الذى يدفعه بلا هوادة إلى تجاوز حقائقه الجزئية كلها وأن لا يقف عند حد فى حركته التى لا قرار لها؟...

الله لا يُدركه العقل، لا لأنه مبهم، غامض بحد ذاته...
بلّ على العكس، لأنه الحقيقة الساطعة التى تفوق ملؤها طاقة العقل على الاستيعاب...

فكما أن العين عاجزة عن الشخوص إلى الشمس، لأن نور الشمس يبهرها، هكذا العقل عاجز عن إدراك الله...
هذا ما عبّر عنه الكتاب بقوله:

[الَّذِي وَحَدَهُ لَهُ عَدَمُ الْمَوْتِ، سَاكِنًا فِي نُورٍ لَا يُدْنَى مِنْهُ، الَّذِي لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَقْدِرُ أَنْ يَرَاهُ، الَّذِي لَهُ الْكَرَامَةُ وَالْقُدْرَةُ الْأَبَدِيَّةُ. آمِينَ] [١ تيموثاوس ٦ : ١٦]...

كما أن العين، وهى لا تستطيع أن تحدّق إلى قرص الشمس، تشاهد انعكاساتها على الكائنات، هكذا العقل لا يُدرك الله إنما يستطيع أن يهتدى إليه - كما سوف نرى - إنطلاقاً من آثاره فى الكون، لكن دون أن يُشكّل هذا الإهتداء عملية من نوع البرهان الرياضى أو العلمى، إذ أن ذلك يتنافى، كما رأينا، مع طبيعة الله...
تلك هى المفارقة التى عبّر عنها المفكر الشهير " باسكال ":

{ لا شئ أكثر عقلانية من اعتراف العقل بعجزه عن إدراك الله. ذلك أن العقل، لو استطاع إدراك الله، لارتفع إلى مستوى الله، كما يشير مدلول كلمة " أدرك ". ولكن، لو كان ذلك ممكناً، لما كان الله إلهاً بلّ كائنًا فى مستوى العقل. لا يمكن أن يكون الله إلهاً إلا إذا كان فائقاً كلّ إدراك { ...

ب - لأن حقيقة الله لا تفرض ذاتها على الإنسان:

لأن حقيقة الله لا تفرض ذاتها على الإنسان، شأن البدايات الحسّية والعقلية، بلّ تتطلب منه تقبلاً وانفتاحاً...

ومن جهة أخرى، إذا تأملنا فى علاقة الإنسان بالحقيقة، نرى أن الحقائق التى تفرض ذواتها على حواس الإنسان أو عقله قليلة نسبياً...

فأكثر الحقائق لا تكتشف إلا بجهد، وبالتالي يتطلب اكتسابها، لا رؤية العقل وحسب، بلّ مجهود الإرادة واستعداد النفس لتقبّل حقيقة قد تصدم الأفكار المألوفة وقد تجرح الكبرياء وقد تتصدّى لهذا أو ذاك من الأهواء...

هذا صحيح حتى بالنسبة للحقائق العلمية...

فقد أثبت التاريخ أن كثيراً من النظريات التى طوّرت العلم ودفعته شوطاً بعيداً إلى الأمام، كنظرية " كوبرنيك" فى الفلك، ونظرية لافوازييه فى الكيمياء، و ، حوربت بشدة من قبل الأوساط العلمية المعاصرة لها، وذلك لأسباب لا تمت إلى العلم بصلة، كتمسك العلماء بعاداتهم فى التفكير وتهربهم من الإعراف بأن معلوماتهم كانت خاطئة أو ناقصة، وما شابه ذلك من دوافع نفسية كانت تتخذ العلم ذريعة لها مع أنها غريبة عنه تماماً...

هكذا كان هؤلاء العلماء يقاومون عباقرة عصرهم معتقدين أنهم بذلك يدافعون عن العلم الصحيح ضد مزيفيه، فيما كانوا، من حيث لا يدرون، يدافعون عن عاداتهم وكرامتهم التى كانت تحول دون رؤيتهم للحقيقة الكامنة فى النظريات التى كانوا يناهضونها...

فالحقيقة العلمية ذاتها لا تنكشف إلا لذلك الذى يعترف بتواضع أن معرفته ناقصة ومعرضة للخطأ، وأن طريقته فى التفكير، أيّا كان رسوخها فيه، قابلة للنقض وإعادة النظر...

فإذا كانت الاستعدادات الشخصية تلعب هذا الدور كله فى رؤية الحقائق العلمية نفسها، فكم بالحرى يكون دورها بالنسبة لحقائق أكثر مساساً بالشخص الإنسانى وبسلوكه، مثلاً بالنسبة للحقائق الخلقية...

كيف السبيل مثلاً لإقناع إنسان غارق فى الأنانية بسمو التضحية فى سبيل الآخرين؟... وكيف يمكن لإنسان تسكره غطرسة طبقية أو عنصرية أن يؤمن بمبدأ الإخاء بين البشر؟...

وكيف يستطيع إنسان بنى حياته على الاحتيال أن يعترف بقيمة الصدق؟... إن خبرة مريرة تعلمنا كلّ يوم بأن الإنسان كثيراً ما يفلسف أهواءه ويبنى لنفسه عقيدة تبرّر انحرافات سلوكه...

هكذا فيقدر ما تمس حقيقة ما كيان الإنسان وليس مجرد عقله... بقدر ذلك يتأثر قبولها أو رفضها باستعدادات الإنسان الكيانية، بموافقة الشخصية العميقة...

ولكن آية حقيقة تمس كيان الإنسان كحقيقة وجود الله؟ إنها تعنى الإنسان فى أعماق شخصيته، إذ عليها يترتب، فى آخر المطاف، تحديد رؤيته لذاته ولمصيره، لمعنى حياته وموته، ورؤيته للآخرين ولعلاقته بهم، ونظرته إلى الكون وإلى مركزه فيه...

وجود الله يعنى أنه لا يسعنى أن أكتفى بذاتى ولا بهذا المجتمع البشرى الذى أنتمى إليه ولا بهذا الكون الذى استمد منه عناصر أفكارى ومقومات حياتى...

وجود الله يعنى أن ذاتى والمجتمع والكون، وكل ذلك ليس مُعَلَّقًا على ذاته، مكتفياً بذاته، له غايته فى ذاته، إنما أصله ومرجعه، أَلْفُه ويأوّه، ما يقيمه فى الوجود ويرسم له غايته ويعطيه معناه، هو كائن متعالٍ عنه وحاضر فى صميمه بآن، ألا وهو الله... وجود الله يعنى أنه باطل أن يتعبد الإنسان لأفكاره وميوله ومشاريعه، فردية كانت أو جماعية، لأنه يبقى عند ذلك أسير الفراغ والضياغ، وأنه، بالتالى، إذا شاء أن يحقق ذاته، وجب عليه أن يتخذ من الله لا من ذاته محوراً لوجوده كله...

ولكنه يصعب على الإنسان ان يتخلى عن محورية ذاته...

يقول لنا فرويد أن الدافع النفسى العميق الذى حمل البشر على مقاومة نظرية " كوبرنيك" هو كَوْن هذه النظرية نقضت الاعتقاد بأن الأرض (وبالتالى البشر) هى مركز الكون، وجعلت منها نقطة فى الفضاء اللامتناهى...

وبالتالى طعنت الكبرياء البشرى فى الصميم...

الإيمان بالله يتطلب انسلاخاً أعظم من هذا بما لا يقاس، لأنه يعنى التخلي لا عن مركزية مكانية وحسب، بلّ عن مركزية كيانية، وهذا أعمق بكثير... من لم يكن مستعداً للتخلي عن محورية ذاته، من لم يكن مستعداً لمجازفة تخطى الذات وتخطى المجتمع والكون اللذين تجد فيهما الذات استقرارها وطمأنينتها، هذا لا يمكنه أن يعرف الله حقيقة، ولو اعترف لفظياً...

الإنسان المعتدّ بنفسه، النشوان بأفكاره وانجازاته ومعلوماته وممتلكاته، فردية أو

جماعية، هذا لا يستطيع أن يؤمن حقيقة بالله، كما ورد فى إنجيل يوحنا:

[كَيْفَ تَقْدِرُونَ أَنْ تُؤْمِنُوا وَأَنْتُمْ تَقْبَلُونَ مَجْدًا بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ؟ وَالْمَجْدُ الَّذِي مِنَ الْإِلَهِ الْوَاحِدِ لَسْتُمْ تَطْلُبُونَهُ؟] [يوحنا ٥ : ٤٤] ...

من تعبد لأهوائه رفض الله، بالفعل إن لم يكن بالكلام، لنلا يضطر إلى الاعتراف بشره، كما ورد أيضاً فى الإنجيل نفسه:

[وَهَذِهِ هِيَ الدَّيْنُونَةُ: إِنَّ النُّورَ قَدْ جَاءَ إِلَى الْعَالَمِ وَأَحَبَّ النَّاسُ الظُّلْمَةَ أَكْثَرَ مِنَ النُّورِ لِأَنَّ أَعْمَالَهُمْ كَانَتْ شَرِيرَةً.

لأنَّ كُلَّ مَنْ يَعْمَلُ السَّيِّئَاتِ يُبْغِضُ النُّورَ وَلَا يَأْتِي إِلَى النُّورِ لئَلَّا تُوبَخَ أَعْمَالُهُ.

وَأَمَّا مَنْ يَفْعَلُ الْحَقَّ فَيَقْبَلُ إِلَى النُّورِ لِكَيْ تَظْهَرَ أَعْمَالُهُ أَنَّهَا بِاللَّهِ مَعْمُولَةٌ] [يوحنا

٣ : ١٩ - ٢١] ...

ج - لأن الإيمان اعتراف بالوجود الشخصي لله:

أخيراً يختلف الإيمان عن المعرفة العقلية البحتة، لأن الله موضوعه ليس فكرة أو معادلة رياضية أو مبدأ خلقياً أو ناموساً فائقاً، إنما هو شخص...
الإيمان بالله أساساً اعتراف بشخص واتصال به، وذلك ما يتعدى مجرد عملية عقلية، لأنه يتطلب موقفاً شخصياً، موقف انفتاح وتقبل...
إذا كنت منهمكاً بذاتي، فالبشر الآخرون حولى يكونون كأنهم غير موجودين بالنسبة إلى...

ذلك أننى لا أرى فيهم سوى تلك الصفات التى تمكّننى من تصنيفهم وفق مصالحى وحاجاتى:

فهذا طيب المعشر، وذاك ثقيل الظلّ، هذا صادق فى معاملاته وذاك كذاب، ملتو، وهلم جرا...

أما وجودهم الشخصى الفريد، وجودهم بالنسبة لهم، لا بالنسبة لى ولمشاريعى، وجودهم كما يعيشونه من الداخل، ماذا تعنى بالنسبة لهم خصالهم وعيوبهم وما تعبّر عنه مما يصبون إليه ومما يعانون منه، كل ذلك يبقى غريباً عنيّ، وكأنه غير موجود بالنسبة إلى...

شخص الآخر لا يصبح حاضراً حقيقة فى ذهنى إلا إذا قبلت بأن أخطئ انهماكى بذاتى لأصبح حاضراً لهذا الآخر، منفطحاً إليه...

عند ذاك أصبح بالحقيقة مدركاً لهذا الوجود الفريد ومتصلاً به بأن...

عند ذاك تقوم بينى وبينه علاقة حقة أخرج بها من ذاتى لألاقيه كما هو ولأشارك وجوده كما يحياه هو...

لكن ما هو ضرورى بالنسبة لعلاقتى بشخص إنسانى آخر، ضرورى بصورة أخص بالنسبة لعلاقتى بالله...

فإذا كان تخطئ انهماكى بذاتى أساسى لأكتشف حقيقة وجود الآخر البشرى، فكم بالحرى يصبح هذا التخطئ ضرورياً لأكتشف وجود من هو آخر بالكلية، من يفوق بما لا يقاس أفكارى وتصوّراتى ومشاعرى ورغائى...

فإذا كنت منهمكاً بذاتى، وآمالى وأهوائى، كيف يمكننى أن أتحمس وجود ذاك الذى يعلو على أفكارى ورغائى كما تعلو السماء عن الأرض على حدّ تعبير أشعياء النبى؟...
عند ذاك فقد لا أدرك وجود الله، أو أعترف بهذا الوجود لفظياً دون أن يكون لهذا الاعتراف أى معنى لحياتى، أو قد أرى فى الله مجرد صورة لما أتمناه أو أرهبه، أى

أننى أكوّن لنفسي أصنامًا أقيّمها عوض الله (مثلاً صورة إله " وظيفته" أن يضمن صحّتي ونجاحي وسعادتي ويوفّق أمورى ويعطيني الغلبة على أعدائي ...) ...
أمّا إذا كان لدى من الانفتاح ما يمكّننى من التطلّع على خارج حدود ذاتي، عند ذاك يسعنى أن أدرك وجود ذلك الآخر بالكلية الذى هو مصدر وجودى ومرجعته...
عند ذاك يُمكننى أن أتصل به وأشاركه وجوده وأدرك أنه، وهو المتعالى عنى كل التعالى، أقرب إلّى من ذاتي، لأنى به، وبه وحده أجد ذاتي على حقيقتها وأحقّق معنى وجودى...

تخطّى الذات للاتصال بالإنسان الآخر، تخطّى الذات للاتصال بالله:
ليس هناك مجرد تشابه بين هاتين العمليتين، إنما يوجد إرتباط وثيق بينهما...
فبقدر ما انفتح إلى الآخر البشرى، أصبح أكثر استعدادًا للاتصال بالله...
لذا ربط الرسول يوحنا بين محبة الله (أى الاتصال الصميمى بالله، الذى لا إيمان حقيقى بدونه) وبين محبة البشر أخواتنا، قائلاً:

[فإِنْ قَالَ أَحَدٌ: { أَنَا أَحِبُّ اللَّهَ ! } وَلَكِنَّهُ يُبْغِضُ أَخَاهُ لَهُ، فَهُوَ كَاذِبٌ، لِأَنَّهُ إِنْ كَانَ لَا يُحِبُّ

أَخَاهُ الَّذِي يَرَاهُ، فَكَيْفَ يَقْدِرُ أَنْ يُحِبَّ اللَّهَ الَّذِي لَمْ يَرَهُ قَطُّ ؟] [١ يوحنا ٤ : ٢٠] ...

ولذا تدعونا خدمة القداس الإلهى أن نحب بعضنا بعضاً لنستطيع الاعتراف بالله
الثالوث: " واجعلنا مستحقين كلنا يا سيدنا أن نقبل بعضنا بعضاً بقبلة مقدسة. لكى ننا
بغير وقوع فى دينونة من موهبتك غير المائتة السمائية بالمسيح يسوع ربنا هذا الذى من
قبله المجد والكرامة والعزة والسجود تليق بك معه ومع الروح القدس المحيى المساوى لك
. الآن وكل آوان وإلى دهر الدهور ، آمين"...

*** الله يكشف ذاته لنا فيجعل الإيمان ممكناً:**

إذا كان الله، موضوع الإيمان، يفوق، كما رأينا، كل فكر وتصوّر وشعور ورغبة،
فهذا يعنى أنه لا يمكننى أن أكتشفه من تلقاء ذاتي...

ولكن الله يحبني...

ولذا أراد ان يكشف ذاته لى...

ذلك أن المحبة تدفع المحبّ أن يكشف ذاته للمحبوب...

حسب قول الرب:

[الَّذِي يُحِبُّنِي يُحِبُّ أَبِي وَأَنَا أُحِبُّهُ وَأُظْهِرُ لَهُ ذَاتِي] [يوحنا ١٤ : ٢١] ...

لو لم يأخذ الله مبادرة كشف ذاته للإنسان...

لما كان الإيمان ممكناً...

ولكنه آخذ ابداً هذه المبادرة...

إنه يخاطب الإنسان، مظهرًا له ذاته...

وداعيًا إياه إلى مشاركته حياته...

وذلك بالوسائل التالية:

١ - من خلال آثاره في الخليقة وفي قلب الإنسان...

٢ - بالوحي الإلهي وتاريخ الخلاص الذى بلغ ذروته بتجسّد ابن الله...

تلك هى الطرق التى يسلكها الله ليأتى إلىّ ويقرع على باب نفسى...

حتى إذا سمعت صوته وفتحت له قلبى (والقلب فى لغة الكتاب هو مركز الشخصية،

يلتقى فيه العقل والشعور والإرادة)...

إختبرته بأعماق كيانى حضورًا شخصيًا يملأنى ويملأ الكون قاطبة...

حضورًا يفوق كلّ تصوراتى ورغائى ولكنه ينير العقل ويستقطب الشعور...

حضورًا لا أملكه ولكننى به ومنه وله أحيًا...

هذا هو الإيمان فى آخر المطاف...

* أسئلة:

١ - هل الإيمان مجرد تصديق أفكار عن الله، أم هو أبعد وأعمق من هذا؟...

٢ - هل يُعقل أن يدرك العقل المحدود الله اللامحدود؟ ماذا يقول الكتاب المقدس بهذا

الصدق؟ [راجع يوحنا ١: ١٨ و ١ تيموثاوس ٦: ١٦]...

٣ - هل هناك حقائق لا تفرض ذاتها على الإنسان فرضًا، بل تتطلب منه انفتاحًا وتقبلًا

لها؟ أذكر بعض هذه الحقائق. لماذا يصح ذلك، بنوع خاص، بالنسبة لحقيقة الله؟...

٤ - ماذا يقول الإنجيل عن المواقف الشخصية التى تحول دون الإيمان بالله؟ [راجع يوحنا

٣: ١٩ - ٢١ و يوحنا ٥: ٤٤]...

٥ - هل الاعتراف بوجود الشخص الآخر والاتصال به عملية عقلية بحتة، أم أنهما

يتطلبان اتجاهًا إلى الآخر وتخطيًا للذات؟ كيف يصح ذلك، بنوع خاص، بالنسبة للإيمان

بالله؟...

٦ - هل من علاقة بين الانفتاح للبشر والاتصال بالله؟ [١ يوحنا ٤: ٢٠]...

٧ - إذا كان الله يفوق كل فكر وتصوّر، فكيف أستطيع أن أؤمن به؟...

٨ - ما الذى يدفعنى إلى كشف ذاتى لإنسان آخر؟ لماذا وكيف يظهر الله ذاته لنا؟...

٢ - الله يكشف نفسه لنا

*** الله يكشف ذاته لنا من خلال الخليفة:**

لقد كتب الرسول بولس:

[إِذْ مَعْرِفَةُ اللَّهِ ظَاهِرَةٌ فِيهِمْ لِأَنَّ اللَّهَ أَظْهَرَ مَا لَهُمْ . لِأَنَّ مُنْذُ خَلْقِ الْعَالَمِ تُرَى أُمُورُهُ غَيْرُ الْمَنْظُورَةِ وَقُدْرَتُهُ السَّرْمَدِيَّةُ وَلَا هَوْنُهُ مُدْرَكَةٌ بِالْمَصْنُوعَاتِ حَتَّى إِنَّهُمْ بِلَا عُدْرٍ] [رومية ١ : ١٩ ، ٢٠] ...

فالخليفة كلها تحمل أثر الله كما أن التمثال يحمل أثر النحات الذى صنعه...

إنها كتاب نقرأ بين سطوره عظمة الله وحكمته وجماله...

إنها تهجئة لله تحدثنا عنه وتشير إليه...

لهذا أنشدت المزامير:

[السَّمَاوَاتُ تُحَدِّثُ بِمَجْدِ اللَّهِ وَالْقَلْبُ يُخْبِرُ بِعَمَلِ يَدَيْهِ] [مزمور ١٩ : ١] ...

فلنستعرض بعض آثار الله فى الكون وفى الإنسان...

أ - ارتباط كل ما فى الكون بأسباب:

كل ما فى هذا الكون مرتبط بأسباب أوجدته...

إذًا، لا شئ فى هذا الكون موجود بحد ذاته، إذ لولا الأسباب التى أوجدته لما وُجد...

لا شئ، إذًا، فى الكون موجود بالضرورة، أو، كما تقول الفلسفة، واجب الوجود...

كل ما فى الكون ممكن الوجود، لا يوجد إلا بفعل آخر...

ولكن ما يصح فى جزيئات الكون يصح أيضًا فى الكون ككل...

ذلك أنه لا يُعقل أن يكون كل عنصر من عناصر الكون ممكن الوجود، أما مجموعة

العناصر فواجبة الوجود...

الكون إذًا ممكن الوجود لأنه مجموعة عناصر كلها ممكنة الوجود...

وإذا كان ممكن الوجود، فمعناه أنه ليس موجود بحد ذاته، بلّ بفعل آخر...

إذًا، يستدعى الكون سببًا خارجًا عنه...

وهذا السبب الخارج عن الكون ندعوه الله...

ولنأخذ الآن مثالاً يوضح ما قلناه:

إذا أخذنا حيوانًا وتساءلنا:

لماذا هذا الحيوان حيٌّ؟، وما سبب إستمراره فى الوجود؟...

رأينا أن لذلك أسبابًا متعددة منها المواد الغذائية التى تحويها الأطعمة. ولكن إذا تساءلنا

من أين تأتى تلك المواد الغذائية التى هى سبب إستمرار الحيوان فى الوجود رأينا أن لها

بدورها أسبابًا. فمثلاً المواد السكرية، وهى التى تحرك جسم الحيوان وتولد النشاط فيه، لا يمكن أن تأتى فى النهاية إلا من النباتات...

وهنا نتابع تساؤلنا فنفتش عن سبب وجود هذه المواد السكرية فى النباتات، فيتّضح لنا أنها تتكوّن من اتحاد الكربون بالمواد الكيماوية التى تمتصها النباتات من الأرض بواسطة الجذور...

وهنا نتساءل، ما هو سبب وجود الكربون فى النباتات؟...
فيجب العلم أنه من تحليل الحامض الكربونى أو ثانى أكسيد الكربون الموجود فى الهواء...

ولكن ما هى علة هذا التحليل؟...
إنه يتم بفعل مادة الكلوروفيل الموجودة فى النباتات...
ولكن ما هو سبب فاعلية الكلوروفيل على ثانى أكسيد الكربون؟...
هنا يظهر البحث العلمى أن فاعلية الكلوروفيل ناتجة عن الطاقة التى تستمدّها من الشمس...

فنتساءل: ما هى علة الطاقة الشمسية هذه؟...
فتجيبنا إحدى النظريات العلمية أنها ناتجة عن تفكيك ذرات الهيدروجين فى الشمس...
وهنا لابدّ للعقل أن يتساءل عن السبب الذى يحدث هذا التفكيك وهذا السبب يستدعى بدوره سببًا آخرًا .. وهلم جرا...

وهكذا حيثما انتقلنا فى هذا الكون نجد سلاسل مرتبطة حلقاتها إرتباطًا متينًا...
وكأن الكون آلة مركبة من دواليب كثيرة يحرك أحدها الآخر...
فكل من هذه الدواليب يستمد حركته من دواليب آخر...
غاية العلم أن يكتشف دومًا أسبابًا جديدة أى دواليب جديدة وهكذا يفسّر لنا الكون ولكن تفسيره ليس بنهائى...

لأن السؤال النهائى ليس هو ما هى الدواليب وما هو عددها ولكن ما هو سبب حركة الآلة كلها...

ذلك لأنه مهما كثر عدد الدواليب، وحتى لو افترضنا أن هذا العدد غير متناهٍ، فهذا لا يمنع أن تكون حركة الآلة مستمدة فى النهاية من محرك أول...
فإذا ألغينا هذا المحرك الأول توقفت الآلة حتمًا لأن الدواليب، مهما تعددت، تصبح بدونها عاجزة عن نقل أيّة حركة...

هذا المصدر الأول الذى تستمد منه كل الأسباب فاعليتها، كما تستمد الدواليب كلها حركتها من المحرك الأول، هو الله...

وكما أن الآلة تستمد باستمرار وفى كل لحظة حركة دواليبها من المحرك الأول، هكذا ليس صحيحاً أن الكون استمد وجوده فى لحظة معينة من الله ثم أصبح موجوداً بذاته، ولكنه لا يقوم إلا على الله، أن وجوده مستمد فى كل لحظة ممن هو وحده واجب الوجود...

ب - نظام الكون:

فى الكون نظام وترتيب يبدوان لنا إذا تأملنا مثلاً الفلك والجسم الإنسانى أو غرائز الحيوانات. يشير هذا النظام إلى وجود حكمة فائقة تتجلى فى الكون وتسيره... فالنظام الشمسى مثلاً، المكون من الشمس ومن السيارات التى تدور حولها، يسير بموجب قواعد رياضية دقيقة بينها الفلكى الشهير "كيبلر"... هذه النواميس لها من الدقة والثبات ما يخول علماء الفلك أن يعينوا بالتدقيق الزمن الذى سوف يحدث فيه خسوف وذلك قبل حصوله بألف سنة...

الجسم الإنسانى:

ولنأخذ مثلاً وهو تكوين الجنين...
المعلوم أن الجنين لا يبدأ إنساناً صغير الحجم ليس عليه إلا أن ينمو ليصبح ذا حجم كبير...
إنما الجنين يتكون إنطلاقاً من خلية واحدة، نتجت من اتحاد رأس الحيوان المنوى الذكرى والبويضة الأنثوية عند إخراجها فى وقت معين وفى مكان محدد وهو الثلث الخارجى من قناة فالوب، بعد أن يقطع الحيوان المنوى رحلة طويلة من المهبل إلى عنق الرحم، ثم التجويف الرحمى منطلقاً فى اتجاه قناة فالوب ...
الجسم الإنسانى بتعدد أعضائه وأجهزته يخرج من تلك الخلية الواحدة التى لا أعضاء فيها ولا أجهزة إلا فى الكود الجينى الذى تحمله الكروسومات الموجودة فى نواة هذه الخلية التى يطلق عليها " الزيجوت"...
وعند تكاثر الخلية وانقسامها، ينتج خلايا عديدة متخصصة لتؤلف كل فئة منها جهازاً من أجهزة الجسم...

ويرافق هذا التخصيص تنسيق بديع بين الأجهزة حتى تؤلف جسماً متماسكاً منسجم الأجزاء، متماثلة فى جميع الجنس البشرى، وكان العملية كلها موجهة بموجب تصميم رائع...

غرائز الحيوانات:

غرائز الحيوانات مدهشة خاصة إذا نظرنا إلى الحشرات ورأينا عند تلك الكائنات البدائية تصرفات محكمة الدقة تفوق ذكاءها بما لا يقاس...
فالنحل يصنع الشمع من إفرازات غدده في شكل هندسى ذو حسابات دقيقة ليتسنى إستغلال المجال المتاح على أكمل وجه وفى تنسيق بديع...
وكذلك التنظيم المبدع لحياة النمل وسائر الحشرات...
هذا النظام الذى يبدو فى مختلف مظاهر الكونه، كيف نفسره؟...
أقول أنه من المادة؟...
ولكن المادة - كما يدرسها العلماء - هى مجموعة ذرات وطاقات...
فالسؤال هو:

ما الذى يُوجد فى تلك المجموعة نظاماً؟...
ما الذى يجعل منها كوناً مرتباً ذلك الترتيب المنطقى الذى لولاه لما استطاع العقل أن يفهم الكون وأن يبنى علماً؟...
البيت مؤلف من حجارة، ولكن المهم هو:
ما الذى رصف الحجارة على شكل بيت؟...
الكتاب مؤلف من حروف، ولكن المهم هو:
ما الذى رتب الحروف لتؤدى معانى رواية أو بحث؟...
إننا فى رصف الحجارة نرى فكر المهندس، وفى ترتيب الحروف نرى فكر المؤلف...
كذلك فى ترتيب الكون نرى فكراً جباراً لا قياس بينه وبين الأفكار البشرية...

لذا قال العتالم الكبير " أينشتاين":

{ إن كل عالم رصين هو فى حالة ذهول وانخطاف أمام إنسجام نواميس الطبيعة الذى فيه يتجلى عقل فائق بهذا المقدار حتى أن كل أفكار البشر الماهرة وترتيبها ليست، إذا قورنت وقيست به، سوى إنعكاس تافه بالكلية... } [أينشتاين: كيف أرى الكون]...

هذا الفكر الجبار هو فكر الله...

ج - عطش الإنسان المطلق:

ولكن أثر الله يبدو أيضاً في إعماق القلب البشرى...

إنه يتجلى مثلاً، فى عطش الإنسان على المطلق...

يمكن أن يُعرّف الإنسان بأنه " حيوان قلق"...

هذه ميزة أساسية يختلف بها عن سائر الكائنات الحية...

فللحيوان رغبات غريزية محدودة، سهولة الإرضاء، لذلك ليس فى حياته مشاكل...

أما الإنسان فكلما حاول إشباع رغباته اشتدت وقويت فيه هذه الرغبات، وكأن هناك

شيئاً فى أعماق كيانه يحركه ويعذبه ويوجهه ويدفعه دون هوادة...

فى الإنسان تباين دائم، تفاوت مستمر بين ما يرغبه وما يملكه، بين إرادته ومقدرته،

بين ما يريد أن يكون وما هو عليه...

لذلك يندفع دون هوادة لإزالة هذا التباين ولكنه لا يتوصّل أبداً إلى هذه الغاية...

فكلما حاول أن يقترب من مرغوبه، ابتعد هذا عنه موقظاً فى نفسه الخيبة

والحسرة...

هذا ما يبدو فى الخبرة اليومية وعلى كل الأصعدة...

نكتفى بذكر البعض منها:

١ - فالإنسان الساعى إلى مال أو مجد لا يكتفى بما حصل عليه. إنه كلما بلغ مأربه

يطمع بالمزيد. لذا، لا يعرف قلبه راحة أو إستقراراً " عين الإنسان لا تشبع" كما

يقول المثل السائر...

٢ - ولنأخذ السعى إلى الجمال. أمام منظر طبيعي بديع أو قطعة أدبية رائعة أو ...،

يشعر الإنسان، إلى جانب نشوته، بشئ من الحزن، ويزداد هذا الحزن بنسبة ما يكون

جمال هذا المنظر أو هذا الإنتاج الفنى الأخاذ. كيف يفسّر هذا الحزن؟. ذلك أن الجمال

الذى أدركناه أيقظ فينا حينئذ لا قدرة لنا على إطفائه ومن هنا نشأ الألم. وما هو صحيح

بالنسبة إلى التمتع بالجمال ينطبق أكثر على الفنان الذى ينتجه. فكم من الأدباء والفنانين

الخلاقيين أفضوا إلينا بالمرارة التى كانوا يشعرون بها عندما كانوا يبدعون تحفة فنية

رائعة. عندما تخرج تلك التحفة الرائعة حقاً، من أيديهم، كان الألم يحز فى نفوسهم

لشعورهم بالتفاوت بين ما كانوا يحلمون به وما استطاعوا أن يحققوه...

٣ - ولننتقل الآن إلى خبرة الحب. فالحب، كما هو معلوم، ينزع إلى تأليه المحبوب. ألا

يسمى المحبّ الحبيب " معبود"؟ إنه إذا يطلق عليه قيمة لا متناهية وينتظر منه سعادة

مطلقة. ولكنه يمنى بالخيبة، فالمحبوب، مهما سمت صفاته، بشر وليس إلهاً، لذا لا يمكنه

أن يقدم لمحبه السعادة الفردوسية التى يحلم بها. لذا دعا الشاعر الفرنسى " كلوديل"

المرأة المحبوب " وعدًا لا يمكن أن يُبرَّ به ". وحتى إذا لم يؤله المحبوب، فالحب يسعى إلى شركة بين الحبيبين تامة وخالدة، ولكنه يصطدم بالسأم الذي تولده العادة وبالأناثية والموت...

مجمل الكلام أن للإنسان المحدود أمانى لا محدودة...
ولذلك يعيش فى توتر دائم...

ولكن ما هو سرّ هذا التفاوت الصارخ؟...
من أين للإنسان هذا السعى إلى اللامتناهى والمطلق فيما لا تقدم له خبرته سوى ما هو محدود ونسبى؟...

التفسير الوحيد المرضي لتلك الظاهرة الغريبة هو أن الإنسان المحدود يحمل فى ذاته صورة كائن لا محدود...

ويكون هكذا سعيه إلى المطلق تعبيرًا عن حنين تلك الصورة إلى أصلها...
وتكون خيبته المتكررة ناتجة عن كونه يخطئ المرمى فيفتش عن المطلق
واللامتناهى بين المخلوقات فيما لا يستطيع سوى الله أن يروى عطش قلبه...
فكما أن المد يفترض وجود القمر الذى يجتذب إليه مياه البحر، ولو كان القمر مختلفًا
وراء السحب، كذلك مدّ النفوس فى سعيها المتواصل إلى المطلق يستقطبه الله ولو
احتجب الله عن نظرنا وإدراكنا:

{ يا رب لقد خلقتنا متجهين إليك ولذلك لن تجد قلوبنا راحة إلا إذا استقرت فيك } [
أوغسطين المغبوط]...

*** الله يكشف ذاته لنا بالوحي الإلهي:**

لكن الله شاء أن يكشف لنا ذاته بشكل أوضح وأكمل من تهجئة الخليفة له. لذلك شاء أن
يحدّثنا عن ذاته:

١ - بواسطة حوادث الخلاص: التى ترويه لنا الكتب المقدسة الموحاة منه والتي يظهر
لنا فيها كيف خلق الله الإنسان واعتنى به وكيف هيا الله إفتداء الإنسان بتهيئته للشعب
اليهودى وعنايته الخاصة به وترتيبه له وكيف تم الخلاص أخيرًا بتجسده والحوادث
التى تبعته من بشارة وموت وقيامة وصعود إلى السماء وإرسال الروح القدس...

٢ - بواسطة رجال إختارهم ليحدثوا الناس عنه: فكشف لهم ذاته لكى يُنبئوا الناس
عنه وعن حبه وإرادته، ولذا دعوا أنبياء، ليس فقط لأنهم تنبأوا بما سوف يحدث
وخاصة عن المخلص المنتظر، ولكن خاصة لأنهم أنبأوا البشر بقوة وحرارة عن الله
وما تنتظر محبته من الناس...

٣ - وخاصة بواسطة الابن المتجسد:

[الله، بَعْدَ مَا كَلَّمَ الْآبَاءَ بِالْأَنْبِيَاءِ قَدِيمًا، بِأَنْوَاعٍ وَطُرُقٍ كَثِيرَةٍ،
كَلَّمَانَا فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ الْآخِرَةِ فِي ابْنِهِ - الَّذِي جَعَلَهُ وَارِثًا لِكُلِّ شَيْءٍ، الَّذِي بِهِ أَيْضًا عَمَلُ
الْعَالَمِينَ.

الَّذِي، وَهُوَ بِهَاءِ مَجْدِهِ، وَرَسَمُ جَوْهَرِهِ، وَحَامِلُ كُلِّ الْأَشْيَاءِ بِكَلِمَةِ قُدْرَتِهِ، بَعْدَ مَا صَنَعَ بِنَفْسِهِ
تَطْهِيرًا لِخَطَايَانَا، جَلَسَ فِي يَمِينِ الْعِظَمَةِ فِي الْأَعَالِي،

صَائِرًا أَكْثَمَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ بِمِقْدَارِ مَا وَرِثَ اسْمًا أَفْضَلَ مِنْهُمْ] [عبرانيين ١ : ١ - ٤] ..

أحبنا إلى حد أنه أراد أن يعيش بيننا، كواحد منا، وأن يجعل نفسه منظورًا وملموًا
منّا في الابن المتجسد. وهكذا نلنا أعظم وأكمل إعلان عن الله لأن:

[كُلُّ شَيْءٍ قَدْ دُفِعَ إِلَيَّ مِنْ أَبِي وَلَيْسَ أَحَدٌ يَعْرِفُ الْابْنَ إِلَّا الْآبُ وَلَا أَحَدٌ يَعْرِفُ الْآبَ
إِلَّا الْابْنُ وَمَنْ أَرَادَ الْابْنَ أَنْ يُعْلِنَ لَهُ] [متى ١١ : ٢٧] ...

والابن نفسه حدثنا عن الآب وعن نفسه وعن الروح وكشف لنا أن الله ثالث وثلاثون وأدخلنا
إلى سر حياة الثلاثون...

٤ - ومن خلال المسيح بواسطة الروح القدس في الكنيسة: كل هذا الوحي الإلهي
حفظ في الكنيسة التي أسسها الرب يسوع المسيح لتنتقل إلينا بأمانة ما أوحى الله به
وتفسره حسب رأى الله بإلهام الروح القدس الساكن فيها لأن:

[أَنْ مَنْ مِنَ النَّاسِ يَعْرِفُ أُمُورَ الْإِنْسَانِ إِلَّا رُوحُ الْإِنْسَانِ الَّذِي فِيهِ؟ هَكَذَا أَيْضًا أُمُورُ
اللَّهِ لَا يَعْرِفُهَا أَحَدٌ إِلَّا رُوحُ اللَّهِ] [١ كورونثوس ٢ : ١١] ...

* أسئلة:

١ - كيف يكشف لنا الله نفسه في الطبيعة؟...

٢ - كيف يقودنا إلى الله، إرتباط كل ما في الكون بأسباب؟...

٣ - هل تعرف مثلاً عن النظام الذي يسود الكون: مأخوذاً من الفلك؟ مأخوذاً من الجسم
الإنساني؟ مأخوذاً من غرائز الحيوانات؟...

٤ - كيف يقودنا هذا النظام إلى الله؟...

٥ - ها تعرف معن المثل الشعبي: "إن عين الإنسان لا تشبع"؟ هل هنالك أمثلة في حياتك
أنت وحياة الناس عامة تثبت حقيقة هذا المثل؟ إلى ماذا يشير هذا التفاوت بين محدودية
الإنسان وأمانيه اللامحدودة؟...

٦ - كيف يكشف الله لنا ذاته فى الكتاب المقدس؟ فى حوادث هذا الكتاب؟ فى أقوال الأنبياء؟ فى الرب يسوع؟ فى الكنيسة؟...

* ملحق (١)

حين يجد الإنسان نفسه على شفير الموت، قد يشعر، أكثر من أى وقت آخر، بمحدودية كيانه، وإن كيانه هذا، وبالتالى كيان جميع المخلوقات، إنما هو مستمد من آخر. فى تلك اللحظات التى يحسّ فيها الإنسان أن الوجود يفلت منه، قد يختير بقوة أن هذا الوجود، وكلّ وجود، ليس قائمًا بذاته، إنما هو قائم فقط بإرادة آخر. لذا فقد تكون هذه اللحظات مناسبة للتوجّه إلى الله أو لتقوية الصلة به، وفيما يلى شهادتان على ذلك:

النص الأول وُجد فى إحدى ساحات القتال على جثة أحد الجنود، وقد كتبه فى ليلة معركة لقى فيها حتفه، وكان النص موقعًا Pv.J.J.V.

{ إسمع يا إلهى، إننى لم أكلمك قط قبل الآن...

ولكننى اليوم أريد أن أقول لك: " كيف حالك؟"...

لقد قيل لى أنك غير موجود...

وأنا عندئذ، كأبله، صدّقت ذلك...

فى الليلة الماضية، من حفرة القنبلة التى كنت فيها، كنت أرى سماءك...

لذلك تحققت جيدًا أنهم كذبوا على...

لو كلفت نفسى أن أرى كلّ ما صنعت...

لكننى فهمت أنه لا يمكن أن يُنكر وجودك...

أتساءل إن كنت تقبل أن تصافحنى...

على كلّ أشعر أنك ستفهمنى...

إنه لمؤسف أن أكون قد أتيت إلى هذا المكان الجهنمى...

قبل أن يتيسّر لى الوقت الكافى لأعرف وجهك...

لعمري، أفكر أنه لم يبق لى شئ كثير أقوله...

لكننى سعيد لأننى صادفتك هذا المساء يا إلهى...

أعتقد أن الساعة ستأتى قريبًا...

لكننى أخشى منذ شعرت أنك قريب بهذا المقدار...

ها هى الإشارة! يجب أن أذهب يا إلهى!...

إننى أحبك كثيرًا وأريد أن تعرف ذلك...

أنظر، سوف تحدث معركة هائلة...
ومن يدري، يمكن أن أتى إليك في هذه الليلة!...
رغم أن علاقاتي السابقة لم تكن حسنة...
أتساءل إن كنت ستنتظرنى على عتبة بابك...
أنظر إننى أبكى! غريب أن أزرف أنا دموعاً!
آه، ليتنى تعرّفت إليك قبل الآن بكثير!...
آه، يجب أن أذهب الآن: الوداع...
إمر غريب! منذ أن تعرّفت إليك لم أعد أخاف الموت { ...

* ملحق (٢)

أما النص الثانى فهو مقطع من رسالة كتبها الكاتب الروسى الشهير " بوريس باسترناك" مؤلف كتاب " دكتور زيفاجو" والحاصل على جائزة نوبل، يصف فيها لأحد أصدقائه أول ليلة قضاها فى المستشفى إثر أزمة قلبية كادت تودى بحياته...
{ فى تلك الليلة التى كانت تبدو لى آخر لحظات حياتى، كنت أريد، بأكثر قوة مما مضى، أن أخطب الله وأقول له: يا رب أشكرك لأنك جعلت حياتى وموتى على هذا المنوال، لأن صوتك جليل بهذا المقدار، لأنك جعلت منى فنانياً مبدعاً تعلم فى مدرستك أنت، لأنك هياتنى طيلة حياتى لإستقبال هذه الليلة. لقد كنت سعيداً إلى حد أننى بكيت { ...

٣ - الإيمان والحياة

* الإستعدادات الضرورية لإقتبال كشف الله:
كشف الله عن نفسه لى هو كشف شخص لشخص...
كشف شخص الله غير المحدود لشخصى المحدود...
وهذا الكشف لا يتم إلا فى لقاء حبى بين الله وبينى...
واللقاء يتطلب أن يسعى الشخصان أحدهما إلى الآخر...
الله يسعى دوماً إلىّ لأنه يحبّنى...
ولكنه لا يكرهنى على أن أسعى إليه لأنه يحترم حرّيتى...
وكما أن الإنسان إذا أغلق قلبه دون إنسان آخر، لا يستطيع أن يفهمه ولا يحسّ حقيقة وجوده...
هكذا بالحرى الإنسان الذى يعظم نفسه ويكتفى بذاته، ولا يمكنه أن يعرف الله...

إدًا، لا يكتفى أن يفتش الإنسان بعقله عن الله ليجده...

إنما يطلب منه أن يكون قلبه مستعدًا للقاء الله...

يقول الرب يسوع:

[طوبى لِلْأَقْبِيَاءِ الْقُلُوبِ لِأَنَّهُمْ يُعَايِنُونَ اللَّهَ] [متى ٥ : ٨]...

والنقى القلب هو الذى لا غش فيه ، أى الإنسان المستقيم، المخلص، الذى يسعى إلى

الحقيقة بكل جوارحه والمستعد إلى إقبال الحقيقة ولو كانت تخالف كبريائه وأهواءه...

هذا الإنسان مستعد قلبه للقاء الله...

كثيرون يعتقدون بأنهم يعرفون الله لأنهم يرددون كلمات عنه...

ليست هذه سوى معرفة سطحية لا قيمة لها...

المعرفة الحقيقية لله لا تتم إلا فى لقاء حى يكشف فيه الله ذاته لى...

معرفة الله فى الإنجيل تعنى محبة الله...

أعرف الله معناه أحبه...

لأن معرفة الله لا تتم خارج محبة الله:

[الَّذِي يُحِبُّنِي وَالَّذِي يُحِبُّنِي يُحِبُّهُ أَبِي وَأَنَا أُحِبُّهُ وَأُظْهِرُ لَهُ دَاتِي] [يوحنا ١٤ : ٢١]...

لذلك يقول آباء الكنيسة أن اللاهوتى هو الذى يصلّى...

إذا أعلى شهادة فى اللاهوت لا تكفى وحدها لمعرفة الله...

المسيحى البسيط الذى يصلّى حقيقة أى يناجى الله ويرفع إليه روحه يعرف الله أكثر من

لاهوتى كبير لا يصلّى بل يكتفى برصف كلام بديع عن الله...

لذا كتب القديس " غريغوريوس النزينزى " :

{ الحديث عن الله العظيم، ولكن الأفضل أن نطهر ذواتنا لله { ...

*** الإيمان لا يكتمل إلا بالحياة:**

كما أن معرفة الله لا تتم إلا بالاتصال الحياتى به...

هكذا الإيمان لا يكتمل إلا بالحياة...

لا يُعتبر مؤمنًا ذاك الذى يعترف بوجود الله ولكنه يتصرف كأن الله غير موجود...

المؤمن ليس ذلك الذى ينادى بفكر الله...

إنما هو الذى يقبل الله إلهًا له، أى محورًا لكيانه كله وموجهًا ومسيرًا لحياته...

بهذا المعنى يقول الله عن الذين سوف يقبلونه:

[سَأْغُونَ لَهُمُ الْهَيَّا] [حزقيال ١١ : ٢٠] ...

إنه موضوعاً إلههم منذ الأزل، شأوا أم أبوا، إنما يصبح حياتياً إلههم عندما يسلمون إليه حياتهم كلها...

إبراهيم اعتبر أباً المؤمنين ليس لأنه اعتقد بالإله الواحد وسط شعب وثني وحسب، بلّ لأنه أسلم حياته لله...

فقبل أن يتخلى عن أهله وعشيرته وبيئته ومصالحه وعوائده، وأن يخرج متجهاً إلى مكان مجهول أعدّه الله له...

جوهر الإيمان، إذاً، أن يصبح الله إلهي،

أى المرجع المطلق لكل أمورى وأن أطيعه ليس فقط فى تصرفاتى الخارجية بلّ وفى أفكارى ورغباتى...

هذا ما تعنيه كلمة " أرثوذكسية" ...

إنها تعنى فى آن واحد " الاعتقاد المستقيم " و " التمجيد المستقيم" ...

وبهذا تعلمنا أن الاعتقاد المستقيم لا يكتمل إلا بتمجيد مستقيم...

تمجيد الله بحياتنا كلها...

[فَإِذَا كُنْتُمْ تَأْكُلُونَ أَوْ تَشْرَبُونَ أَوْ تَفْعَلُونَ شَيْئاً فَافْعَلُوا كُلَّ شَيْءٍ لِمَجْدِ اللَّهِ] [١ كورونثوس ١٠ : ٣١] ...

[فَمَجِّدُوا اللَّهَ فِي أَجْسَادِكُمْ وَفِي أَرْوَاحِكُمْ الَّتِي هِيَ لِلَّهِ] [١ كورونثوس ٦ : ٢٠] ...

بهذا المعنى أيضاً يقول " فيلاريتوس " مطران موسكو:

{ لن يكون دستور الإيمان لكم إلا إذا عشتموه } ...

**** أسئلة:**

١ - ما هى الاستعدادات الضرورية لإقتبال كشف الله لنا؟ (أنظر مثلاً متى ٥ : ٨) ...

٢ - هتلى يكتمل الإيمان بدون الحياة؟ هل يعتبر مؤمناً ذاك الذى يعتقد بالله ولكنه يعيش كأن الله غير موجود؟ هل اعتبر إبراهيم أباً للمؤمنين لأنه اعتقد بالله وحسب؟ ...

٤ - الإيمان والعلم

* هل من تناقض بين الإيمان والعلم؟:

هذا ما يدّعيه الكثيرون من دعاة الإلحاد...

ولكن هذا الاعتقاد خاطئ من الأساس...

أ - لأن العلم والإيمان يعملان على صعيدين مختلفين:

فالعلم يهتم بربط حوادث الكون بعضها ببعض ولكنه لا يبحث في ما هو أبعد من ذلك، أى أصل الكون والإنسان ومصيرهما ومعنى وجودهما لأن ذلك خارج عن نطاقه...

فالعلم مثلاً يصف لنا تطوّر الحياة من أبسط الكائنات حتى الإنسان ولكنه لا يبحث في أصل المادة التى تطوّرت وفى موجّه هذا التطوّر وفى غايته...
أمّا الإيمان فيعلمنا أن الله أوجد المادة ووجّه تطوّر ها وإن غاية التطوّر إيجاد كائن على صورة الله، هو الإنسان، معدّ للإشتراك فى حياة الله نفسها...
فالعلم الذى ينادى بالتطوّر لا يخالف بذلك الإيمان الذى يرى فى التطوّر خطة من خطط الله لا يخالف العلم...

ب - لأن معظم بناء العلم الحديث كانوا مؤمنين:

ولنذكر على سبيل المثال " نيوتن " الذى كان يرفع قبعته إجلالاً كلما ذكر اسم الله...
و " كيبلر " و " فاراداي " و " باستير " و " أمبير " الذى كان يردّد أمام صديقه " أوزانام " :

{ ما أعظم الله } ...

ولنذكر بين المعاصرين " أدنجتون " و " ماكس بلانك " و " لويس لبرنس رنجيه " من أعظم علما الذرة...

ولنذكر أيضاً كاهنين يُعتبران من أقطاب العلم الحديث: " الأب جورج لوميتير " صاحب نظرية مشهورة فى نشوء الكون حتى نظرية التمدد الكونى...

والأب " بيار تيار دى شردان " من أعظم العلماء والمفكرين المعاصرين وهو متخصص فى علم التطوّر نادى فى مؤلفاته بأن التطوّر لا يُفهم إلا إذا اعتبرنا الله ألفه وياؤه...

كل هؤلاء كان علمهم مدعاة لتغذية إيمانهم بالله لأنهم تطلّعوا بالعلم على عجائب الكون فرأوا فيها يد الله:

[مَا أَعْظَمَ أَعْمَالَكَ يَا رَبُّ! كُلُّهَا بِحِكْمَةٍ صَنَعْتَ. مَلَأْتَ الْأَرْضُ مِنْ غَنَّاكَ]

مزمور ١٠٤ : ٢٤]...

ج - لأن الاختراعات الحديثة لا تنفى سلطة الله:

لأن الإختراعات البشرية الحديثة وسيطرة البشر المتزايدة على الطبيعة لا تنفى كما يدعى البعض سلطة الله...

إنما هى بالأحرى إشارة إلى هذه السلطة...

ذلك لأن ما يخول الإنسان - وهو جزء من الطبيعة - أن يدرك مكنونات الطبيعة ويسيطر على طاقاتها بهذا المقدار العجيب، هو كون الله قد خلقه على صورته وجعله مشاركاً له إلى حد ما فى سلطته على الكون:
[وَبَارَكْهُمْ اللَّهُ وَقَالَ لَهُمْ: أَثْمِرُوا وَآكُثِّرُوا وَامْلَأُوا الْأَرْضَ وَأَخْضِعُوهَا وَتَسَلَّطُوا عَلَى سَمَكِ الْبَحْرِ وَعَلَى طَيْرِ السَّمَاءِ وَعَلَى كُلِّ حَيَوَانٍ يَدِبُّ عَلَى الْأَرْضِ] [تكوين ١ : ٢٨]...
فسلطة الإنسان على الكون مستمدة من سلطة الله...

لذا، يجب أن تقوده ليس إلى الإنفتاح والتبجح بلّ إلى التسبيح والشكر لمن وهبه إيّاها حباً...

هذا ما تفعله الكنيسة فى كلّ قناداس إلهى عندما ترفع إلى الله كذبيحة شكر الخبز والخمر اللذين يمثلان ليس فقط الطبيعة ولكن الصناعة البشرية كلّها التى بواسطتها تمكّن الإنسان من إخراج النبات من الأرض وتحويل القمح والعنب إلى خبز وخمر... فيقبل الأب كل ذلك محولاً إيّاه إلى جسد ودم ابنه...

***** أسئلة:**

هل من تناقض بين الإيمان والعلم؟ هل صحيح أن صعود الإنسان إلى القمر أو إرساله صواريخ إلى الفضاء يناقضان سلطة الله؟ أليست سلطة الإنسان على الكون مستمدة بالأحرى من سلطة الله؟ (أنظر تكوين ١ : ٢٨)...

**** ملحق (١)**

شهادة إثنين من بناء العلم الحديث:

{ شاهدت الله فى أعماله وفى نواميس الطبيعة التى تثبت أن هناك حكمة وقوة مستقلين عن المادة } [نيوتن، فلكى ورياضى إنجليزى يُعتبر من أعظم العلماء الذين برزوا فى تاريخ العلم]...

{ أيها الخالق. أباركك لأنك سمحت لى أن أعجب بأعمالك. لقد أتممت رسالة حياتى بالعقل الذى أنت وهبتيه. أذعت للعالم مجد أعمالك. فإذا كنت بأعمالى التى كان يجب أن تتجه نحوك طلبت مجد الناس فاعف عنيّ لصلاحك وحنوك. أيتها الانسجيمات السماوية باركى الرب. يا نفسى باركى الرب { [كيلبر - فلكى ورياضى ألمانى - لقب بمشترع السماء]...}

*** ملحق (٢)

شهادة رئيس الأساقفة لوقا الروسي الأرثوذكسى وهو الأستاذ والجراح الشهير الدكتور " فوينويا سنتسكى " حامل جائزة ستالين فى الجراحة والمذكور فى الموسوعة الطبية السوفياتية الكبرى ...

وفيما يلى مقطع من خطاب ألقاه سنة ١٩٥٧ فى ذكرى ميلاده الثمانين: { ... إنما أريد أن أحدثكم عن جلائل أعمال الله التى ظهرت فى حياتى. وقد علمت أن كثيرين يتساءلون كيف... بعد أن أدركت شهرة العلماء، استطعت الانصراف إلى التبشير بإنجيل المسيح. إن من يفكر على هذا النحو يرتكب خطأ كبيراً، فهو يفترض أنه لا يمكن التوفيق بين العلم والدين. ومن كان على هذا رأى، فهو فى ضلال مبين. فإن شواهد تاريخ العلوم تدلنا على أن عباقرة العلماء أمثال جاليلي، ونيوتن، وكوبرنيك الذى أحدث انقلاباً فى المفاهيم الفلكية باعتباره الشمس لا الأرض مركزاً للنظام الشمسى، كان راهباً ألمانياً، ومانديل الذى اكتشف قوانين الوراثة وأسس علم الوراثة الحديث كان راهباً تشيكوسلوفاكياً... كانوا متدينين تديناً عميقاً. كما أنى أعرف أن بين أساتذة الجامعات من معاصرينا كثيرون ممن يؤمنون، فالبعض منهم يسألوننى البركة } ...

الفصل الثالث

الخلق و السقوط

"..خالق السماء والأرض كل ما يُرى وما لا يُرى..."

١- الخلق والتطور

يقول الكتاب المقدس:

[فِي الْبَدْءِ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ] [تكوين ١ : ١] ...

تلك عقيدة الخلق

التي بموجبها نقرر أن كل الموجودات قائمة فى الوجود

بإرادة الله وبإرادته فقط، ومُسْتَمَدَّة منه وجودها...

هذا ما نعبر عنه فى قانون الإيمان بقولنا:

"أؤمن بالله واحد، الله الأب، ضابط الكل، خالق السماء والأرض، كل ما يُرى وما لا يُرى..."

* رواية الخلق في سفر التكوين ونظرية التطور:

عندما يصف لنا سفر التكوين عملية الخلق، في فصله الأول، فإنه يصور لنا الكائنات وكأن كلاً منها أو كلّ نوع منها قد أوجده الله بشكله الحاضرة مباشرة... ولكن نظرة كهذه تتعارض مع نظرية التطور التي يتفق عليها معظم العلماء المعاصرين والتي أصبحت شبه مؤكدة بالإستناد إلى العديد من البراهين... وهنا ينشأ تساؤل عند الكثيرين:

كيف يمكن التوفيق بين الوحي الإلهي ومعطيات العلم؟...

للجواب عن هذا السؤال الوجيه، ينبغي أن نتذكر، بادئ ذي بدء:

أن الكتاب المقدس كتاب إيمان لا كتاب علم، همّهُ أن يكشف لنا علاقة الله بمخلوقاته، وبنوع خاص بالإنسان، لا أن يقدّم لنا وصفاً علمياً لتاريخ الكون...

لذا فعندما يصف سفر التكوين الخلق في فصله الأول، فإن الوحي الإلهي ينسكب فيه في قوالب بشرية، هي التقاليد التي كانت شائعة في المكان والزمان الذي ظهر فيه هذا

الفصل...

ولا قيمة، إذًا، لتلك القوالب بحد ذاتها...

إنما قيمتها في المعاني الروحية التي تتجلى من خلالها...

تلك المعاني التي تلخص بأن الكائنات كلها تستمد من الله الواحد وجودها وترتيبها...

هذا ما فهمه آباء الكنيسة اليونانيون خمسة عشرة قرنًا قبل ظهور النقد الكتابي الحديث...

ففسروا رواية الخلق في سفر التكوين تفسيراً رمزياً أكثر منه حرفياً...

نستنتج مما سبق أن إيماننا بالخلق ليس رهناً بالقالب الحضاري الذي سكب فيه الإعلان الإلهي عن الخلق في سفر التكوين...

وأنه يمكننا أن نعبر عنه بالقوالب الفكرية التي يميّز بها عصرنا ومن جملتها نظرية التطور...

هذا ما سنحاول أن نبيّنه، مذكّرين أولاً باختصار بمراحل التطور كما يصفها العلم

الحديث، ثم متعرضين لما يقتضيه واقع التطور من تعليل أخير على ضوء العقل والإيمان...

* مراحل التطور:

لقد أثبت العلم الحديث أن التطور لم يشمل الكائنات الحية فحسب...

إنما هو ملازم لتاريخ الكون برمته...

فالكون الذى ننتمى إليه كون متطور...

وقد بدأ تطوره على مستوى الطبيعة الجامدة حتى أدى على ظهور الحياة التى

تطورت بدورها حتى أبرزت ذلك الحيوان المفكر، الإنسان...

أ - تطور المادة:

إن النظرية المرجحة اليوم بين العلماء تقول بأن الكون، فى حالته الحاضرة، قد بدأ

منذ مدة تتراوح بين العشرة مليارات والخمسة عشر ملياراً من السنين...

وأنه كان فى البداية مؤلفاً من سحب من ذرات الهيدروجين (وهى أبسط الذرات

وأخفها) تسبح فى الفضاء...

إنطلاقاً من تلك السحب تكونت الكواكب...

ونشأت فيها بفعل الحرارة الهائلة تفاعلات نووية حولت ذرات الهيدروجين إلى ذرات

أثقل من الهيليوم، وهذه بدورها إلى ذرات أثقل من الكربون، وهلم جرا...

هكذا تكثفت المادة تدريجياً بظهور ذرات تجمع عدداً أكبر فأكبر من الجسيمات فى

نظام شبيه بالنظام الشمسى تدور فيه الإلكترونات حول النواة المؤلفة من البروتونات

والنيوترونات، إلى أن تكون، فى قلب الكواكب، الإثنا وتسعون نوعاً من الذرات

الموجودة فى الطبيعة...

ولما تكونت أرضنا، منذ حوالى أربعة مليارات ونصف من السنين وانخفضت تدريجياً

درجة الحرارة فيها...

أمكن للذرات أن تتفاعل لتتكون منها مجموعات أكثر كثافة، ألا وهى الجزيئات...

ولكن عملية تكثيف المادة لم تقف عند هذا الحد...

فمنذ ثلاثة مليارات من السنين على وجه التقريب، بدأت الجزيئات تتحول، بفعل

الأشعة الكونية، إلى بنى تفوق الجزيئات العادية كثافة، ألا وهى الجزيئات العضوية

التي تولف بين الجزيئات العادية فتجمعها فى وحدات ضخمة، معقدة الترتيب،

كالكسريات والحوامض الأمينية والهيولييات PROTIDES، وغيرها...

ب - قفزة الحياة:

تجمعت تلك الجزيئات العضوية فى مياه البحار الساخنة. وكان تجمعها هذا تمهيداً لحث بالغ الأهمية، لا يزال الغموض يكتنف ظروفه إلى الآن، حدث منذ مليارى عام على وجه التقريب، فغيّر وجه الكون، ألا وهو بروز الخلية الأولى... إن حركة التكتيف المنظم، التى رأيناها تدفع المادة منذ نشأتها، بلغت هنا درجة فائقة.. فالخلية الحيّة تؤلف بين جزيئات عديدة ضخمة من الهوليئات والشحميات والسكريات والفيتامينات وغيرها، فى وحتدة متماسكة مركزة أروع تركيز، يتناسق فيها حوالى مليار من الجزيئات...

ولكن الأمر المدهش هو خاصة فى كون هذا التعقيد الفائق قد أدّى إلى ظهور نمط جديد من الوجود، يختلف نوعياً بشكل جذرى عن الجوامد، ألا وهو الحياة... فالخلية الحية تتمتع بميزات جديدة بالكلية:

فهى تحوّل إلى موادها الذاتية المواد التى تستمدّها من الخارج، وتجدد باستمرار العناصر التى تتألف منها مع المحافظة على بنيتها، وتنمو من الداخل، وتصلح ذاتها إذا عطبت، وتتكيّف مع البيئة، وتتكاثر منتجة كائنات جديدة شبيهة بها... تلك هى قفزة الحياة...

ج - تطوّر الحياة:

من ذلك العالم، الصغير فى حجمه، الهائل فى تعقيد وتركيزه، انطلقت الحياة لترقى سلماً طويلة كان الإنسان قمته...

وفى ترقّيها هذا، ابعت الحياة السير فى الطريق التى رأينا المادة تسلكها، ألا وهى طريق التعقيد المتزايد...

فبعد الكائنات الحية الأولى ذات الخلية الواحدة، ظهرت كائنات تؤلف بين خلايا متعدّدة فى وحدة منسجمة تعمل فيها العناصر كلها لخدمة المجموع... وقد ازداد التعقيد بشكل ملحوظ عندما أخذت مجموعات من الخلايا، ضمن الكائن الواحد، تتخصص للقيام بوظيفة معينة، فتكونت الأجهزة، وعمل بإنسجام وترابط لصالح الجسم ككل...

وكان لا بد من جهاز يربط تلك الوظائف من جهة، وبينها وبين العالم الخارجى من جهة أخرى، فبرز الجهاز العصبى وتطوّر تدريجياً نحو تكتيف وتركيز متزايدين، مما أدى إلى نمو الدماغ كمركز أساسى للجهاز العصبى، وإلى سيطرته التدريجية على المراكز العصبية الأخرى...

وبتطوّر الجهاز العصبى على هذا المنوال نمت قدرة الكائنات الحية على التكيف مع بيئتها، وازدادت الغرائز إتقائًا وبرز الذكاء وتزايدت حدته إلى أن بلغت أوجها فى أعلى مراتب القرده، كالشمبانزى مثلاً، التى بلغ دماغها درجة ملحوظة من النمو... ذلك الترقى فى سلّم الكائنات الحية كان يتم، كما بيّن داروين وأوضح العلم الحديث، بواسطة تبديلات كانت تحصل من وقت إلى آخر فى الميزات الوراثية التى تحملها الخلايا التناسلية، وهذا ما يسمّى بـ " التغيرات الإحيائية " MUTATIONS ، فتظهر عند الحيوان المنحدر من خلية من هذا النوع صفات جديدة... وقد تخدم هذه الصفات فى الصراع من أجل البقاء ، فيعمّر وينقل صفاته الجديدة بالوراثة إلى نسله، فيثبت هذا فى الوجود ويتكاثر... أو قد تعيقه فى هذا الصراع، فيزول هو أو نسله، وتزول معه صفاته " الإصطفاء الطبيعى " Natural Selection ... وهكذا بتراكم " التغيرات الإحيائية " نشأت شيئاً فشيئاً أنواع جديدة انتظمت فى هذا الخط التصاعدي الذى سبق وأوجزناه...

د - قفزة الفكر:

إن عملية نمو الدماغ ، التى أصبحت المحور الأساسى لحركة التعقيد المتزايد التى يتميز بها التطوّر، بلغت ذروتها فى الإنسان الذى يتألف دماغه من حوالى أربعة عشر ملياراً من الخلايا (أربعة أضعاف خلايا الشمبانزى تقريباً)، مترابطة بعضها ببعض وبخلايا المراكز العصبية الدنيا، على صورة شبكة إلكترونية هائلة التعقيد... هكذا تأمنت الشروط اللازمة لقفزة لا تقل أهمية عن تلك التى حققتها الحياة، ألا وهى قفزة الفكر....

تلك القفزة التى تمت على مراحل منذ أكثر من حوالى مليون سنة، أوجدت نمطاً جديداً بالكلية من الوجود، وهو الوجود الإنسانى، وجود كائن يتميّز عن سائر الكائنات الحية بكونه، وحده، يعى ذاته، ويعى الكون كمتميّز عن ذاته، ولذا لم يعد كالحَيوان، أسير أحاسيسه ودوافعه الغريزية، إنما أصبح كائنًا ذا فكر وحرية، يُدرك التطوّر ومكانه فيه ويأخذ على عاتقه مسئولية متابعته بوعيه وعمله الخلاق...

*** التطوّر فى تعليله الأخير ومعناه:**

إن العلم يثبت واقع التطوّر، كما أنه يوضّح العوامل التى تفسّر مراحلها المختلفة...

لقد توصل على اكتشاف العديد من تلك العوامل - وقد نوهنا ببعضها - وسيتوصل بلا شك، بفضل جهود العلماء المتضافرة، إلى إلقاء المزيد من الأضواء على النقاط التي لا يزال يكتنفها الغموض، فتتوضح أكثر فأكثر...

ولكن، إلى جانب التساؤلات التي يترتب على العلم أن يحيب عنها، فهناك تساؤلات من نوع آخر، لا تدخل في نطاق العلم لأنها تُطرح من منظار يختلف عن منظاره... فعندما يقول العلم بالتطور، يصف خطأً تصاعدياً، ويظهر كيف سلكت مادة الكون هذا الخط...

ولكنه لا يُبدى، وليس من شأنه كعلم أن يُبدى، لماذا كان هناك خط تصاعدي؟... هكذا يبقى الباب مفتوحاً أمام تساولين صميمين، ألا وهما:

ماهو التعليل الأخير للتطور؟...

هل للتطور مبرر ومعنى؟...

أ - التطور لا يعلل بمجرد الصدفة:

جواب البعض عن السؤال الأول هو:

أن هذا التسلسل التصاعدي مرجعه الصدفة وحدها...

فبالصدفة تجمعت ذرات المادة بتعقيد متزايد، وبالصدفة تألفت الخلية الحيّة، وبالصدفة تركيب الدماغ الإنسانى...

كل ذلك سلسلة صدف، تعاقب أرقام رابحة فى يانصيب كوني يسير دواليبه حظ أعمى...

ولكن تلك النظرة الفلسفية، التي يعود أصلها على فلاسفة إغريقين قدامى كـ " ديموقريطوس"، لا تثبت أمام ما يكشفه العلم الحديث لنا عن مدى التعقيد والتنسيق الذي تتصف به خلية حيّة واحدة، لا بلّ جزئية واحدة من الجزيئات العضوية...

لذا نبذها معظم علماء اليوم، حتى من يدين منهم بالمذهب المادى...

فمثلاً نرى العالم البيولوجى السوفييتى الكبير " أوبارين" يدحض محاولة تفسير ظهور خلية حية واحدة بفعل الصدفة بقوله:

{ إن هذا الافتراض شبيه بموقف إمري يخلط أحرف طباعة تمثل ثمانية وعشرين حرفاً أبجدياً ويحركها، راجياً أنها بداعى الصدفة سوف تجتمع لتؤلف هذه أو تلك من القصائد التي نعرفها { ...

فإذا كان ظهور خلية واحدة بداعى الصدفة أمراً مستحيلاً، كما يؤكد علم يدين بالمادية، فكيف نفسّر بالأحرى، بمجرد فعل الصدفة، تدرّج الحياة المتواصل نحو أشكال أرقى فأرقى...

إذا اعتبرنا أن هذا التدرج إنما هو تتابع صدف موفقة، فمن أين للصدفة هذا الاستمرار والترتيب فى فعلها؟...

فكأننا نقول أن تبديلات طرأت صدفة على نص مبادئ الهندسة التى وضعها أقليدوس، أثناء نسخه من قبل ناسخين متتابعين ينقل أحدهما عن الآخر، تعاقبت بشكل متناسق من نسخة إلى نسخة حتى أوجدت بالتوالى كل اختراعات البشرية فى علم الهندسة وأدّت فى النهاية إلى بروز نظرية أينشتاين...

هذا مع العلم بأن خلية واحدة من الخلايا إنما هى أكثر تعقيداً من نظرية أينشتاين، لأن العلم البشرى، بكلّ جبروته الحالى، لم يتوصّل حتى الآن، إلى إدراك سرّ تركيب واحدة منها...

ب - التطوّر لا يُعلّل بفعل " الطبيعة " :

إذا كانت نظرية الصدفة لا تثبت أمام معطيات العلم الحديث، رغم محاولات " جاك مونو " لإحيائها فى كتابه " الصدفة والضرورة "، فبماذا يمكن الإستعاضة عنها؟... كثيرون ممن يدينون اليوم بالمذهب المادى، يقولون بأن التطوّر تفسره طبيعة المادة نفسها...

فبنظرهم كان لابدّ للمادة، بالنسبة لطبيعتها، أن تنتظم وتتعدّد أكثر فأكثر مجتازة بذلك كل مراحل التطوّر...

ولكن السؤال الذى لا تجيب هذه النظرية عنه هو:

ما هو سر انتظام المادة؟...

وما هو سر سيرها نحو إنتظام متزايد فى خط متواصل، مستمر؟...

من أين للمادة هذا الانتظام؟...

المادة مجموعة من جسيمات ومن طاقات، إنها كثرة وتعدّد...

فكيف يتاح لهذه الكثرة أن تتوحّد وتنتظم، وذلك بشكل متزايد، تصاعدى؟...

هل نقول أنها تنتظم ذاتها؟...

ولكن هذا يفترض أن المادة ذات، شخص، يعلو على تعدّد عناصره ليوحد وينسق بينها...

هذا ما يضمّره، من حيث لا يدرون، هؤلاء الذين يقولون أن " المادة " أو " الطبيعة " هي علة التطوّر الأخيرة...

إنهم بذلك يشخصون " المادة " أو " الطبيعة "، ينسبون إليهما كيانًا خرافيًا، ذات طابع شخصي...

فلنأخذ مثلاً يوضّح ما نحن بصدده...

نحن نعلم أن جسم كل من الكائنات الحيّة يتكوّن إنطلاقاً من خلية أولى... لقد انكبّ علم الحياة الحديث على درس ذلك التحوّل الذي يجعل من البلوطة سنديانة ومن خلية إنسانية واحدة جسداً إنسانياً مؤلفاً من حوالى ستين ألف مليار من الخلايا، متنوعة وموزّعة على أجهزة وأعضاء متناسقة بشكل مذهل... وقد أوضح العلماء التفاعلات الكيميائية العديدة المعقدة التى تؤدى تدريجياً إلى هذا التحوّل، ولكنهم يقولون أن تلك التفاعلات موجّهة، مبرمجة، بفعل " تصميم موجّه " كامن فى نواة الخلية الأولى، وعلى وجه التخصيص فى جزيئات الـ D.N.A. بفضل تلك البرمجة تتناسق التفاعلات الكيميائية لتؤوّل على تكوين كائن حيّ يحمل الصفات التى يتميّز بها نوعه...

فبالقياس إلى ذلك نتساءل:

إذا كانت المادة قد سلكت، فى تاريخها الطويل، تلك المسيرة التصاعدية التى قادتها من سحب الهيدروجين الأولى إلى الدماغ الإنسانى، فقد تم ذلك بلا شك بتأثير عوامل فيزيائية وتفاعلات كيميائية عديدة، أوضحها العلم وسيوضحها أكثر فأكثر... ولكن يبقى هذا السؤال:

ما هو سر انتظام تلك العوامل والتفاعلات فى خط تصاعدى؟...

ما هو سر " برمجة " المادة فى مسيرتها المتواصلة نحو كائنات أكثر فأكثر تعقيداً؟...

البرمجة التى بموجبها يتكوّن الكائن الحيّ والمرتسمة فى نواة خليته الأولى قد أتته بالوراثة من كائن حيّ من نوعه (أو كائنين) وجد قبله...

فمن أين لمادة الكون برمجتها المذهلة؟...

إذا كانت المادة هى الكائن الوحيد، المكتفى بذاته...

فمن أين استمدّت تصميمها الموجّه؟...

هل نقول أنها برمجت ذاتها؟...

إننا عند ذاك، كما قلنا سابقاً، ننسب لتلك الكثرة من الجسيمات والطاقات، كياناً شخصياً...

إننا ننسب إليها فكراً يفوق الفكر الإنسانى بما لا يقاس، لأنه لم "يخترع" الحياة وحسب، تلك الحياة التى لم تستطع العبقرية البشرية و تقليدها إلى الآن، بل أوجد الفكر الإنسانى أيضاً...

إننا خلافاً لكل منطق...

ننسب لها القدرة على التحول، بحد ذاتها، من الأقل إلى الأكثر، ناقلة ذاتها بذاتها من نظام إلى نظام أرقى وحسب، بل من صعيد وجود إلى صعيد وجود آخر مختلف عنه بالكلية، أى من مادة جامدة إلى مادة حيّة ثم إلى مادة مفكرة...
وبعبارة أخرى نجعل من المادة شخصاً إلهياً يخلق ذاته باستمرار...
ولكن مادة مؤلهة كهذه لم تعد المادة التى يعرفها علماء الفيزياء والكيمياء ويسخّرونها لخدمة الإنسان...

تلك المجموعة الغاشمة من الجسيمات والطاقات التى يسميها العلم "مادة"...
إنها صنم جديد أقيم عوض الله...

ج - نظرة إيمانية إلى التطور

هذا النقد الموجز للمذاهب المادية فى تحليل التطور يمهد لنظرتنا الإيمانية إليه...
فالمؤمن لا يتعبّد لصدفة أو مادة تنسب إليهما صفات الخالق...
ولكنه ينسب الفكر الخلاق الذى يتجلّى عمله فى تطوّر المادة إلى كائن متعالٍ عن المادة...

كائن يمكنه وحده أن يوجّه تلك الكثرة من الجسيمات والقوى العمياء فى الخط التصاعدى الذى سارت بموجبه...

كائن يملك الحياة، كلّ الحياة...

ولذا، استطاع أن يبيث الحياة فى الكون...

ويملك الفكر، كل الفكر...

ولذا، استطاع أن يشعله فى الأرض بظهور الإنسان...

إن ذلك الموقف الإيمانى، وإن كان، تحديداً، يفوق معطيات العقل والعلم، إلا أنه منسجم كلياً، كما يتضح مما سبق، مع متطلبات المنطق ومع المفهوم العلمى للمادة...
ولكن فعل الله هذا فى المادة يجب أن يُفهم على حقيقته...

ليس هو، كما يتصور العديد من المؤمنين وغير المؤمنين، فعلاً يُضاف إلى نواميس الطبيعة ليكمل نقصها...

هذا التصور يتنكر بأن واحد لتعالى الله ولحضوره في صميم الكون...
لذا، فمن الخطأ أن نتصور تصميمًا مضافًا من الخارج إلى العناصر الطبيعية لتوجيهها وتقويم مسيرتها، كما يوجه السائق سيارته...
فالله يعمل، لا إلى جانب نواميس الكون، بل من خلالها، لأنها منه ومنه وحده تستمد، في كل لحظة، وجودها وانتظامها...

بهذا المعنى، الخلق عملية مستمرة، كما أشار الرب بقوله:

[أَبِي يَعْمَلُ حَتَّى الْآنَ وَأَنَا أَعْمَلُ] [يوحنا ٥ : ١٧] ...

والتطور هو المظهر الحسي لاستمرار الخلق...

الله، في الطبيعة، معلن ومحتجب بأن...

للعلم أن يفتش إلى ما لانهاية عن تفسير التطور...

إنه لن يكتشف الله كما أنه لن يصطدم به، لأنه، بموجب منظاره الخاص، لن يكتشف

سوى النواميس الطبيعية التي يعمل الله من خلالها...

ولكن، كلما اتضح لنا، بفضل الاكتشافات العلمية، الانتظام الرائع الذي يتجلى في مسيرة

التطور المذهلة، كلما انكشف لنا، من خلاله، حضور وفعل ذاك الذي يغمر مجده

وبهاؤه الكائنات...

تلك النظرة الإيمانية هي أيضًا التي تستطيع أن تكشف لنا إن للتطور مبررًا ومعنى...

فلو كان التطور وليد الصدفة وحدها، لكان ظهور الكائنات كلها، ومنها الإنسان،

ظهورًا عبثيًا ABSURDE ، على سبيل الاتفاق الأعمى، لا تبرير له ولا هدف...

وكذلك لو كان التطور وليد نواميس مادية غاشمة وحسب، ولكان مسيرة لا غاية لها،

قدرًا أعمى توجد بموجبه المادة زهرتها الفضلى، الفكر البشرى، وتسحقها، على

التوالى، بموجب " ضرورة فولاذية " أشار إليها أنجلز...

ولكن هل يعقل أن تكون تلك المسيرة المذهلة التي قادت الكون من ذرات الهيدروجين

الأولى إلى الإنسان وفكره وحضارته، مسيرة لا هدف لها ولا مبرر؟...

إذ تكشف لنا أن ذاك الذى هو تعليل التطور الأخير يعطيه أيضًا هدفه وغايته، وأن

تلك الغاية هي أن تبرز من جسم الكون كائنات بوسعها أن تشترك في حياة الله وفرحة

الأبديين...

هذا ما حدسه فيلسوف شهير معاصر قاده تأمله العميق في تطوّر الكون وفي تاريخ الإنسان إلى عتبة الإيمان، " هنرى برجسون " ، عندما قال:

{ إن الكون آلة لصنع الألهة } ..

هذا ما يقودنا إلى الحديث عن خلق الإنسان...

أسئلة :

١- إقرأ الإصحاح الأول من سفر التكوين، ماهى التساؤلات التى تطرحها رواية الخلق هذه على فكر معاصر؟ ...

٢ - ما هى معلوماتك عن التطوّر ومراحله وعوامله؟...

٣ - هل المنظار العلمى كاف لتعليل التطوّر تعليلاً نهائياً، صميماً؟...

٤ - ما رأيك بالصدفة كتعليل أخير للتطوّر؟...

٥ - هل يكفى، فى تعليل التطوّر، أن نعزوه إلى طبيعة المادة؟...

٦ - ما هى النظرة الإيمانية إلى التطوّر؟ هل تتعارض مع النظرة العلمية؟...

٧ - ما هو معنى التطوّر فى هذا المنظار الإيمانى؟...

*** ملحق:**

١ - فى كتابه الرائع " كيف تطرح اليوم قضية وجود الله؟" يستعرض " كلود

تريمونتان" أستاذ فلسفة العلوم فى جامعة السوربون، المذاهب المادية فى تعليل

التطوّر، ويفنّدها بقوة ووضوح، و مما يقوله:

{ إذا ... قلت أن المادة تنظم ذاتها، فإننى أجعل من المادة فاعلاً لفعل نظم. المادة،

والحالة هذه، لا ينظمها آخر: إنها تنظم ذاتها...

{ ولكن فلنتساءل أولاً: ما هى المادة؟ إنها تعدّد عناصر، ذرات، حبات طاقة...

{ القول بأن المادة تنظم ذاتها، بإمكانياتها الذاتية، هو إستعارة شعرية جريئة. ولكن ما

وراء هذه الإستعارة؟ ليست المادة شخصاً لتكون فاعلاً لفعل يُصرّف مع ضمير

الفاعل.

{ ليست واحداً من الأشخاص لتكون قادرة على تنظيم ذاتها.

{ المادة تعدّد... فكيف لها أن تنظم ذاتها؟ لكى يكون هذا الاكتفاء، هذا التنظيم الذاتى

ممكناً، يفترض فى المادة أن تكون ذاتاً، أن يكون بإمكانها أن تعلو على ذلك التعدّد

الذى منه تتكوّن، لكى تنظم ذاتها. لكى يتم دمج هذا التعدّد الذى منه تتكون، لكى تنظم

ذاتها. لكى يتم دمج هذا التعدّد من العناصر فى تأليف يفترض وجود قدرة تفوق تعدّد

العناصر هذا، يفترض وجود شئ غير هذا التعدّد...

{ ... المادة لا تكفى بحد ذاتها لتعليل إنتظامها الذاتى ... }

وبعد أن يذكر المؤلف رأى ماركس بأن الكائنات فى الطبيعة تنشئ ذاتها، يعلق على هذا الرأى بقوله:

{ هذا بالضبط ما يحتاج إلى إثبات. ما يحتاج إلى إثبات، هو أن العبارة نفسها لها معنى. لأننا إذا نسبنا إلى المادة القدرة على تنظيم ذاتها بصورة جزئيات، ثم جزئيات ضخمة، ثم أجسام أحادية الخلية، ثم أجسام متعدّدة الخلايا أكثر فأكثر تعقيداً، فهذا يعنى أننا نسبنا إلى المادة ذكاء وعبقريّة يفوقان كل ذكاء الإنسانية المفكرة، طالما أننا، بعلمنا، لم نزل بعيدين عن إدراك كيف تمّ، وكيف لا يزال يتمّ فى هذه اللحظة بعينها، تنظيم المادة الذى يكون الأجسام الحية والمفكرة... }

{ ولكننى أتساءل مرة أخرى: ماذا يعنى فكر المادة؟ المادة كثرة، إنها مجموعة. ما هو إذاً ذلك الفكر الذى تتحلّى به جمهرة من الذرّات وحبّات الطاقة... عبثاً أتأمل وأدرس الذرات والجسيمات التى تتحدّث عنها الفزياء الحديثة. إننى لا أتوصّل إلى رؤية ما يسمح لى بأن أنسب إليها فكراً قادراً على الإشراف على تنظيمها. لكى تنتظم مجموعة من العناصر، ينبغى أن يوجد مبدأ واحد يعلو على تعدّد العناصر هذا ويجمعه فى وحدة مؤلفة فى تنظيم مركزى. ولكننى لا أرى، فى المادة التى تحدثنا عنها الفزياء الحديثة. أى شئ يسمح لى بأن أنسب إلى الذرات شخصية خفية وقدرات كهذه ... }

٢ - إن أحد مشاهير اللاهوتيين الكاثوليك المعاصرين، ألا وهو الأب شونانبرج الهولندى، يوضح مضمون عقيدة الخلق، إذ يقول فى كتابه " عالم الله فى صيرورة":
{ الله لم يخلق وحسب، بل إنه مستمر بلا إنقطاع فى الخلق. إذا كان قد ارتاح فى اليوم السابع، فراحته أيضاً هى، حسب كلمة يسوع، عمل مستمر: [أبى يَعْمَل حَتَّى الْآنَ] [يوحنا ٥: ١٧]. إن الفصل الأول من سفر التكوين يعطينا رواية أخاذة عن عمل الله " فى البدء". ولكن نصوصاً أخرى تظهر لنا الله عاملاً دون إنقطاع. هذا هو شأن المزمور ١٠٤ والفصول ٣٨ إلى ٤٠ من سفر أيوب. طالما العالم يدوم، فهو محمول بكلمة قدرته. كل كائن وكل عمل فى الكون، طالما هما موجودان، مسببان منه. ليس الله مهندساً متقاعدًا، إنه ذاك الذى منه وفيه نحيا ونتحرّك ونوجد (أعمال الرسل ١٧: ٢٨).

{ ... عندما أشار الله إلى أعماله فى الطبيعة، مريدًا أن يبرّر أمام أيوب عمل عنايته، فإنه ألحّ على الأعمال الحاضرة بقدر ما ألحّ على العمل الذى قام به " فى البدء". لذا

فنحن لسنا بمضطرين بأن نأخذ هذه العبارة المستمدة من تكوين ١:١ بمعناها الحصرى. إنها تعنى أن عمل الله الخلاق يشكل أساس كل شئ، وليس أن هذا العمل قد توقف {...

{ إن الخلق يجعل بالحقيقة بين الله والمخلوقات علاقة عمودية تبقى على كل العلاقات الأفقية القائمة فى داخل الكون، أو بالأحرى تشملها وتعطيها بأن توجد. الله يخلق عالماً يتطور، إن عمله الخلاق لا ينحصر فى بداية العالم بل يمتد حتى ملء إكماله: الله يحقق فى كل لحظة هذا الكون ككون متطور {...

{ الله عامل أبداً. إنه بالضبط من يعطى للعالم بشكل دائم حقيقته، حقيقة فى نمو متواصل {...

٢ - خلق الإنسان

يروى لنا الكتاب المقدس عملية خلق الإنسان فى الفصلين الأول والثانى من سفر التكوين...

هذا النص يحوى حقائق عقائدية مغلقة فى صور رمزية، وشعرية، وإذا تمعنا فى النص يمكننا إبراز المعانى الآتية:

* ارتباط الإنسان بالطبيعة المادية:

يقول لنا الكتاب المقدس أن الله أوجد الإنسان من تراب... وهذا ما تشير إليه كلمة " آدم" ومعناها: المأخوذ من " أداما" أى الأرض... فالإنسان مرتبط إذاً بكيانه بتلك الطبيعة المادية التى هى أيضاً خليفة الله... وبالفعل نرى أن جسم الإنسان مكون من العناصر نفسها التى تتكوّن منها الطبيعة المادية، فالمواد الكيميائية الرئيسية العشر التى يتألف منها جسده وأهمها الكربون والهيدروجين والأكسجين والأزوت هى من مقومات الكون المادى، ذلك لأن الإنسان خرج من هذا الكون بفعل الله...

أمّا كيفية هذا الخروج فيعتبر عنها الكتاب المقدس بصورة رمزية شعرية... إذ يقول بأن الله جبل طيناً ونفخ فيه نسمة حياة... فانه يشبه إذاً هان فخارى يجبل وينفخ، مع أننا نعلم من الكتاب المقدس نفسه أن الله روح لا يدان له إذاً، ور فم...

لذا لا يملك، نأخذ النص الكتابى هذا بمعناه الحرفى بل أن ندرك المعنى العقائدى الكامن وراء هذه الصور الشعرية...

ألا وهو ان الله هو علة بروز الإنسان من جسم هذا الكون...

كما أنه علة بروز الكون نفسه إلى حيّز الوجود...

ولا يصف لنا الكتاب المقدّس كيفية بروز الإنسان من جسم الكون وصفًا علميًا لأنه

ليس كتاب علم (فإله أعطى الإنسان العقل ليبنى به العلم) بلّ كتاب عقيدة دينية...

ولكن هذه العقيدة لا تصطدم مع معطيات العلم...

فالعلم يعتقد في أيماننا أن الإنسان ولید تطوّر طويل برزت فيه الحياة إنطلاقًا من

المادة الجامدة رغم البون الشاسع والهائل بينهما، ثم اجتازت خلال نحو مليارين من

السنين شوطًا طويلًا إرتقت فيه، من أبسط الأشكال إلى أسماها تركيبًا وإتقانًا حتى

بلغت أوجها في الإنسان...

هذه المعطيات العلمية لا تتعارض مع إيماننا...

ففي النظرية القديمة التي بموجبها خرج الإنسان مباشرة من الطبيعة المادية أو في

النظرية الحديثة التي بموجبها لا يخرج الإنسان من الكون إلا من خلال تطوّر طويل،

يبقى الله في نظر المؤمن علة وجود الإنسان...

لا شيء يمنع أن يكون الله قد استخدم التطور وسيلة لإبراز الإنسان من الطبيعة المادية...

والمؤمن يرى في التطوّر البديع الذى يقول به العلم الحديث مظهرًا من مظاهر حكمة

الله أصل التطوّر وموجهه وغايته...

يروى لنا الكتاب المقدّس أن الله لم يخلق الإنسان إلا بعد أن خلق وأوجد الكائنات

الجامدة والحية كلّها...

فكان خلق الإنسان آخر أعمال الخليفة وكان الأرض كلها هيّأت لوجود الإنسان...

وتقول نظرية التطوّر الحديثة بأن الإنسان هو قمة التطوّر...

هنا يلتقى العلم الحديث بالنظرة الكتابية إلى الإنسان كتتويج الطبيعة وقمّتها...

ويُعطى الكتاب شرحًا لمكانة الإنسان الرفيعة هذه إذ يقول بأن الله خلقه على

صورته ومثاله...

*** الإنسان على صورة الله ومثاله:**

يقول لنا الكتاب المقدّس:

[نَعْمَلُ الْإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِنَا كَشَبَهِنَا] [تكوين ١ : ٢٦]...

هذا يعنى أن الله قد خصّ الإنسان وحده بميزة لم يُنعم بها على أية من المخلوقات

الأخرى...

وهى أنه جعل شبهًا بين ذلك المخلوق وبين الخالق...

فجعل فى الإنسان عقلاً وإرادة وحرية وإبداعاً وحباً كلها صفات شبيهة بالصفات الموجودة فيه...

هكذا يظهر لنا أن هذا الإنسان هو، من ناحية، جزء من هذه الطبيعة التى أخذ منها، وهو من ناحية أخرى، متسام بما لا يقاس على هذه الطبيعة لأنه يحوى فى ذاته صورة الله خالق الطبيعة الجامدة والحية:

[وَقَالَ اللَّهُ: نَعْمَلُ الْإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِنَا كَشَبَهْنَا فَيَنْسَلِطُونَ عَلَى سَمَكِ الْبَحْرِ وَعَلَى طَيْرِ السَّمَاءِ وَعَلَى الْبَهَائِمِ وَعَلَى كُلِّ الْأَرْضِ وَعَلَى جَمِيعِ الدَّبَابَاتِ الَّتِي تُدْبُّ عَلَى الْأَرْضِ] [تكوين ١ : ٢٦]...

فسلطة الإنسان على الكائنات مرتبطة إذاً كما يظهر من هذا النصّ بكونه على صورة الله الخالق...

وبعبارة أخرى، إذا كان الإنسان - وهو جزء من الطبيعة - قادراً على إدراك أسرارها وتسخير قواها لخدمته، فإنما يعود ذلك إلى صورة الله الكامنة فيه...

وقد كان على الإنسان أن يمارس سلطته بالعمل الذى هو، على صورة ما، تكميل للخلق لأنه يجعل الطبيعة أكثر ترتيباً وجمالاً وإنتاجاً:

[وَأَخَذَ الرَّبُّ الْإِلَهُ آدَمَ وَوَضَعَهُ فِي جَنَّةٍ عَدْنٍ لِيَعْمَلَهَا وَيَحْفَظَهَا...] [تكوين ٢ : ١٥]...
*** تصميم الله فى اتحاد الرجل والمرأة:**

علاقة الجنسين يرسمها الكتاب المقدس بشكل شعري، فيروى لنا أنه لم يكن لآدم بين المخلوقات شبيه:

[وَقَالَ الرَّبُّ الْإِلَهُ: لَيْسَ جَيِّدًا أَنْ يَكُونَ آدَمُ وَحْدَهُ فَأَصْنَعُ لَهُ مُعِينًا نَظِيرَهُ] [تكوين ٢ : ١٨]...

لذلك ألقى عليه سباتاً عميقاً وأخذ ضلعاً من أضلاعه وكون منه المرأة الأولى التى دعيت حواء (أى أم الحياة)...

وأتى بها إلى آدم، فقال آدم:

[هَذِهِ الْآنَ عَظْمٌ مِنْ عِظَامِي وَلَحْمٌ مِنْ لَحْمِي. هَذِهِ تُدْعَى امْرَأَةً لِأَنَّهَا مِنْ امْرِءٍ أُخِذَتْ] [تكوين ٢ : ٢٣]...

ويضيف الكتاب المقدس:

[لِذَلِكَ يَتْرُكُ الرَّجُلُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَيَلْتَصِقُ بِامْرَأَتِهِ وَيَكُونَانِ جَسَداً وَاحِداً] [تكوين ٢ : ٢٤]...

ومن هنا تتضح النظرة الكتابية إلى علاقة الجنسين التى يمكن تلخيصها فيما يلى:

أ - الجنسان متعادلان ومكملان أحدهما للآخر:

إنهما متعادلان فى الطبيعة إذ يقول آدم أن المرأة عظم من عظامه ولحم من لحمه...
أى أنها من طبيعته...

ولكنهما مكملان أحدهما للآخر إذ يصور لنا الكتاب ذلك رمزياً بقوله إنهما جزءان
من جسد واحد مشيراً إلى أن أحدهما لا يكتمل دون الآخر...

فمیل كل من الجنسين إلى الآخر كإلى مكمله إنما هو إذاً من إرادة الله...

ب - إتحاد الجنسين يتم بالزواج الذى هو صلة عميقة وإرتباط نهائى:

ويرسم لنا الكتاب المقدس أيضاً تصميم الله فى إتحاد الجنسين...

فيقول لنا أن كلا من الرجل والمرأة يكتملان بإتحادهما معاً فى الزواج الذى به :

[إذاً لَيْسَا بَعْدُ اثْنَيْنِ بَلْ جَسَدٌ وَاحِدٌ] [متى ١٩ : ٦] ...

وعبارة " جسداً واحداً " تعنى بلغة الكتاب " كياناً إنسانياً واحداً "

وهذا يعنى أولاً أن الزواج حسب مقاصد الله رباط عميق يجمع شخصين جسداً

وروحاً فيؤلف منهما كياناً واحداً...

كما أنه يعنى أن الإتحاد الزوجى نهائى لا ينفصم لأن " الجسد الواحد " لا يمكنه أن

يتجزأ فيما بعد...

لذلك عندما علم الرب يسوع عن الزواج استشهد بهذا النص الكتابى وأضاف إليه:

[فَأَلْذِي جَمَعَهُ اللَّهُ لَا يُفَرِّقُهُ إِنْسَانٌ] [متى ١٩ : ٦] ...

هكذا فالله الذى قد أوجد الحب بين الرجل والمرأة قد " وضع لميل القلب رباط لا

ينفك " كما تقول طقوس سرّ الزواج...

هذا " الرباط الذى لا ينفك " يفترضه الحب الحقيقى لأن الشهوة تطلب الاستمتاع

بالآخر إلى أن تملّ منه...

أمّا الحب الأصيل فيتوق إلى عطاء متبادل نهائى...

الشهوة تطلب التمتع العابر بجسد الآخر...

أمّا الحب الحقيقى فيرغب فى إتحاد الشخصين فى كيان واحد...

الحب الحقيقى المكرّس بالزواج حسب إرادة الله لا يلغى الشهوة ولكنه يلطفها ويهذبها

بالحنان وإنعطاف القلب، ويسخر قوتها لبناء اتحاد متين بين الزوجين كما أن

صناعة الإنسان تستخدم قوة المياه الغاشمة المدمرة لتوليد الكهرباء ومنفعة

البشر...

* أسئلة:

اقرأ سفر التكوين: الإصحاحين الأول والثانى...

- ١ - إلى ماذا تشير كلمة الكتاب بأن الله خلق آدم من تراب؟...
- ٢ - هل تصطدم نظرية التطور الحديثة مع إيماننا بأن الله علة وجود الإنسان؟...
- ٣ - يقول لنا الكتاب المقدس أن الله خلق الإنسان بعد أن خلق سائر الكائنات الجامدة والحية. وتقول نظرية التطور أن الإنسان هو النقطة التى وصل إليها التطور فى آخر مراحله. كيف تظهر لنا إدًا، خلال هاتين النظرتين، مكانة الإنسان فى الخليقة؟...
- ٤ - كيف يفسّر الكتاب المقدس هذ المكانة؟...
- ٥ - ماذا يعنى قول الكتاب أن الله خلق الإنسان على صورته ومثاله؟...
- ٦ - ها أعطى الله الإنسان سلطانًا على الطبيعة؟...
- ٧ - ما هى العلاقة بين صورة الله فى الإنسان وبين السلطان الذى مُنحه على الطبيعة؟...
- ٨ - كيف يُظهر الكتاب المقدس نوعية العلاقات بين الجنسين؟...
- كيف يظهر انهما متعادلان فى الطبيعة" [أنظر تكوين ٢: ٢٣]...
- كيف يظهر أنهما مكملان أحدهما للآخر؟...
- كيف يظهر أن اتحادهما يجب أن يكون صلة عميقة وإرتباطًا نهائيًا؟ [أنظر تكوين ٢: ٢٤، متى ١٩: ٦]...
- كيف يميّز هذا الارتباط النهائى وهذه الصلة العميقة الحب عن الشهوة؟...
- هل يلغى الحب الحقيقى الشهوة أم أنه يلففها ويوجهها؟...

٣ - مقاصد الله نحو الإنسان

* غاية خلق الإنسان:

حياة الله فرح دائم لا حدّ له...

ولكن " الله محبّة" ولذلك شاء أن يوجد كائنات يقيم معها علاقة حب فيشركها بحياته وفرحه...

فأوجد هكذا البشر ليكونوا أحبباء له متمتعين بخيراته، مساهمين فى سعادته...

هذا هو مجد الله، أن يحيا الإنسان ويسعد: " مجد الله هو حياة الإنسان" كما يقول القديس " إيروناس" (وهو أحد آباء الكنيسة عاش فى القرن الثانى وكان أسقفًا على مدينة ليون حيث استشهد)...

* تصميم الله الخاص بالإنسان:

يخبرنا الكتاب المقدس أن الله وضع آدم وحواء فى حديقة جميلة كانا يتمتعان فيها
بثمار شهية...

وهذا يرمز إلى أن الله أعَد للإنسان سعادة قصوى هى إشتراك فى سعادته تعالى...
أما مصدر هذه السعادة فهو اتحاد الإنسان مع الله...

هذا الاتحاد الذى يعبر عنه الكتاب المقدس بالألفة التى يظهرها بين الله وآدم إذ يروى
لنا أن الله أتى بالحيوانات لآدم حتى يسميها بأسمائها:

[وَجَبَلَ الرَّبُّ الإِلَهُ مِنَ الْأَرْضِ كُلَّ حَيَوَانَاتِ الْبَرِّيَّةِ وَكُلَّ طُيُورِ السَّمَاءِ فَأَحْضَرَهَا إِلَى آدَمَ
لِيَرَى مَاذَا يَدْعُوهَا وَكُلُّ مَا دَعَا بِهِ آدَمُ ذَاتَ نَفْسٍ حَيَّةٍ فَهُوَ اسْمُهَا] [تكوين ٢ : ١٩]...
وأنه أتاه بإمرأة لتكون لرفيقة له :

[وَبَنَى الرَّبُّ الإِلَهُ الصِّلَعَ الَّتِي أَخَذَهَا مِنْ آدَمَ إِمْرَأَةً وَأَحْضَرَهَا إِلَى آدَمَ] [تكوين ٢ : ٢٢]
[...إلخ....]

وقد كان هذا الاتحاد بالله حرياً أن يتمتع الإنسان بالخيرات التالية:

أ - التمتع بتمام القوى النفسية:

التنعم بتمام القوى النفسية من عقل نير وإرادة قوية توافقة إلى الخير ونية طاهرة
ومحبة دون أنانية...

ب - الخلود:

لم يكن الإنسان خالداً بطبيعته ولكن إتحاده بالله كان حرياً بأن يهبه الخلود بإشراكه
فى خلود الله نفسه...

لذلك قال الكتاب أن الله جعل :

[شَجَرَةَ الْحَيَاةِ فِي وَسْطِ الْجَنَّةِ] [تكوين ٢ : ٩]...

حتى إذا أكل الإنسان منها [يَحْيَا إِلَى الْأَبَدِ] [تكوين ٣ : ٢٢]...

وهذا يعنى رمزياً أن الخلود نعمة وهبها الله للإنسان وأن هذه النعمة كانت مرتبطة
بسكنى الإنسان فى جنة عدن أى فى كنف الله، فى الاتحاد مع الله...

ج - السيادة على الطبيعة:

وقد كانت الطبيعة مهياًة لتخضع للإنسان بالنظر للصورة الإلهية الكامنة فيه، فلا
تشور عليه ولا تضره ولا تسبب له مشقات ونكبات...

هذا مانرى أثراً له فى سيرة بعض الرهبان القديسين الذين كانت تخضع لهم الحيوانات
المفترسة لأن الصورة الإلهية كانت قد تجددت فى نفوسهم...

وهذا ما يرينا الإنجيل إيّاه فى شخص يسوع الذى كان يحمل فى إنسانيته الصورة الإلهية كاملة، فيقول الإنجيلى مرقس:

[وَكَانَ هُنَاكَ فِي الْبَرِّيَّةِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ... وَكَانَ مَعَ الْوُحُوشِ ...] [مرقس ١ : ١٣] ...

د - الإنسان كاهن الكون:

ومقابل خضوع الطبيعة هذا للإنسان، كان على الإنسان أن يكون كاهن الكون...

ذلك أن الإنسان بطبيعته صورة مصغرة عن الكون، ففيه تلتقى عناصر المادة

ووظائف الحياة وغرائزها بصورة الله التى تطبعها وتسمو بها...

وهكذا، فالإنسان بطبيعته نقطة لقاء بين الله والكون ولذا كان عليه أن يكون صلة

بينهما:

فالله بواسطته يكمل عمل الخلق فى الطبيعة كما رأينا سابقاً...

والطبيعة بدورها تسبح الله من خلاله...

لأن كل تمجيد يرفعه الإنسان لله بالقول والعمل إنما يرفعه باسم هذا الكون الذى هو

صورة مصغرة عنه...

وكان الطبيعة قد وجدت فى الإنسان عقلاً تسبح به خالقها...

هكذا، كان على الإنسان أن يدير الخليقة باسم الله وأن يرفع إلى الله تسبيح الطبيعة...

هذا هو الدور الذى رسمه الله له ككاهن للكون لأن الكاهن هو تحديداً ذلك الكائن الذى

هو صلة بين الخالق والمخلوق...

*** دور حرية الإنسان:**

هذا التصميم الذى رسمته المحبة الإلهية لإسعاد الإنسان، لم يشأ الله أن يفرضه عليه...

ذلك لأن الله خلق الإنسان حرّاً على صورته، وبهذه الحرية تقوم كرامة الإنسان...

لو كان الله فرض تصميمه على الإنسان فرضاً كما فرض الغرائز على الحيوانات

والنواميس الطبيعية على المادة، لكان الإنسان آلة دقيقة، بديعة، متقنة وما كان إنساناً،

أى كائنًا على صورة الله متميزًا بتلك الصورة عن الطبيعة كلها...

لقد احترم الله حرية الإنسان لأنها شرط كرامته...

ولأن المحبة الحقّة تحرم حرية المحبوب والله هو المحبة المطلقة التى تتضاءل

أمامها كلّ محبة بشرية...

الحبّ لا يُفرض فرضاً...

وإلا لم يعد حبّاً بلّ عبودية والله لم يرد عبيداً بلّ أبناء...

الحبّ يقدّم، والكائن الذى يقدّم إليه يقبله أو يرفضه...
هكذا عرض الله على الإنسان حبّه وانتظر منه الجواب...
فكان على الإنسان أن يجيب بملء إختياره على الحبّ بالحبّ أو الرفض...
هذه مغامرة الحبّ الكبرى أن الله جعل نفسه نوعاً ما مقيّداً بالإنسان، جعل تحقيق تصميمه رهن حرية الإنسان، رضى بأن يكون نجاح أو فشل هذا التصميم الإلهى متوقفاً، إلى حدّ ما، على موقف الإنسان...
لاهوت الله يتجلّى لنا فى هذا الاحترام الحبّى المذهل لحرية الإنسان...
فى هذا التخلّى المذهل عن سلطته المطلقة على الإنسان مخلوقه...
لذلك كتب الكاتب الهندى طاغور: " إننى أعبد الله لأنه يترك لى حرية إنكار وجوده"...

أى أن لاهوته يتجلّى لى فى هذا الاحترام المذهل لحرية...
كان على الإنسان إذاً أن يتخذ موقفاً من الله...
أن يقول لله نعم أو لا...
لقد خلق الإنسان مشابهاً لله ولكن كان عليه أن يحقق هذا الشبه بجهد متواصل وتحرك مستمر نحو الله...
كما أن الطفل يحقق بنموه صورة الرجل الكامنة فيه...
كان متوقفاً عليه أن ينمى بلا انقطاع صورة الله فيه...
أو أن يحاول تعطيلها وإزالتها من كيانه...
تلك هى تجربة الحرية التى عنها نشأت مأساة الإنسان...

ملحق:

" شارل باجى" كاتب فرنسى اهتمدى من الإلحاد إلى الإيمان المسيحى وقتل سنة ١٩١٤ على إحدى جبهات الحرب العالمية الأولى بعد أن خلف أثراً شعرياً خاداً نقتطف منه المقطع التالى الذى يعطى فيه الشاعر الكلام لله متحدثاً عن حرية الإنسان:
{ لأننى أنا حر، يقول الله، وقد خَلَقْتَ الإنسان على صورتى ومثالى..
هذا هو سرّ، هذه هى قيمة...
كلّ حرّية...}

إن حرّية هذا المخلوق لهى إنعكاس فى العالم...
لحرية الخالق. لذلك نعلق عليها أهمية خاصة...

إن خلاصًا غير حرّ، غير صادر عن رجل حر ليست له قيمة في عيني، فأى طائل له؟...

أى معنى له؟...

أية أهمية تكون لخلاص كهذا؟...

غبطة عبيد، خلاص عبيد، غبطة مستعبدة، كيف تريدون أن تهمنى؟ هل يحب أحد أن يكون محبوبًا من عبيد؟...

إن كانت القضية قضية إعطاء البرهان عن قدرتي وحسب، فقدرتى ليست بحاجة إلى هؤلاء العبيد، إنها معروفة كفاية، معلوم كفاية أننى الكلى الاقتدار...

قدرتى تسطع كفاية فى كل مادة وفى كل حدث...

قدرتى تسطع كفاية فى رمال البحر ونجوم السماء...

لا إعتراض عليها، إنها معروفة، إنها تسطع كفاية فى الخليقة الجامدة...

ولكن فى خليقتى الحية، يقول الله، أردت أفضل من ذلك، أردت أكثر من ذلك...

أفضل من ذلك بما لا يقاس. أكثر من ذلك بما لا يقاس. لأننى أردت تلك الحرية...

خلقت تلك الحرية عينها...

من عرف نفسه مرة واحدة محبوبًا بحرية، لا يوجد فيما بعد الخضوع طعمًا...

من عرف نفسه محبوبًا من أناس أحرار، لا يجد فيما بعد معنى لسجدة العبيد...

خضوع العبيد كلهم لا يساوى نظرة جميلة واحدة لرجل حرّ...

أو الأحرى خضوع العبيد كلهم تشمئز له نفسى وأنى أهب كل شئ مقابل نظرة جميلة

واحدة لرجل حرّ...

مقابل طاعة جميلة واحدة وحب جميل واحد وإخلاص جميل واحد صادر عن رجل

حرّ...

فى سبيل هذه الحرية، فى سبيل هذه المجانية ضحيت بكلّ شئ يقول الله، فى سبيل

مبلى بأن يحبني رجال أحرار...

من أجل أن أنال هذه الحرية، هذه المجانية، ضحيت بكلّ شئ...

من أجل أن أخلق هذه الحرية، هذه المجانية...

من أجل أن أطلق هذه الحرية وهذه المجانية { ...

٤ - السقوط

قلنا فيما سبق أنه كان من الطبيعي على الإنسان أن يشترك في الحوار الذي ابتدأه الله معه عندما خلقه على صورته ومثاله تعالى...

هذا الحوار كان ضروريًا حتى تتأصل صورة الله في الإنسان وتجعل منه أيقونة تشع منها الحضرة الإلهية التي تضيء على الخليقة دفء المحبة...
لذا كان يحتاج هذا المخلوق الجديد عيشًا متواصلًا في محبة الله حتى يتلقن منه كيفية القيام بمهمته السامية ألا وهي أن يكون وكيل الله على هذه الأرض ناقلًا لإرادته تعالى في كلِّ مجالات الحياة ممدًا في الزمان والمكان بذرة الفردوس التي صنعتها يد الله... وأهمية معايشرة الإنسان لله تظهر لنا جليًا من خلال خبرة نعيشها يوميًا...
كلنا يعلم أن المولود الجديد يشبه والديه ولكنه ليس مثلهما أو بعبارة أخرى إنه على صورتها ولكنه لا يماثلها بعد الكلية...
على الأبوين أن يحتضنانه ويربّياه ويدخله يومًا بعد يوم في سرّ الكيان الإنساني حتى يصبح يومًا ما هو أيضًا مثلهما يفكر وينطق وينتج ويعمل في بنیان عالم أفضل لأخوته...

أمّا الولد فعليه أن ينصاع إلى تعاليم الوالدين المحبة إذ إن إنسانيتنا لا تُكتسب بادئ ذي بدء بالقراءة والتحليل الذهني ولكن بمعايشرة أناس آخرين...
وحقيقة ما أوردناه تظهر ساطعة في المثل الآتي:
أولاد صغار تاهوا في مجاهل إحدى الغابات وعاشوا فيها في صحبة الحيوانات ومعاشرتها...

هؤلاء الأولاد نجدهم بعد مدّة يكتسبون عادات الحيوانات التي يعايشون، فيصوّتون كما تصوّت ويسيروا على شاكلتها حتى أنه يمكنك تعريفهم بأنهم حيوانات في أثواب بشر أو هم بشر بدون إنسانية...

هذه الإنسانية المفقودة لا يستعيدوها هؤلاء الصغار إلا بعد معايشرة طويلة للبشر وتدريب طويل وشاق في جو " إنساني"...

هكذا - وبقدر ما ينجح التشبيه بين شؤون المخلوقات والأمور الإلهية - علمنا آباء الكنيسة القديسون أن الإنسان خلق على صورة الله ولكن كان عليه أن يتلمذ في حضرة الله حتى يتمثل به إذ أن معايشرة البارئ تعالى اليومية فقط قادرة أن تجعل من الإنسان كائنًا إلهيًا...

غير أن هذا يعنى، كما قلنا أعلاه، أن ينصاع الإنسان إلى أقوال الله المربية بحيث يتعلم منه تعالى أن الخير الأعظم هو الله نفسه كما نقرأ فى المزامير ولدى الأنبياء وأن الشر الحقيقى هو غيابه عن شئون الإنسان...

هذه الحقيقة العميقة يصوّرُها لنا الكتاب المقدس بشكل رمزى - كما جرت العادة فى تلك العصور من تاريخ الإنسان - فى قوله أن الله طلب من الإنسان ألا يأكل من ثمار شجرة معرفة الخير والشر...

فكان قصد الله إدخال الإنسان تدريجيًا فى سرّ الألوهة وذلك من خلال تربيته اليومية على أصول الحياة الفردوسية...

وكأى تدريب آخر تتطلب التربية الإلهية معايشة متواصلة وتفترض طاعة... أمّا الإنسان فقد فضّل الإستغناء عن محبة الله وإحتضانه له...

أراد أن يغتصب الألوهة إغتصابًا معتقدًا أن معرفة الخير والشر هى التى تجعله إلهًا ، بيد أن الألوهة تؤمّن له معرفة الخير والشر...

أراد أن يتخلّص مما كان يعتقد وطة الله عليه...

لم يفقه الإنسان أن سرّ الحياة الحقيقية هو فى الكلمة الإلهية على حدّ قول الرب يسوع:

[قَدْسُهُمْ فِي حَقِّكَ. كَلَامُكَ هُوَ حَقٌّ] [يوحنا ١٧ : ١٧] ...

و [وَتَعْرِفُونَ الْحَقَّ وَالْحَقُّ يُحَرِّرُكُمْ] [يوحنا ٨ : ٣٢] ...

وكانت الكارثة...

انقطع الإنسان بإرادته عن جوار الله وتاه فى جو لا يناسب أصله...

فأصبح منساقًا إلى نواميس غريبة عنه...

وكما أن الولد التائه فى الأدغال بين الحيوانات يعتقد أن دنياء التى ترعرع فيها هى دنياء الأصلية...

هكذا اعتقد الإنسان على مرّ الأيام أن جوّه الجديد هو الأصل، فإعتاد عليه وأصبح قطعة منه...

هكذا أصبح الإنسان يعتقد أن الخطيئة عصر أساسى فى حياته...

وترعرعت الأجيال السالفة فى هذا الجوّ المضطرب المتسم وتتشقت عبيره ثم ما لبثت أن نفثت سمومها فى من تلاها...

صَلَّتْنَا بِخَطِيئَةِ الْإِنْسَانِ الْأَوَّلِ لَيْسَتْ إِذَا صَلَّةٌ وَرَاثَةٌ كَالَّتِي تَتَعَلَّقُ بِشَكْلِ الْأَنْفِ وَلَوْنِ الشَّعْرِ وَلَكِنْ صَلَّةٌ جَوْ يَتَرَعَّرُ فِيهِ الْإِنْسَانُ وَيَتَغَرَّبِلُ كِيَانَهُ وَتَبْنِي ذَاتَهُ... فَمِنْذُ نَشَأْنَا فِي جَوْ الْخَطِيئَةِ هَذَا وَنَحْنُ خَطَاةٌ... وَهَذَا يَعْبَرُ عَنْهُ بِأَنَّ الْمَوْتَ أَصْبَحَ مَهِيمًا فِي حَيَاتِنَا يَعِدُهَا يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ، وَإِذَا مَاحَاوَلْنَا التَّغَلَّبَ عَلَيْهِ بِإِبْعَادِهِ عَنَّا أَوْ إِبْتِعَادِنَا عَنْهُ، جَابِهْنَا فِي ثِيَابِ الضَّجَرِ وَالْمَرَضِ... هَذَا مَا عَبَّرَ عَنْهُ الرَّسُولُ بَوْلَسَ فِي قَوْلِهِ:

[مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَانَتْ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَوَاحِدٍ دَخَلَتْ الْخَطِيئَةُ إِلَى الْعَالَمِ وَبِالْخَطِيئَةِ الْمَوْتُ وَهَكَذَا اجْتَنَزَ الْمَوْتُ إِلَى جَمِيعِ النَّاسِ إِذْ أَخْطَأَ الْجَمِيعُ] [رومية ٥ : ١٢]...

خَطِيئَةُ الْإِنْسَانِ الْأَوَّلِ وَضَعَتْ الْإِنْسَانِيَّةَ فِي حَلْقَةٍ مَفْرَعَةٍ... إِذْ بَغِيَابِ اللَّهِ عَنْ جَوْنَا الَّذِي اخْتَرْنَا ، أَصْبَحَ لِلْمَوْتِ سُلْطَانًا فِي حَيَاتِنَا... وَعَدَمِ قُدْرَةِ الْإِنْسَانِ بِدُونِ اللَّهِ عَلَى التَّخَلُّصِ مِنْ هَذَا الْكَابُوسِ يَجْعَلُهُ بَيَاسًا وَيَعُودُ إِلَى مَزِيدٍ مِنَ التَّلَاطُخِ فِي الْخَطِيئَةِ... وَكَالْعَصْفُورِ الَّذِي لَا مَفْرَءَ لَهُ مِنْ قَفْصِهِ يَعُودُ نَفْسَهُ عَلَى الْعَيْشِ فِيهِ مَقْنَعًا ذَاتَهُ بِجَمَالِ قَضْبَانِهِ الْحَدِيدِيَّةِ... وَكَالْمَغْلُوبِ الْهَزِيلِ الَّذِي يَقْبَلُ أَوَّلًا مُجْبِرًا ثُمَّ يَقْتَنِعُ بِلُطْفِ الْمُسْتَعْبَدِ... هَكَذَا يَحُولُ الْإِنْسَانُ إِقْنَاعَ نَفْسِهِ بِحَلَاوَةِ الْخَطِيئَةِ تَحْتَ ضَغْطِ حَتْمِيَّةِ الْمَوْتِ الَّذِي وَلَدَتْهُ... وَيُجْبِرُ نَفْسَهُ عَلَى التَّنَاسِيِ إِلَى أَنْ يَنْسِيَ أَمَ الْمَشْكَلَةِ الْوَحِيدَةِ هِيَ إِرَادَتُهُ فِي أَنْ يَغِيبَ اللَّهُ عَنْ عَالَمِهِ...

* أَسْئَلَةٌ:

- إِقْرَأُ الْفَصْلَ الثَّالِثَ مِنْ سَفَرِ التَّكْوِينِ وَمِثْلَ الْابْنِ الصَّالِ [لَوْقَا ١٥ : ١١ - ٣٢]...
- ١ - كَيْفَ كَانَتْ تَجْرِبَةُ الْإِنْسَانِ نَتِيجَةً لِحَرِيَّتِهِ؟...
 - ٢ - مَنْ هُوَ الْكَائِنُ الَّذِي أَذْكَى هَذِهِ التَّجْرِبَةَ فِي الْإِنْسَانِ؟ وَلِمَاذَا؟...
 - ٣ - كَيْفَ يَتَضَحُّ مِنَ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ أَنَّ الْحَيَّةَ الْمَذْكُورَةَ فِي الْفَصْلِ الثَّالِثِ مِنْ سَفَرِ التَّكْوِينِ تُشِيرُ إِلَى هَذَا الْكَائِنِ؟ [أَنْظِرْ حِكْمَةَ سُلَيْمَانَ ٢ : ٢٤ ، يُوْحَنَّا ٨ : ٤٤ ، رُؤْيَا ١٢ : ٩]...
 - ٤ - مَا هِيَ نَوْعِيَّةُ خَطِيئَةِ الْإِنْسَانِ الْأَوَّلِ؟... كَيْفَ تَدَحُّضُ الرَّأْيِ الشَّائِعَ الَّذِي يَقُولُ بِهِ عَامَّةُ النَّاسِ أَنَّ تِلْكَ الْخَطِيئَةَ كَانَتْ زَوْاجَ آدَمَ وَحَوَاءَ؟.. [رَاجِعْ تَكْوِينِ ١ : ٢٧ ، ٢٨]... أَلَا يُظْهِرُ نَصَّ الْكِتَابِ نَوْعِيَّةَ هَذِهِ الْخَطِيئَةِ؟ [أَنْظِرْ تَكْوِينِ ٣ : ١ - ٥]...

٥ - ألا تلقى قصة الابن الشاطر (الابن الضال) ضوءاً على نوعية هذه الخطيئة؟ ألم يكن الابن الشاطر عائشاً فى بحبوة وتنعم فى كنف محبة أبيه، فلماذا شاء الانفصال عنه إذًا؟...

- نتائج السقوط

رفض الإنسان الله أوصله إلى حالة غريبة عن أصله...
بابتعاده عن الله أبيه، لم يعد الإنسان يميّز فى البشر الآخرين أخوة له أبناء للآب الواحد...
إذ أن الأخوة تُحدّد بالنسبة إلى البنوة تجاه الآب الواحد...
وقد تصدّعت أيضاً، صلة الإنسان بالطبيعة من حوله إذ أنه لم يعد يرى فيها مذبياً
لمجد الله ومخبراً لأعمال يديه، بل وسيلة لإرواء غليل أنانيته...
هذه مأساة الإنسان التى نشأت عن غياب الله عنه وإذا شئنا أن نلخص المأساة هذه بكلمة يمكننا أن نقول أنها مأساة التفكك...
وحدة الإنسان مع الله، أى اتحاده به، كانت أساساً لوحده مع ذاته، ولوحده مع الآخر، ولوحده مع الكون...
فلما فصم الإنسان وحده مع الله تصدّعت وحدته مع ذاته ووحده مع الغير ووحده مع الكون وساد التفكك فى تلك المجالات الثلاثة:

أ - تصدعت وحدة الإنسان مع ذاته:

بانفصال الإنسان عن الله حصل تفكك فى شخصه أى أن الإنسجام بطل فى كيانه:
- فالأهواء ثارت على العقل عوض أن تكون خاضعة له، موجهة منه، لذلك أظلم عقل الإنسان إذ أصبح فى كثير من الأحيان مسخراً لا للسعى إلى الحقيقة بل لخدمة الشهوات. هكذا، انتشرت الآراء والمعتقدات الباطلة بين البشر وأخذ الإنسان ينظر إلى الأشياء لا كما هى بل كما تصوّر ها له أهواؤه. وأصبح وهو الكائن العاقل يؤله المال والقوة والجاه والنفوذ ويتعبد لأناس مثله من زعماء وغيرهم وأصبح يسخر العلم نفسه للدمار...

- كذلك ثارت الغرائز على الإرادة التى كانت وظيفتها فى الأساس أن تسيّر هذه الغرائز وفقاً لصالح الإنسان الحقيقى. فأصبحت هذه الغرائز تشدّ الإنسان إليها خلافاً لحاجاته الأساسية (فالسكير مثلاً يسعى إلى إرضاء شهوته دون أن يقيم وزناً لصحته أو كرامته أو

مستقبله أو حياته العائلية)، فضعفت الإرادة وأصبحت لا تقاوم الشر إلا بصعوبة ولا تُردع إلا بجهد جموح الشهوات...

- كذلك طرأ التفكك على علاقة الإنسان بجسده، فأصبح للجسد إستقلاله وأخذ يحاول فرض شهواته على الإنسان وكأنه غريب عنه. وهذا ما عبّر عنه الكتاب المقدس بقوله عن آدم وحواء:

[فَأَنْفَتَحَتْ أَعْيُنُهُمَا وَعَلِمَا أَنَّهُمَا عُرْيَانَانِ. فَخَاطَا أَوْرَاقَ تَيْنٍ وَصَنَعَا لِنَفْسَيْهِمَا مَازَرَ] [تكوين ٣ : ٧]...

وهذا يعنى أنهما بدءا يحسّان بجسدهما وكأنه كائن مستقلّ فيهما يطالب بإشباع شهواته بينهما كان فيما مضى مع الشخص كله فى حركة واحدة إلى الله. هكذا أصبحت الشهوة مستقلة عن الحب عوض أن تكون مسخرة له...

- ومن نتائج التفكك فى الكيان الإنسانى الأمراض التى أصبح الإنسان عرضة لها والتى هى إختلال فى نظام الجسم البشرى، وأخيراً الموت الذى هو إنحلال لكيان الإنسان. لقد كانت نعمة الله تكتنف الإنسان وتحفظه من الأمراض والموت، أما وقد رفض هذه النعمة وتعرّى منها فلم يعد من شئ يحفظه من الإنحلال الذى تؤول إليه طبيعه إذا تُركت وشأنها. هذا ما عبّر عنه الكتاب المقدس بقوله أن آدم أبعد عن شجرة الحياة التى كانت تجعله خالداً:

[وَقَالَ الرَّبُّ إِلَهُهُ: هُوَذَا الْإِنْسَانُ قَدْ صَارَ كَوَاحِدٍ مِنَّا عَارِفًا الْخَيْرَ وَالشَّرَّ. وَالْآنَ لَعَلَّهُ يَمُدُّ يَدَهُ وَيَأْخُذُ مِنْ شَجَرَةِ الْحَيَاةِ أَيْضًا وَيَأْكُلُ وَيَحْيَا إِلَى الْأَبَدِ] [تكوين ٣ : ٢٢]...

أى أنه فقد نعمة الخلود بابتعاده عن الله مصدرها. وبهذا المعنى قال الله لآدم: [بَعَرَقَ وَجْهَكَ تَأْكُلُ خُبْزاً حَتَّى تَعُودَ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أُخِذْتَ مِنْهَا. لَأَنْتَ تُرَابٌ وَإِلَى تُرَابٍ تَعُودُ] [تكوين ٣ : ١٩]...

ب - تصدعت الوحدة بين الإنسان والغير :

ولكن هذا التفكك الذى ساد فى كيان الإنسان الشخصى تعدّاه إلى العلاقة بين الإنسان والإنسان...

ذلك أن الإنسان بإنفصاله عن الله انفصل أيضاً عن أخيه الإنسان...
فالله وحده يوحد عميقاً بين البشر...

ولذا، فالخطيئة بأبعادها الإنسان عن الله تبعده عن قريبه...

هذا التفكك بدأ فوراً بعد السقوط عندما سأل الله آدم عن مخالفته فأجابته:

[الْمَرْأَةُ الَّتِي جَعَلْتَهَا مَعِيَ هِيَ أَعْطَيْتَنِي مِنَ الشَّجَرَةِ فَأَكَلْتُ] [تكوين ٣ : ١٢]...

وهكذا ألقى المسؤولية على إمراته فاصلاً مصيره عن مصيرها، بينما كانا قد خُلقا " ليكونا جسداً واحداً" أى كياناً واحداً...

هكذا بالخطيئة تسرّب الإنقسام إلى البشرية...

فأصبحت الأنانية تفصل حتى بين الإنسان وأقرب الناس إليه، وتشوّه الحب على أنواعه بإرادة التسلط على الآخر وامتلاكه كأنه مجرد شئ أو متعة دون مراعاة لحرّيته وكرامته ومصالحته وسعادته...

وقاد ذلك إلى تنافر بين الأخ وأخيه، وبين الأب وابنه ، وبين الزوج وزوجته...

ولذا يروى لنا الكاب المقدّس كيف أن السقوط تلاه قتل قايين لأخيه هابيل...

وانفجرت الأحقاد بين البشر وحسد بعضهم بعضاً، وتجبرّ بعضهم على بعض،

واستعبد بعضهم بعضاً، وتطاحنوا فى حروب أهلية وخارجية...

ج - تصدعت الوحدة بين الإنسان والطبيعة :

أخيراً كان من عواقب السقوط أن بطل هذا الانسجام الذى خلقه وأعدّه الله بين الإنسان والطبيعة...

هذه الطبيعة التى كانت معدّة لتخضع للإنسان الحامل فى ذاته صورة الخالق،

تمردّت عليه حين تشوّهت صورة الله فيه...

[وَقَالَ لَادَمَ: لَأَنَّكَ سَمِعْتَ لِقَوْلِ إِمْرَأَتِكَ وَأَكَلْتَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي أَوْصَيْتُكَ قَائِلاً: لَا تَأْكُلْ

مِنْهَا مَلْعُونَةُ الْأَرْضِ بِسَبَبِكَ. بِالتَّعَبِ تَأْكُلُ مِنْهَا كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِكَ. وَشَوْكًا وَحَسَكًا تُنْبِتُ لَكَ

وَتَأْكُلُ عُشْبَ الْحَقْلِ] [تكوين ٣: ١٧، ١٨]...

وهكذا لم يعد الإنسان فى مأمن من حتمية نواميس الكون بلّ صار إلى حدّ بعيد ضحية

هذه النواميس، فأصبحت مصدر متاعب وكوارث ونكبات للإنسان وأخذت الحيوانات

تؤذيه والجراثيم تفتك به...

*** أسئلة:**

إقرأ الفصل الثالث من سفر التكوين...

١ - كيف يظهر انفصال الإنسان عن الله [تكوين ٣: ٨]...

٢ - ألا يشبه انفصال الإنسان عن الله انفصال غصن عن شجرته ؟ كيف ذلك؟ وما هى النتائج المنتظرة لانفصال كهذا؟...

٣ - هل بقى الإنسان محافظاً على موهبة الخلود بعد سقطته؟ [تكوين ٣: ١٩، ٢٢]...

٤ - كيف ظهر التفكك بين الإنسان وجسده بعد السقوط؟ [تكوين ٣ : ٧]...

٥ - ألم يكن طبيعياً أن توجد الخطيئة تفككاً بين الإنسان والإنسان؟ لماذا؟ كيف يظهر ذلك في تكوين ٣: ١٢ و ٤: ٨، ٩؟ وكيف يظهر في علاقات البشر بعضهم ببعض وحتى أقرب الناس إليهم؟...

٦ - ألم يكن من الطبيعي أن توجد الخطيئة تصدعاً في الوحدة التي أعدها الله بين الإنسان والطبيعة؟ لماذا؟ كيف يظهر هذا التصدع في تكوين ٣: ١٧، ١٨؟ وما هي نتائجه بالنسبة للإنسان؟...

٦ - صورة الله في الإنسان بعد الخطيئة

ولكن السؤال القائم في كل هذا هو:

كيف يعرف الإنسان أن الحالة التي هو عليها الآن ليست وضعه الأصلي؟... كيف يستطيع المرء أن يقدر مدى سقوطه بدون معرفة ما كان عليه قبل السقوط؟... للإجابة عن هذا السؤال سنعود إلى المثل الذي اتخذناه منطلقاً لنا في بدء هذا الفصل... فالولد الذي عاش بين الحيوانات منذ طفولته لم يفقه الكارثة التي ألمّت به إلا عندما إلتقى أخوة له في الإنسانية وفهم أن صلته الأصلية هي مع البشر وليس مع الحيوانات...

هذا يعني أن معرفته الحقيقية لا تنتج عن مقارنة بين حالته الحاضرة وفردوس مفقود وليد تخيلاته، ولكنها نتيجة لقائه مع أناس يحملون له في كياناتهم صورة عن ذلك الفردوس إذ أن الإنسانية التي أضاعها جوّ معين وليست كلمات مقولة أو أحرف مسطورة...

هكذا نحن لم نفهم معنى الخطيئة إلا بعدما تعرّفنا على أخينا الكبير كما يسميه الرسول بولس:

[... لِيَكُونُوا مُشَابِهِينَ صُورَةَ ابْنِهِ لِيَكُونَ هُوَ بَكْرًا بَيْنَ إِخْوَةٍ كَثِيرِينَ] رومية ٨: ٢٩]...

فلقأونا مع هذا الأخ الأكبر، يسوع المسيح، الذي حافظ على صورة الله فيه أيقظنا على الحقيقة مذكراً إيانا بأن الإنسانية الحقّة تكمن في صلتنا الوثيقة بالله...

إذاً مرور يسوع الناصري في بلادنا منذ ما يقارب الألفي عام طبع في أذهان وقلوب البشر وجه رجل يشبهنا ولكننا لا نمثله إذ أن الجو الذي كان يتنشق لم يكن من هذا العالم بالرغم من حضوره فيه

في كل هذا ما يبعث إلى التفاؤل...

فبالرغم من جونا المتسمم الفتاك كان بوسعنا أن نتعرّف إلى يسوع وأن نعرف أنه في نهاية المطاف يحمل في شخصه عالمنا الأصيل...

وإذا ان هذا مستطاعاً فلأن صورة الله التي فيه نادى صورة تشبهها فينا...

هذا يعنى أنه كما الولد الضائع فى الأدغال يحمل فى خلاياه بالرغم من حيوانيته سمات جذور الإنسانية، هكذا نحن ما زلنا فى أحقر أوضاعنا نحمل صورة الله فى كياننا، إنما نحن فقد أبطلناها عن العمل يحصرها فى زاوية عمّة...

ولكن كما أن الله قد أشعّ النور من الظلام هكذا ابنه فى لقائه معنا أطلق الصورة الخفية فينا من الظلمة التى ألجأناها إليها إلى مكانها الأصيل فى قلبنا وذهننا...

غير أن لقاءنا مع يسوع علّمنا أيضاً شيئاً آخر مهماً للغاية وهو أن تحقيق صورة الله كاملة فينا يكمن فى إتضاعنا المستمر إذ أن الله متضع أصلاً...

هذا ما يقوله لنا الرسول بولس فى كلماته الجميلة:

[فَلْيَكُنْ فِيكُمْ هَذَا الْفِكْرُ الَّذِي فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ أَيْضاً:

الَّذِي إِذْ كَانَ فِي صُورَةِ اللَّهِ، لَمْ يَحْسِبْ خُلْسَةً أَنْ يَكُونَ مُعَادِلاً لِلَّهِ.

لِكَيْ أَهْلَى نَفْسِهِ، أَخَذَ صُورَةَ عَبْدٍ، صَائِراً فِي شِبْهِ النَّاسِ.

وَإِذْ وَجَدَ فِي الْهَيْئَةِ كِإِنْسَانٍ، وَضَعَ نَفْسَهُ وَأَطَاعَ حَتَّى الْمَوْتِ مَوْتِ الصَّالِبِ] [فيلبي ٢: ٥

- ٨]...

هذا هو سرّ التجسّد الذى فيه تمّ لنا لقاء أفضل من الذى كان يوم الخلق...

* أسئلة:

١ - كيف يمكننا القول أن الخطيئة شوّهت صورة الله فى الإنسان؟ لقد كانت هذه الصورة

تظهر فى الإنسان بعقله وإرادته وميله إلى الصلاح واستعداده للعطاء وخلوده وسيادته

على الكون فكيف تشوّه كل ذلك فى الإنسان؟...

٢ - هل أمحت صورة الله فى الإنسان أم بقيت فيه؟ ألا يختبر كل منا فى ذاته إزدواجية بين

العظمة والحقارة؟

[فَإِنِّي أَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ سَاكِنٌ فِيَّ أَيُّ فِي جَسَدِي شَيْءٌ صَالِحٌ. لِأَنَّ الْإِرَادَةَ حَاضِرَةٌ عِنْدِي وَأَمَّا

أَنْ أَفْعَلَ الْحَسَنَى فَلَسْتُ أَجِدُ.

لَأَنِّي لَسْتُ أَفْعَلُ الصَّالِحَ الَّذِي أُرِيدُهُ بَلِ الشَّرَّ الَّذِي لَسْتُ أُرِيدُهُ فَإِيَّاهُ أَفْعَلُ.

فَإِنْ كُنْتُ مَا لَسْتُ أُرِيدُهُ إِيَّاهُ أَفْعَلُ فَلَسْتُ بَعْدُ أَفْعَلُهُ أَنَا بَلِ الْخَطِيئَةُ السَّاكِنَةُ فِيَّ] [رومية ٧:

- ١٨ - ٢٠]..

كيف يمكننا أن نفسر هذه الإزدواجية فى ضوء تعليم الله؟...

٣ - هل بطلت محبة الله للإنسان بعد سقوطه؟

كيف تجلت هذه المحبة [وَصَنَعَ الرَّبُّ إِلَهُ لَادَمَ وَامْرَأَتِهِ أَقْمِصَةً مِنْ جِلْدٍ وَالْبَسَهُمَا] [

تكوين ٣: ٢١]؟

لقد ترك الإنسان وحده خارج الجنة لأن حريته هكذا شاءت ولكن ألم يكن الله مزمعا أن يفتقده؟ ما هي الصورة الفائقة للعقل التى اتخذها ها الإفتقاد؟...

الفصل الرابع

ألوهة الابن

"..وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد. المولود من الآب قبل كل الدهور، نور من نور، إله حق من إله حق، مولود غير مخلوق، مساو للآب فى الجوهر، الذى به كان كل شئ..."

١- ألوهة الابن

يؤكد لنا الفصل الثانى من دستور الإيمان ألوهة الابن، وقد وضع لتثبيت إعتقاد الكنيسة المستقيم تجاه البدعة التى أتى بها كاهن إسكندرى يدعى " أريوس " فى أوائل القرن الرابع مدعيًا بأن الابن مخلوق وأنه دون الآب... فاجتمع لدحض أرائه (التى ورثها " شهود يهوه " فى أيامنا) مجمع يشمل الكنيسة جمعاء وهو المجمع المسكونى الأول الذى انعقد فى مدينة نيقيا سنة ٣٢٥ ووضع القسم الأكبر من دستور الإيمان الذى نتلوه فى كلّ قداس ومن جملته هذا الفصل المتعلق بألوهة الابن...

ويؤكد لنا هذا الفصل أن الابن " مساو للآب فى الجوهر " أى أن له الطبيعة الإلهية نفسها التى لله الآب...

فكما أن الابن البشرى يأخذ عن أبيه الإنسان طبيعته الإنسانية...

هكذا ابن الله يستمد من الآب طبيعته الإلهية...

وكما أن النور الصادر من الشمس له طبيعة الشمس نفسها التى هى نور هكذا الابن الصادر من الآب (وهذا معنى كلمة " مولود ") له طبيعة الآب عينها: " نور من نور، إله حق من إله حق "...

وينتج من ذلك أن الصفات الإلهية التى للآب كالأزلية والقدرة على كل شئ والمعرفة التامة والقداسة الكاملة...

هذه الصفات كلها هي للابن أيضاً...

الابن صادر عن الآب ولكنه "مولود غير مخلوق" ...

فالمخلوق يخرج من العدم إلى الوجود بإرادة الله...

ولكن ابن الله يصدر من صميم الله الآب نفسه...

لذلك فإن هوة تفصل الخالق والمخلوق...

أما ابن الله والله الآب فهما على الصعيد نفسه لأنهما يشتركان كلاهما في الطبيعة الإلهية الواحدة...

البشر يُدْعَوْنَ أبناء الله فقط من أجل محبة الله لهم وإعتنائهم بهم...

هذه المحبة تجتاز الهوة التي بين الخالق والمخلوق ولكنها لا تزيلها...

أما يسوع المسيح فهو ابن الله بطبيعته...

أى أنه بحد ذاته فى وحدة كاملة مع الآب ولذلك دُعى "ابن الله الوحيد"...

أى أنه وحده ابن الله بالمعنى الكامل لهذه العبارة...

بينما نحن لا ندعى أبناء الله إلا لأن محبة الله تتبنا رغم الهوة السحيقة بين طبيعة الله وطبيعتنا المخلوقة...

والمخلوق يبدأ فى الزمن...

أى أنه يكون غير موجود من قبل ثم فى لحظة معينة من الزمن يظهر فى الوجود...

ولذلك يكون الابن البشرى فى البدء دون أبيه، لأن أباه سبقه فى الوجود، واكتسب

بنموه ما لم يكتسبه الابن بعد...

أما ابن الله فلم يكن زمن لم يكن موجوداً فيه...

النور صادر من الشمس، ولكن لا شمس بدون نور...

هكذا الابن مولود من الآب ولكن لا أب بدون ابن...

وجود الابن، إذاً، ملازم لوجود الآب...

كما أن النور ملازم لوجود الشمس ووجود الفكر ملازم لوجود العقل...

وبما أن الآب لا إبتداء له...

أى أزلى لأنه أصل كل شئ ولا أصل له...

كذلك الابن أزلى مثله: "مولود من الآب قبل كل الدهور"...

*** أسئلة :**

١ - ما هى العقيدة التى يعبر عنها الفصل الثانى من دستور الإيمان؟...

٢ - من أنكر هذه العقيدة فى القديم ومن ينكرها فى أيامنا؟...

٣ - ما معنى " مساو للآب فى الجوهر"، " نور من نور"، " إله حق من إله حق"؟...

٤ - ما الفرق بين مولود ومخلوق؟...

٥ - نحن أبناء الله ويسوع المسيح ابن الله، فما الفرق بين بنوتنا وبنوته؟ ولماذا دعى هو بـ " ابن الله الوحيد"؟...

٦ - ما معنى عبارة " مولود من الآب قبل كل الدهور"؟...

٢ - شهادات من الكتاب المقدس

على ألوهة الابن

هذا الإيمان بألوهة الابن تسلمته الكنيسة من الرسل...

وقد عبّر عنه فى الكتاب المقدس بآيات جلية:

أ - فقد أطلق الكتاب المقدس على يسوع المسيح الأسماء الإلهية نفسها التى يطلقها على الله:

فمن ألقاب الله فى العهد القديم عبارة " الأول والآخر"...

مثلاً:

[أنا الربُّ الأوَّلُ وَمَعَ الْآخِرِينَ أَنَا هُوَ] [أشعياء ٤١ : ٤]...

وأيضاً:

[هَكَذَا يَقُولُ الرَّبُّ مَلِكُ إِسْرَائِيلَ وَقَادِيهِ رَبُّ الْجُنُودِ: أَنَا الأوَّلُ وَأَنَا الْآخِرُ وَلَا إِلَهَ غَيْرِي] [

أشعياء ٤٤ : ٦]...

ولكننا نر سفر الرؤيا فى العهد الجديد يُطلق اللقب نفسه على يسوع المسيح:

[وَفِي وَسْطِ السَّبْعِ الْمَنَائِرِ شَبَهُ ابْنِ إِنْسَانٍ، مُتَّسِرِبِلًا يَتَوْبِ إِلَى الرَّجُلَيْنِ، وَمُتَمَنِّطِقًا عِنْدَ

تَذْيِينِهِ بِمِنْطَقَةٍ مِنْ دَهَبٍ.... فَلَمَّا رَأَيْتُهُ سَقَطْتُ عِنْدَ رِجْلَيْهِ كَمَيِّتٍ، فَوَضَعَ يَدَهُ الْيُمْنَى عَلَيَّ

قَائِلًا لِي: لَا تَخَفْ، أَنَا هُوَ الأوَّلُ وَالْآخِرُ، وَالْحَيُّ. وَكُنْتُ مَيِّتًا وَهَا أَنَا حَيٌّ إِلَى أَبَدِ الْآبِدِينَ.

أَمِينَ. وَلِي مَفَاتِيحُ الْهَآوِيَةِ وَالْمَوْتِ] [رؤيا ١ : ١٣، ١٧، ١٨]...

من ألقاب الله فى العهد القديم عبارة " رب الأرباب"...

مثلاً:

[لِأَنَّ الرَّبَّ إِلَهُكُمْ هُوَ إِلَهُ الْآلِهَةِ وَرَبُّ الْأَرْبَابِ إِلَهُ الْعَظِيمِ الْجَبَّارُ الْمَهِيبُ الَّذِي لَا يَأْخُذُ

بِالْوُجُوهِ وَلَا يَقْبَلُ رَشْوَةً] [تثنية ١٠ : ١٧]...

ولكننا نرى أيضاً سفر الرؤيا فى العهد الجديد يطلق اللقب عينه على يسوع المسيح:

[هَوُلَاءِ سِيحَارِبُونَ الْحَمَلَ، وَالْحَمَلَ يَغْلِبُهُمْ، لَأَنَّهُ رَبُّ الْأَرْبَابِ وَمَلِكُ الْمُلُوكِ، وَالَّذِينَ مَعَهُ مَدْعُوْنَ وَمُخْتَارُونَ وَمُؤْمِنُونَ] [رؤيا ١٧ : ١٤] ...
وأيضاً:

[وَهُوَ مُتَسَرِّبٌ بِتَوْبٍ مَعْمُوسٍ بَدَمٍ، وَيُدْعَى اسْمُهُ { كَلِمَةُ اللَّهِ } .
وَالْأَجْنَادُ الَّذِينَ فِي السَّمَاءِ كَانُوا يَتَّبِعُونَهُ عَلَى خَيْلٍ بَيْضٍ، لَا بَيْسِينَ بَرّاً أُنْيَضَ وَنَقِيّاً.
وَمِنْ فَمِهِ يَخْرُجُ سَيْفٌ مَاضٍ لِكَيْ يَضْرِبَ بِهِ الْأَمَمَ. وَهُوَ سَيَرَّعَاهُمْ بِعَصَا مِنْ حَدِيدٍ، وَهُوَ يَذْؤُسُ مَعْصِرَةَ خَمَرٍ سَخَطٍ وَغَضَبِ اللَّهِ الْقَادِرِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ.
وَلَهُ عَلَى ثَوْبِهِ وَعَلَى فَخْذِهِ اسْمٌ مَكْتُوبٌ: { مَلِكُ الْمُلُوكِ وَرَبُّ الْأَرْبَابِ }] [رؤيا ١٩ : ١٣ - ١٦] ...

ب - وقد نسب الكتاب المقدس لابن الله الجوهر الإلهي نفسه:

[فَإِنَّهُ فِيهِ يَحِلُّ كُلُّ مِلْءِ اللَّاهُوتِ جَسَديّاً] [كولوسي ٢ : ٩] ...

أى فى جسد المسيح يحل ملء اللاهوت...
وقد تجلّى ذلك الذى ألقاه الرسول بولس على رعاة كنيسة أفسس قبل معادرتة إليّاهم:
[احْتَرِزُوا إِذَا لَأَنفُسِكُمْ وَلِجَمِيعِ الرَّعِيَّةِ الَّتِي أَقَامَكُمُ الرُّوحُ الْقُدُسُ فِيهَا أَسَاقِفَةً لِتَرْعُوا كَنِيْسَةَ اللَّهِ الَّتِي اقْتَنَاهَا بِدَمِهِ] [أعمال ٢٠ : ٢٨] ...
فالقلم الذى سَفَكَ من أجل الكنيسة، دم المسيح، يُدعى هنا دم الله...
لأن الطبيعة الإلهية مستقرّة فى يسوع المسيح...
ج - وقد نسب له أيضاً الوحدة التامة مع الآب:
فقد صرّح الرب يسوع المسيح:

[أَنَا وَالآبُ وَاحِدٌ] [يوحنا ١٠ : ٣٠] ...

وأيضاً:

[قَالَ لَهُ يَسُوعُ: أَنَا مَعَكُمْ زَمَانًا هَذِهِ مُدَّتُهُ وَلَمْ تَعْرِفْنِي يَا فِيلِبُّسُ! الَّذِي رَأَيْتَنِي فَقَدْ رَأَى الْآبَ فَكَيْفَ تَقُولُ أَنْتَ أَرْنَا الْآبَ؟] [يوحنا ١٤ : ٩] ...
وأيضاً مخاطباً الآب:

[وَكُلُّ مَا هُوَ لِي فَهُوَ لَكَ وَمَا هُوَ لَكَ فَهُوَ لِي وَأَنَا مُمَجِّدٌ فِيهِمْ] [يوحنا ١٧ : ١٠] ...

د - أخيراً نسب الكتاب المقدس للابن الصفات والأعمال الإلهية:

١ - الأزلية:

[وَالْآنَ مَجَدَّنِي أَنْتَ أَيُّهَا الْآبُ عِنْدَ ذَاتِكَ بِالْمَجْدِ الَّذِي كَانَ لِي عِنْدَكَ قَبْلَ كَوْنِ الْعَالَمِ] [يوحنا ١٧ : ٥] ...

وأيضاً:

[قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: قَبْلَ أَنْ يَكُونَ إِبْرَاهِيمُ أَنَا كَائِنٌ] [يوحنا ٨ : ٥٨] ...
ولنلاحظ كيف لم يقل " أنا وجدت " بل " أنا كائن " للدلالة على أمن وجوده لا بدء له ...

٢ - السلطة التشريعية:

[قَدْ سَمِعْتُمْ أَنَّهُ قِيلَ لِلْقُدَمَاءِ: لَا تَقْتُلْ وَمَنْ قَتَلَ يَكُونُ مُسْتَوْجِبَ الْحُكْمِ. وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ كُلَّ مَنْ يَعْضَبُ عَلَى أَخِيهِ بِاطِّلاَ يَكُونُ مُسْتَوْجِبَ الْحُكْمِ وَمَنْ قَالَ لِأَخِيهِ: رَقَا يَكُونُ مُسْتَوْجِبَ الْمَجْمَعِ وَمَنْ قَالَ: يَا أَحْمَقُ يَكُونُ مُسْتَوْجِبَ نَارِ جَهَنَّمَ] [متى ٥ : ٢١ ، ٢٢] ...
وأيضاً:

[أَيْضاً سَمِعْتُمْ أَنَّهُ قِيلَ لِلْقُدَمَاءِ: لَا تَحْنَثْ بَلْ أَوْفِ لِلرَّبِّ أَقْسَامَكَ. وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: لَا تَحْلِفُوا الْبَتَّةَ لَا بِالسَّمَاءِ لِأَنَّهَا كُرْسِيُّ اللَّهِ] [متى ٥ : ٣٣ ، ٣٤] ...
هنا يضع يسوع سلطته التشريعية بمنزلة سلطة الله...
فيوضح ويكمل بسلطته الخاصة الشريعة التي كان الله نفسه قد أعطاها قديماً بواسطة موسى النى:

[ثُمَّ قَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: ادْخُلْ إِلَى فِرْعَوْنَ فَإِنِّي أَغْلَطْتُ قَلْبَهُ وَقُلُوبَ عِبِيدِهِ لِأَصْنَعَ آيَاتِي هَذِهِ بَيْنَهُمْ... فَقَالَ عَبِيدُ فِرْعَوْنَ لَهُ: إِلَى مَتَى يَكُونُ هَذَا لَنَا فَحَا؟ أَطْلِقِ الرِّجَالَ لِيَعْبُدُوا الرَّبَّ إِلَهُهُمْ. أَلَمْ تَعْلَمْ بَعْدُ أَنَّ مِصْرَ قَدْ خَرِبَتْ؟... فَمَدَّ مُوسَى عَصَاهُ عَلَى أَرْضِ مِصْرَ فَجَلَبَ الرَّبُّ عَلَى الْأَرْضِ رِيحاً شَرْقِيَّةً كُلَّ ذَلِكَ النَّهَارِ وَكُلَّ اللَّيْلِ. وَلَمَّا كَانَ الصَّبَاحُ حَمَلَتْ الرِّيحُ الشَّرْقِيَّةُ الْجَرَادَ] [خروج ١٠ : ١ ، ٧ ، ١٣] ...
وهذا يشير إلى أن ليسوع كل السلطة الإلهية...

٣ - السلطة على غفران الخطايا:

هذه السلطة يملكها الله وحده...

لأن كل خطيئة مخالفة لله ولذلك لا يستطيع سوى الله أن يغفرها...
لذلك كان اليهود على حق عندما قالوا:

[فَأَبْنَدَا الْكُتْبَةَ وَالْفَرْيَسِيُّونَ يُفَكِّرُونَ قَائِلِينَ: { مَنْ هَذَا الَّذِي يَتَكَلَّمُ بِتَجَادِيفٍ؟ مَنْ يَقْدِرُ أَنْ يَغْفِرَ خَطَايَا إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ؟ }] [لوقا ٥ : ٢١]...

ولكن يسوع برهن عن لاهوته بممارسته الحق الإلهي في غفران الخطايا:
[وَلَكِنْ لِكَيْ تَعْلَمُوا أَنَّ لَابْنَ الْإِنْسَانِ سُلْطَانًا عَلَى الْأَرْضِ أَنْ يَغْفِرَ الْخَطَايَا - قَالَ لِلْمَقْلُوجِ: لَكَ أَقُولُ فُمْ وَاحْمِلْ فِرَاشَكَ وَادْهَبْ إِلَى بَيْتِكَ] [لوقا ٥ : ٢٤]...

٤ - السلطة الإلهية على الحياة والموت:

في العهد القديم أقام إيليا ابن الأرملة وأقام أليشع أيضاً ولدًا، ولكنهما فعلا ذلك بقوة الله التي استمداها بصلاة وتضرع...
فقد ورد في سفر الملوك:

[فَمَمَدَّ عَلَى الْوَلَدِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، وَصَرَخَ إِلَى الرَّبِّ: يَا رَبُّ إِلَهِي، لِتَرْجِعْ نَفْسُ هَذَا الْوَلَدِ إِلَى جَوْفِهِ. فَسَمِعَ الرَّبُّ لَصَوْتِ إِيلِيَّا، فَرَجَعَتْ نَفْسُ الْوَلَدِ إِلَى جَوْفِهِ فَعَاشَ] [١ ملوك ١٧ : ٢١، ٢٢]...

أما يسوع فقد كانت له في ذاته تلك السلطة المطلقة على الحياة والموت التي يملكها الله وحده...

لذلك قال:

[لِأَنَّهُ كَمَا أَنَّ الْآبَ يُقِيمُ الْأَمْوَاتَ وَيُحْيِي كَذَلِكَ الْابْنُ أَيْضًا يُحْيِي مَنْ يَشَاءُ] [يوحنا ٥ : ٢١]...

لذلك نراه يقيم الموتى بلهجة الأمر الذي يملك في ذاته سلطة إقامتهم ولا يستمدها من غيره...

فعندما أقام ابن أرملة نايين قال:

[ثُمَّ تَقَدَّمَ وَلَمَسَ النَّعْشَ فَوَقَفَ الْحَامِلُونَ. فَقَالَ: { أَيُّهَا الشَّابُّ لَكَ أَقُولُ فُمْ } . فَجَلَسَ الْمَيِّتُ وَابْنَدَا يَتَكَلَّمُ فَدَفَعَهُ إِلَى أُمِّهِ] [لوقا ٧ : ١٤، ١٥]...

كذلك عندما أقام ابنة يايروس:

[فَأَخْرَجَ الْجَمِيعَ خَارِجًا وَأَمْسَكَ بِيَدِهَا وَنَادَى قَائِلًا: { يَا صَبِيَّةُ قُومِي } . فَرَجَعَتْ رُوحُهَا وَقَامَتْ فِي الْحَالِ. فَأَمَرَ أَنْ تُعْطَى لِتَأْكُلَ] [لوقا ٨ : ٥٤، ٥٥]...

* أسئلة:

١ - هل أطلق الكتاب المقدس الأسماء نفسها على الله وعلى يسوع المسيح؟ [أنظر

أشعيا ٤٤: ٦ ورؤيا ١: ١٣، ١٧، ١٨ وتثنية ١٠: ١٧، ورؤيا ١٩: ١٣ - ١٦ ورؤيا

١٧: ١٤]...

٢ - هل نسب الكتاب المقدس لابن الله الجوهر الإلهي نفسه؟ [انظر كولوسي ٢ : ٩ وأعمال الرسل ٢٠ : ٢٨] ...

٣ - هل نسب الكتاب المقدس للابن الصفات والأعمال الإلهية؟

الأزلية: انظر يوحنا ١٧ : ٥، يوحنا ٨ : ٥٨ ...

السلطة التشريعية الإلهية: أنظر متى ٥ : ٢١، ٢٢ ومتى ٥ : ٣٣، ٣٤ وقابل مع خروج ٢٠ : ١، ٧، ١٣ ...

السلطة على غفران الخطايا: انظر لوقا ٥ : ٢٥ ...

السلطة الإلهية على الحياة والموت: أنظر يوحنا ٥ : ٢١ و لوقا ٧ : ١٤ و لوقا ٨ : ٥٤ و قابل مع الملوك الأول ١٧ : ٢١ ...

* ملحق

لقد أعلن يسوع بوضوح عن ألوهيته ليس بالكلام وحسب ولكن بتصرفاته خاصة، تلك التصرفات التي كانت تظهر أنه ينسب لنفسه سلطة إلهية، هذا ما يبدو مثلاً في موقفه من الشريعة الموسوية، تلك الشريعة التي كان الله مصدرها، وقد كتب بهذا الصدد الأب جان دانيالو عميد كلية اللاهوت الكاثوليكي في باريس في كتاب صدر له:

{ عندما يقول المسيح: أن ابن الإنسان هو رب السبت أيضاً، يقول الفريسيون: هذا الإنسان يجتف. وهم (من وجهة نظرهم) محقون، لأن السبت أقيم من الله. إذا الله وحده رب السبت.

{ كثيراً ما رويت ... ذلك الحديث (النموذجي) الذي جرى لي مع حاخام قال لي يوماً: يا أبت، هناك أمر نلوم المسيح عليه، هو أنه مسّ الشريعة، لأن الشريعة وضعها يهوه على جبل سيناء، والله وحده يستطيع أن يعدّل ما وضعه الله...

{ فأجبت: يا سيدي الحاخام، لم يكن بوسعك أن تقول ما يسرّني أكثر من أقوالك هذه، لأنه أمر أكيد أن يسوع عدّل الناموس، وهذا يعنى بالفعل، ولا يمكن أن يعنى سوى أمر واحد، وهو أنه، إن كان الله وحده، كما قلت وكما قلت بحق، يستطيع ان يعدّل ما وضعه الله، فهذا يعنى أن يسوع كان يعترف لنفسه بسلطة مساوية لسلطة ذاك الذي وضع الشريعة، أي يهوه على جبل سيناء، هذا ما كان اليهود تماماً ولا يزالون يفهمونه تماماً{ ...

لا يمكن لإنسان أن ينسب ألوهة لنفسه إن لم يكن مختلاً أو مخادعاً. ولكن البشر المخلصين، أيّا كان معتقدتهم، يجلسون يسوع عن هاتين الصفتين. إن شخصيته الفذة

تلاقى إجلالاً ليس من المسيحيين وحسب بل من غير المسيحيين أيضاً من مسلمين ويهود وهندوسيين وملحدين. هذا ما يوضحه الكاتب المذكور آنفاً:

{ ... كل الناس دون إستثناء متفقون ليروا فى يسوع، بأدنى حدّ، إحدى الشخصيات الأكثر سموّاً فى التاريخ البشرى. وأقول كلّ الناس، لأن هذا الأمر يتفق عليه ليس المسيحيون وحسب بلّ الآخرون أيضاً. إقرأوا الكتب التى كتبها عن يسوع يهود كـ "أدمون فلاج" و "روبير آرون" و "جول إسحق" و "شالوم آش" ... إنهم يرون فيه أحد التعابير الأكثر سموّاً عن شعب إسرائيل.

{ وها هو هم المسلمون، فيسوع، عيسى، يشغل فى القرآن مكانة كبرى، وكان محمّد يرى فى يسوع أعظم الأنبياء...

{ وها هم الهنود: كان "غاندى" و "أوروبيندى" يريان فى العظة على الجبل أعلى قمة فى الدين البشرى...

{ ومعظم الملحدين، كالاشتراكي "بربوس" والوجودى "جانسون" والماركسى "جارودى" يعترفون بأن يسوع على الصعيد البشرى، عظمة ينحنون أمامها... هكذا لا بدّ من طرح السؤال:

إذا كان يسوع قد نسب لنفسه الألوهة بوضوح، من جهة، وإذا كان - بشهادة غير المسيحيين أنفسهم - شخصية فذة تُجلّ عن المخادعة أو الاختلال العقلى، أفلا يعنى ذلك أن شهادته عن نفسه يجب أن تُصدّق؟...

هذا السؤال الذى لا بدّ لكلّ إنسان مخلص أن يطرحه على نفسه...

يجيب عنه المسيحيون بالإيمان بالمسيح إلهاً متأنساً...

الفصل الخامس

التجسّد

"..الذى من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا، نزل من السماء وتجسّد من الروح القدس ومن العذراء مريم وتأنس..."

أولاً: غاية التجسد

بالخطيئة كما رأينا، انفصل الإنسان عن الله وغدا مهمشاً طريحاً غير قادر أن ينهض نفسه من الهوة التى سقط فيها...

لم يكن بإمكانه أن يرتفع إلى الله ولذلك فقد شاء الله في محبته أن ينحدر بنفسه إلى الإنسان ليعيد الشركة بين الإنسان وبينه...

إن الله أحبّ الإنسان " حباً جنونياً " على حدّ تعبير اللاهوتى " نقولا كباسيلاس " ، حتى أنه وهو الكائن الأبدى، الخالق، ذو السعادة المطلقة، لم يترك شأنه ذاك الإنسان الذى رفضه إختيارياً بلّ إنحدر إليه ساعياً فى طلبه...

كما سعى الراعى الذى تكلم عنه الرب يسوع وراء الخروف الضال [لوقا ١٥ : ١ - ٧] ...

غير مكثف بالملائكة كما لم يكتف ذل الراعى بالتسعة والتسعين خورفاً التى لم تضلّ...

بالتجسّد أخذ الله طبيعتنا البشرية المنحطّة، الساقطة، واتحدت مع لاهوته اتحاداً فائق الوصف...

ليداوى الله بالتجسّد النزيف الروحى الذى هو الخطيئة الأصلية...

بالتجسّد بثّ الله حياته فى الإنسان المريض، ليعيد إليه القوة الروحية التى خارت والجمال الذى تشوّه...

بالتجسد اتحد الله ذاته بالإنسان لتسرى فى الإنسان حياة الله ...

لقد رأينا ان الإنسان سقط لكونه أراد أن يجعل نفسه إلهاً دون الله، بالاستغناء عن الله...

لقد كان يتوق إلى التآله ولكنه ضلّ الطريق إذ اعتقد أن التآله يتم بانتفاخ الأنا...

فإنه لم يخلق الإنسان ليكون له عبداً بل شريكاً فى حياته الإلهية...

ولكن هذه الشركة فى الطبيعة الإلهية لم يكن ممكناً بمعزل عن الله بلّ كان مشروطاً باتحاد الإنسان بالله...

لأن من الله، ومن الله وحده، يستمد الإنسان كل موهبة وقوة وحياة...

خارج الله ليس سوى العدم والفراغ والموت...

ولكن الإنسان استمع على خداع الشرير فطمع بالتآله دون الله، فلم يبلغ مأربه بل انحطّ

من مستواه الإنسانى الأصل وأخضع طبيعته للموت...

لقد كانت وعود الشيطان كاذبة، لقد قال عنه يسوع أنه " كذّاب وأبوالكذب " [يوحنا

٨ : ٤٤]، عندما اعلن للإنسان أنه بمخالفة الله يصير إلهاً...

تلك الوعود البراقة كانت وهمّاً وخداعاً ولكن مل لم يستطع الإنسان أن يحققه عندما

تشامخ حقه له الله عندما نزل إليه...

وحتى لا يتششت القارئ فى معنى أن الإنسان تأله بالتجسد؟...
هذا لا يعنى أننا أصبحنا آلهة بالطبيعة، فإننا مازلنا مخلوقات...
ولكن التأله يعنى أن حياة الله قد أعطيت لنا فصرنا مشاركين له فى محبته، فى مجده،
فى قوته، فى فرحه، فى حكمته، فى قداسته، فى خلوده...
لم ولن نبلغ جوهر أو لاهوت الله لأنه دائماً متعالٍ لا يمكن الوصول إليه، ولكن القوى
الإلهية أعطيت لنا وأصبحت فى متناولنا...
هذا ما اوضحه بنوع خاص القديس " غريغوريوس بالاماس " وثبتته المجامع
الأرثوذكسية...

بهذا المعنى ينبغى أن نفهم كلمة الرسول بطرس:
[كَمَا أَنَّ قُدْرَتَهُ الْإِلَهِيَّةَ قَدْ وَهَبَتْ لَنَا كُلَّ مَا هُوَ لِلْحَيَاةِ وَالنَّقْوَى، بِمَعْرِفَةِ الَّذِي دَعَانَا بِالْمَجْدِ
وَالْفَضِيلَةِ،
الَّذِينَ بِهِمَا قَدْ وَهَبَ لَنَا الْمَوَاعِيدَ الْعُظْمَى وَالثَّمِينَةَ لِكَيْ تَصِيرُوا بِهَا شُرَكَاءَ الطَّبِيعَةِ الْإِلَهِيَّةِ،
هَارِبِينَ مِنَ الْفَسَادِ الَّذِي فِي الْعَالَمِ بِالشَّهْوَةِ.
وَلِهَذَا عَيْنِهِ وَأَنْتُمْ بَاذِلُونَ كُلَّ اجْتِهَادٍ قَدَّمُوا فِي إِيْمَانِكُمْ فَضِيلَةً، وَفِي الْفَضِيلَةِ مَعْرِفَةً،
وَفِي الْمَعْرِفَةِ تَعَفُّفًا، وَفِي التَّعَفُّفِ صَبْرًا، وَفِي الصَّبْرِ نَقْوَى،
وَفِي النَّقْوَى مَوَدَّةَ أَخَوِيَّةٍ، وَفِي الْمَوَدَّةِ الْأَخَوِيَّةِ مَحَبَّةٌ] [٢ بطرس ١ : ٣ - ٧] ...

ثانيًا: تهيئة التجسد

التجسد إذا مبادرة محبة مجانية من الله نحو الإنسان الذى ابتعد عنه ورفضه بإختياره:
[وَقَدْ أَظْهَرَ اللَّهُ مَحَبَّتَهُ لَنَا إِذْ أَرْسَلَ ابْنَهُ الْأَوْحَدَ إِلَى الْعَالَمِ لِكَيْ نَحْبَاهُ بِهِ. وَفِي هَذَا نَرَى
الْمَحَبَّةَ الْحَقِيقِيَّةَ، لَا مَحَبَّتَنَا نَحْنُ لِلَّهِ، بَلْ مَحَبَّتَهُ هُوَ لَنَا. فَبِدَافِعِ مَحَبَّتِهِ، أَرْسَلَ ابْنَهُ كَقَارَةَ
لِخَطَايَانَا] [١ يوحنا ٤ : ٩ ، ١٠] ...
ولكن محبة الله لا تُفرض فرضاً..

ولذا كان على الإنسان أن يتقبل مبادرة الحب الإلهى هذه...
من أجل هذا اهتم الله بمحة أبوية أن يهيئ البشر تدريجياً إلى إقبال التجسد وكان عمله
شبيهاً بعمل المربي الحكيم الذى يهيئ للطفل الظروف المؤاتية كي يرقى مراحل النمو
الواحدة تلو الأخرى حتى يصل إلى البلوغ...
وقد ظهرت هذه التربية الإلهية لحرية الإنسان خاصة فى الشعب الإسرائيلى الذى بقى
وحده بين الشعوب أمياً لله رغم خطاياها الكثيرة...

ففيه خاصة هيا الله البشر إلى إقتبال التجسد حتى إذا تم يحمل أفراد من هذا الشعب بشارته إلى العالم أجمع...

وقد اتخذت هذه التهيئة وجوهاً مختلفة منها:

* الناموس:

وهو مجموعة شرائع أعطيت إلى الشعب الإسرائيلي بوحي من الله...

وقد قال عنه الرسول بولس:

[إِذَا قَدْ كَانَ النَّامُوسُ مُؤَدَّبَنَا إِلَى الْمَسِيحِ، لِكَيْ نَتَّبَرَّرَ بِالْإِيمَانِ] [غلاطية ٣: ٢٤]...

والمؤدب كان عند اليونان عبداً موكولاً إليه أن يصحب الأولاد المؤتمن عليهم ويسهر عليهم ويقنهم ميادئ المعرفة ليتمكنوا فيما بعد من استماع دروس يلقيها معلم شهير... تلك كانت وظيفة الناموس بالنسبة إلى اليهود...

فالوصايا العشر مثلاً كانت غايتها تهذيب أخلاق الناس كي يُعدّوا للدخول في ملكوت المحبة...

أما الذبائح التي كان يفرضها الناموس للتكفير عن الخطايا فقد كانت رمزاً يشير إلى الذبيحة الحقيقية الواحدة وهي موت يسوع المسيح على الصليب...

* الحوادث التاريخية:

وقد كانت حوادث تاريخ الشعب اليهودي ترمز إلى حوادث الخلاص وتعدّ الشعب لإقتبال التجسد...

فيوسف الذي باعه أخوته حسداً وصار كما قال الكتاب عنه " مخلص العالم " أثناء المجاعة التي حصلت، كان رمزاً للمسيح الذي أسلم حسداً من اليهود أخوته بالجسد إلى الرومانيين لكي يميتوه صلباً فصار بالمعنى الكامل " مخلص العالم "...

مطعماً الناس ليس خبزاً مادياً كما فعل يوسف بل الخبز السماوي الذي هو جسده... كذلك خلاص الشعب الإسرائيلي من عبودية فرعون على يد موسى ودخوله في أرض الميعاد على يد يشوع الذي هو اسم يسوع بالذات ومعناه " الله يخلص "، كان رمزاً لخلاص المؤمنين من عبودية الشيطان بتجسد المسيح وموته وقيامته ودخولهم إلى ملكوت الله...

* الأنبياء

كذلك أرسل الله أنبياء إلى شعبه على مرّ الأجيال لتهيئته لإقتبال التجسد... والنبى كما يدلّ اسمه كانت مهمته أن ينبئ بإرادة الله أى أن يعلنها بقوة داعياً البشر إلى تقويم ما إعوج من سيرتهم وإلى الرجوع إلى الله...

هؤلاء الأنبياء أعدوا الشعب اليهودي لإقتبال التجسد:

١ - لأنهم كانوا يحرّكون الضمائر النائمة المتحجرة وقولون جهراً للناس أن تتميم الشريعة في الظاهر لا يهم، إنما المهم تغيير القلب وإعطائه الله، وهكذا يمهّدون طريق الله الآتى إلى العالم...

٢ - لأنهم كانوا يشيرون، بإلهام إلهي، إلى تجسد ابن الله وإلى أعمال الخلاص التي سوف يقوم بها في أرضنا...

هكذا تحدّث النبي أشعيا الذي عاش في القرن الثامن قبل الميلاد عن البيت الذي يولد فيه المسيح، فقال أن سيكون من نسل داود:

[وَيَخْرُجُ قَضِيبٌ مِنْ جَذْعِ يَسَى وَيَنْبُتُ غُصْنٌ مِنْ أَصُولِهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ رُوحُ الرَّبِّ رُوحُ الْحِكْمَةِ وَالْفَهْمِ رُوحُ الْمَشُورَةِ وَالْقُوَّةِ رُوحُ الْمَعْرِفَةِ وَمَخَافَةِ الرَّبِّ] [أشعيا ١١: ١، ٢]
...

وأعلن النبي نفسه أنه يولد من عذراء:

[وَلَكِنْ يُعْطِيكُمْ السَّيِّدُ نَفْسَهُ آيَةً: هَا الْعَذْرَاءُ تُحْبَلُ وَتَلِدُ ابْنًا وَتَدْعُو اسْمَهُ { عِمَّاوِيلُ }] [أشعيا ٧: ١٤]...

وتنبأ النبي ميخا الذي عاش خو أيضاً في القرن الثامن قبل الميلاد عن مكان ولادة المخلص، فقال:

[أَمَّا أَنْتِ يَا بَيْتَ لَحْمٍ أَفْرَائَةَ وَأَنْتِ صَغِيرَةٌ أَنْ تَكُونِي بَيْنَ أُلُوفٍ يَهُودًا فَمِنْكَ يَخْرُجُ لِي الَّذِي يَكُونُ مُنْسَلِطًا عَلَى إِسْرَائِيلَ وَمَخَارِجُهُ مِنْذُ الْقَدِيمِ مِنْذُ أَيَّامِ الْأَزَلِ] [ميخا ٥: ٢]...
وتحدّث أشعيا عن رسالة المخلص قائلاً:

[رُوحُ السَّيِّدِ الرَّبِّ عَلَيَّ لِأَنَّ الرَّبَّ مَسَحَنِي لِأُبَشِّرَ الْمَسَاكِينَ أُرْسَلَنِي لِأُعْصِبَ مُنْكَسِرِي الْقُلُوبِ لِأُنَادِيَ لِلْمَسْبُوبِينَ بِالْعِثْقِ وَلِلْمَأْسُورِينَ بِالْإِطْلَاقِ. لِأُنَادِيَ بِسَنَةِ مَقْبُولَةٍ لِلرَّبِّ وَبِیَوْمِ انْتِقَامٍ لِإِلَهِنَا. لِأُعْزِي كُلَّ النَّائِحِينَ] [أشعيا ٦١: ١، ٢]...

كذلك أعلن أشعيا عن الآلام التي سوف يتحمّلها المخلص من أجل خطايا الناس:
[وَهُوَ مَجْرُوحٌ لِأَجْلِ مَعَاصِينَا مَسْحُوقٌ لِأَجْلِ أَثَامِنَا. تَأْدِيبُ سَلَامِنَا عَلَيْهِ وَبُخْبْرُهُ شُفِينَا. كُلُّنَا كَغَنَمٍ ضَلَلْنَا. مِلْنَا كُلُّ وَاحِدٍ إِلَى طَرِيقِهِ وَالرَّبُّ وَضَعَ عَلَيْهِ إِثْمَ جَمِيعِنَا. ظَلِمَ أَمَّا هُوَ فَتَذَلَّلَ وَلَمْ يَفْتَحْ فَاهُ كَشَاةٍ تُسَاقُ إِلَى الدَّبْحِ وَكَعَجَةٍ صَامِتَةٍ أَمَامَ جَارِيهَا فَلَمْ يَفْتَحْ فَاهُ] [أشعيا ٥٣: ٥ - ٧]...

ثالثاً: التجسد في كتابات

القديس كيرلس الكبير

(الرد على من يظنون أن المسيح مجرد إنسان أخذ قوة من الله)

١ - مفهوم كلمة " صار " في عبارة " والكلمة صار جسداً ":

يقول القديس كيرلس عن الهراطقة إنهم يظنون أن كلمة " صار " تعنى معنى واحداً فقط وهو التغير والتحول ويؤيدون شرحهم ببراهين من الكتب الموحى بها...
[وَالْكَلِمَةُ صَارَ جَسَداً وَحَلَّ بَيْنَنَا وَرَأَيْنَا مَجْدَهُ مَجْداً كَمَا لَوَحِيدٍ مِنَ الْآبِ مَمْلُوءاً نِعْمَةً وَحَقّاً] [يوحنا ١ : ١٤] ...

فقد قيل عن زوجة لوط:

[نَظَرَتْ إِمْرَأَتُهُ مِنْ وَرَائِهِ فَصَارَتْ عُمُودَ مِلْحٍ !] [تكوين ١٩ : ٢٦] ...

وقيل عن عصا موسى:

[... فَطَرَحَهَا إِلَى الْأَرْضِ فَصَارَتْ حَيَّةً ...] [خروج ٤ : ٣] ...

ولكن القديس كيرلس يقول: إن إفتراض التغير لمعنى كلمة " صار " لا ينطبق على الله، والإدعاء بالتغير في طبيعة الله هو جهل وكفر...
يقول الرسول بولس:

[لِكَيْتُ أَخْلَى نَفْسَهُ، أَخَذَ صُورَةَ عَبْدٍ، صَائِراً فِي شِبْهِ النَّاسِ] [فيلبي ٢ : ٧] ...

الكلمة الابن الوحيد الذي وُلد من الله الآب الذي هو بهاء مجده ورسم جوهره (أقومنه):

[الَّذِي، وَهُوَ بِهَاءَ مَجْدِهِ، وَرَسْمُ جَوْهَرِهِ، وَحَامِلُ كُلِّ الْأَشْيَاءِ بِكَلِمَةِ قُدْرَتِهِ،] [عبرانيين

١ : ٣] ...

هو الذي صار جسداً دون أن يتحول إلى جسد...

إى بلا إمتزاج أو اختلاط أو أى شئ آخر من هذا القبيل بلّ، أخلى ذاته، وجاء إلى فقرنا، فجعل جسد البشر جسده وبنفس إنسانية عاقلة...

ولذلك قيل عنه أنه وُلد دون أن يفقد ما يخصّه...

فولد كإنسان بطريقة معجزية من امرأة...

ولأنه إصلاً إله قيل عنه أنه:

[وَادُّ وَجَدَ فِي الْهَيْئَةِ كَانِسَانِ] [فيلبي ٢ : ٨] ...

فالله الذى ظهر فى شكلنا وصار فى صورة عبد هو الرب وهتذا ما نعنيه أنه صار جسداً...

ويؤكد القديس كيرلس أن كلمة " صار " هنا تعنى أن الكلمة فعلاً تجسّد، وليس كما يظن البعض من الهرطقة أن الكلمة قام بأعمال عملها فى الجسد...
إن كلمة " صار " تحتوى على الحقائق الخاصة بالتجسّد، وكل ما حدث له تدبيراً عندما أخلى ذاته إرادياً قَبْلَ الجوع والتعب...

وكان من المستحيل أن يتعب وهو كلى القدرة ولا يمكن أن يجوع وهو طعام الكلّ وحياتهم لو لم يكن قد أخذ جسداً بشرياً ومن طبيعته أن يجوع ويتعب...
وكذلك من المستحيل أن يُحصى مع أثمة لو لم يكن قد صار لعنه لأجلنا...
وعندما تأنس وصار جسداً وولد مثلنا كإنسان من العذراء القديسة مريم...

٢- ما معنى كلمة " المسيح "؟

ليس للفظ " المسيح " قوة تعريف ولا يوضّح جوهر شئ ما، كما أن كلمة " رجل " أو " حصان " أسماء لا توضح شيئاً عن جوهر حاملها بل تشير إليهم فقط، واسم " المسيح " يعلن عن شئ سوف نفحصه....
فى القديم حسب مسرة الله مسح البعض بالزيت، وكانت المسحة علامة لهم على المملكة...

الأنبياء أيضاً مسحوا روحياً بالروح القدس، ولذلك دعوا مسحاء...

لأن داود النبى ينشد معبراً عن الله نفسه فيقول:

[لَا تَمَسُّوا مَسْحَائِي وَلَا تُسَبِّحُوا إِلَى أَنْبِيَائِي] [مزمور ١٠٥ : ١٥]...

وحقوق النبى يقول ايضاً:

[خَرَجْتَ لِخَلَاصِ شَعْبِكَ لِخَلَاصِ مَسِيحِكَ] [حبقوق ٣ : ١٣]...

لكن بالنسبة للمسيح مخلص الكلّ، فقد مسح، ليس بصورة رمزية مثل الذين مسحوا بالزيت، ولم يُمسح لكى ينال نعمة وظيفة النبى، ولا مسح مثل الذين اختارهم الله لتنفيذ تدبيره، أى مثل قورش الذى ملك على الفارسيين والمادييين وقاد جيشاً ليستولى على أرض البابليين حسبما حرّكه الله ضابط الكلّ ولذلك قيل عنه:

[هَكَذَا يَقُولُ الرَّبُّ لِمَسِيحِهِ لِكُورَشَ الَّذِي أَمْسَكَتُ بِيَمِينِهِ لِأُدْوسَ أَمَامَهُ أَمَاماً وَأَحْقَاءَ مُلُوكِ

أَحْلُ. لِأَفْتَحَ أَمَامَهُ الْمَصْرَاعَيْنِ وَالْأَبْوَابُ لَا تُغْلَقُ] [أشعيا ٤٥ : ١]...

ولا يجب أن ننسى أن الرجل " قورش " كان وثنيًا إلا أنه دُعي " مسيحًا " كما لو كان الأمر السماوي قد مسحه ملكًا، لأنه بسبق معرفة الله قد مال قوة لقهر بلاد البابليين... إن ما نريد أن نقوله بخصوص معنى كلمة " المسيح " هو ما سيأتى:

بسبب تعدّي آدم [لَكِنْ قَدْ مَلَكَ الْمَوْتُ مِنْ أَدَمَ إِلَى مُوسَى وَذَلِكَ عَلَى الَّذِينَ لَمْ يُخْطُوا عَلَى شِبْهِ تَعْدِي أَدَمَ الَّذِي هُوَ مِثَالُ الْآتِي] [رومية ٥ : ١٤]...

وفارق الروح القدس الطبيعة البشرية التى صارت مريضة فى كل البشر...

ولكى تعود الطبيعة البشرية من جديد إلى حالتها الأولى احتاجت إلى رحمة الله، لكى تُحسب بموجب رحمة الله مستحقة الروح القدس...

لذلك صار الابن الوحيد كلمة الله إنسانًا...

وظهر للذين على الأرض بجسد من الأرض ولكنه خالى من الخطيئة...

حتى فيه وحده تتوج الطبيعة البشرية بمجد عدم الخطيئة، وتغتنى بالروح القدس، وتتجدد بالعودة إلى الله بالقداسة...

لأنه هكذا تصل إلينا النعمة التى بدايتها المسيح البكر بيننا....

ولهذا السبب يعلمنا داود النبى المبارك أن نرتل للابن:

[أَحْبَبْتُ الْبِرَّ وَأَبْغَضْتُ الْإِثْمَ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ مَسَحَكَ اللَّهُ إِلَهُكَ بِدُهْنِ الْابْتِهَاجِ] [مزمور ٤٥ : ٧]...

فكان الابن قد مُسح كإنسان بمديح عدم الخطيئة...

وكما قلت أن الطبيعة البشرية قد مُجِّدَتْ فيه وصارت مستحقة للحصول على الروح القدس الذى لن يفارقها كما حدث فى البدء، بل صارت مسرته (أى الروح القدس) أن يسكن فينا...

لذلك أيضًا كُتِبَ أن الروح حل بسرعة (معنى حلول الروح القدس بشكل حمامة أى الطيران السريع علامة الشوق) على المسيح واستقرَّ عليه:

[وَشَهِدَ يُوحَنَّا: إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ الرُّوحَ نَازِلًا مِثْلَ حَمَامَةٍ مِنَ السَّمَاءِ فَاسْتَقَرَّ عَلَيْهِ. وَأَنَا لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُهُ لَكِنَّ الَّذِي أَرْسَلَنِي لِأَعْمَدَ بِالْمَاءِ ذَاكَ قَالَ لِي: الَّذِي تَرَى الرُّوحَ نَازِلًا وَمُسْتَقَرًّا عَلَيْهِ فَهَذَا هُوَ الَّذِي يُعَمِّدُ بِالرُّوحِ الْقُدُسِ.] [يوحنا ١ : ٣٢ ، ٣٣]...

فالمسيح هو كلمة الله الذى لأجلنا صار إنسانًا مثلنا، وفى صورة العبد، ومُسح كإنسان حسب الجسد، ولكنه كإله يمسح بروحه الذين يؤمنون به...

الله الكلمة دُعى " عمانوئيل " لأنه [... بَلْ يُمَسِّكُ نَسْلَ إِبْرَاهِيمَ] [عبرانيين ٢ : ١٦]
كلمة أمسك تعنى أنه ليس مجرد اتخاذ الجسد البشرى، بل أن يُحسب مثل الناس لأنه صار
ضمن الناس...

ومثلنا، [تَشَارَكَ الْأَوْلَادُ فِي اللَّحْمِ وَالدَّمِ اشْتَرَكَ هُوَ أَيْضاً كَذَلِكَ فِيهِمَا، لِكَيْ يُبَيِّدَ بِالْمَوْتِ
ذَلِكَ الَّذِي لَهُ سُلْطَانُ الْمَوْتِ، أَيْ إِبْلِيسَ] [عبرانيين ٢ : ١٤] ...

وعمايل تعنى " الله معنا " أو بالتدقيق " معنا الله " حسبما يظهر من أصلها العبرانى،
إذ تأتى كلمة " معنا " قبل كلمة " إيل " ...

ونحن نعتزف بأن الكلمة الله هو معنا...

دون أن يكون محصوراً فى مكان ما...

لأنه أى مكان لا يوجد فيه الله الذى يملأ كل الأشياء!...

وهو ليس معنا كما لو كان قد جاء لمساعدتنا مثلما قيل ليشوع :

[لَا يَقِفُ إِنْسَانٌ فِي وَجْهِكَ كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِكَ. كَمَا كُنْتُ مَعَ مُوسَى أَكُونُ مَعَكَ. لَا أَهْمُكَ وَلَا
أُتْرُكُكَ] [يشوع ١ : ٥] ...

ولكنه معنا لأنه صار مثلنا أى أخذ طبيعة بشرية دون أن يفقد طبيعته الإلهية لأن كلمة
الله غير متغير بطبيعته...

ولماذا لم يُدعِ الله " عمانوئيل " رغم أنه قيل ليشوع " كما كنت مع موسى سأكون
معك "؟...

ولم يُدعِ الله " عمانوئيل " رغم أنه كان مع كل القديسين والآباء البطارقة؟...

والسبب هو أن الله الكلمة أصبح معنا فى الوقت الذى تحدّث عه باروخ هو أظهر ذاته
على الأرض. وتحدّث مع الناس، وأسّس كل طرق التعليم، وأعطاه ليعقوب عبده
ولإسرائيل حبيبه، لأنه هو إلهنا وليس آخر سواه:

[دَعَاَهَا فَقَالَتْ نَحْنُ لَدَيْكَ وَاشْرَقَتْ مُتَهَلِّلَةً لِلَّذِي صَنَعَهَا. هَذَا هُوَ إِلَهُنَا وَ لَا يَعْتَبِرُ حِذَاءَهُ
آخَرٌ. هُوَ وَجَدَ طَرِيقَ التَّأْدُّبِ بِكَمَالِهِ وَ جَعَلَهُ لِيَعْقُوبَ عَبْدَهُ وَ لِإِسْرَائِيلَ حَبِيبَهُ. وَ بَعْدَ ذَلِكَ
تَرَاءَى عَلَى الْأَرْضِ وَ تَرَدَّدَ بَيْنَ الْبَشَرِ] [باروخ ٣ : ٣٥ - ٣٨] ...

وكما يليق بطبيعته الإلهية لم يكن " معنا " بالمعنى الذى تحدّث عنه باروخ...

لأن الفروق بين اللاهوت والناسوت لا تسمح بالمقارنة بينهما فما أعظم الفرق بين
الطبيعتين...

يشرح القديس كيرلس الكبير " عمانوئيل " على أنه اسم الله عندما صار معنا بالجسد، لأنه معنا منذ بداية العالم ولكنه أصبح معنا على نحو جديد فريد، لذلك وضع كيرلس هذه العبارة لكي يدعّم معنى " الله معنا" ...

ولذلك يتكلم داود النبي عن العلاقة السريّة التي كانت قبل التجسّد، وبين الله الكلمة، وبيننا، ويقول بالروح:

[يَارَبُّ لِمَاذَا تَقَفُ بَعِيداً؟ لِمَاذَا تَخْتَفِي فِي أَرْمَنَةِ الضَّيْقِ؟] [مزمور ١٠ : ١] ...

أمّا الآن فهو لا يتركنا، بل هو معنا عندما صار مثلنا دون أن يفقد ما له لأنه أمسك بنسل إبراهيم كما قلت، بل أخذ صورة العبد وراه البشر كإنسان يمشى على الأرض... إن عمانوئيل والمسيح يخصّان الابن الواحد نفسه...

فهو المسيح لأنه مُسِيحٌ مثلنا كبشر، وأخذ الروح البشرية لأنه الأول وبداية الجنس البشري الجديد...

وبالمثل، هو نفسه كإله يَمَسَحُ بالروح القدس كل الذين يؤمنون به...

وهو " عمانوئيل " لأنه صار معنا على النحو الذي شرحتة...

والذي يخبرنا به أشعيا النبي:

[وَلَكِنْ يُعْطِيكُمْ السَّيِّدُ نَفْسَهُ آيَةً: هَا الْعَذْرَاءُ تَحْبِلُ وَتَلِدُ ابْنًا وَتَدْعُو اسْمَهُ {عَمَّاوَيْيلُ}] [

أشعيا ٧ : ١٤] ...

لأن العذراء القديسة مريم حبلت بالروح القدس وولدت حسب الجسد ابنًا، عند ذلك فقط، دُعي المولود " عمانوئيل " ...

لأن غير المتجسد أصبح معنا عندما وُلِد...

وقد حدث ذلك طبقاً لما ذكره داود:

[مِنْ صِهْيُونَ كَمَالِ الْجَمَالِ اللَّهُ أَشْرَقَ. يَأْتِي إِلَهُنَا وَلَا يَصْمُتُ. نَارٌ قَدَامَهُ تَأْكُلُ وَحَوْلَهُ

عَاصِيفٌ جَدًّا] [مزمور ٥٠ : ٢، ٣] ...

وهو ما أشار إليه أشعيا:

[لِذَلِكَ يَعْرِفُ شَعْبِي اسْمِي. لِذَلِكَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ يَعْرِفُونَ أَنِّي أَنَا هُوَ الْمُتَكَلِّمُ . هَنَذَا] [

أشعيا ٥٢ : ٦] ...

لأن الكلمة قبل أن يتجسّد تحدّث من خلال الأنبياء، ولكنه في ملء الزمان صار معنا متجسّداً...

إن تتابع تأملنا يلزمنا أن نتحدث عن الواحد ابن الله، فالمسيح و عمانوئيل ويسوع شخص واحد...

والاسم " يسوع " جاء من الحقيقة:

[فَسَتَلِدُ ابْنًا وَتَدْعُو اسْمَهُ يَسُوعَ لِأَنَّهُ يُخَلِّصُ شَعْبَهُ مِنْ خَطَايَاهُمْ] [متى ١ : ٢٢] ...

لأنه كما أن الاسم " عمانوئيل " يعنى أن كلمة الله بسبب ميلاده من العذراء صار معنا... والمسيح دُعى كذلك لأنه مُسيح مثلنا كبشر...

هكذا أيضاً يسوع، لأنه خَلَصنا نحن شعبه...

وهذا الاسم يوضح أنه الله بالحقيقة، ورب الطبيعة...

لأنه لا يليق أن تكون الخليفة ملك للإنسان، بل من اللائق أن نقول أن كل الأشياء هي للابن الوحيد حتى وهو فى الجسد...

وربما إعترض البعض وقال أن شعب إسرائيل دُعى شعب موسى...

وعلى هذا نجيب أن شعب إسرائيل دُعى شعب الله وهذا حقيقى...

ولكن عندما تمرّدوا على الله وصنعوا العجل فى البرية، حُرّموا من كرامة الانتساب لله، ورفض أن يدعواهم شعبه بل تركهم لرعاية البشر...

وهذا لا ينطبق علينا نحن خاصة يسوع، لأنه الله الذى به خلقت كل الأشياء...

وعن هذا يقول داود النبى:

[اَعْلَمُوا أَنَّ الرَّبَّ هُوَ اللَّهُ. هُوَ صَنَعَنَا وَلَهُ نَحْنُ شَعْبُهُ وَغَنَمُ مَرَعَاهُ] [مزمور ١٠٠ : ٣] ...

وهو (أى المسيح) يقول عنا:

[وَلَكِنَّكُمْ لَسْتُمْ تُؤْمِنُونَ لِأَنَّكُمْ لَسْتُمْ مِنْ خِرَافِي كَمَا قُلْتُ لَكُمْ. خِرَافِي تَسْمَعُ صَوْتِي وَأَنَا

أَعْرِفُهَا فَتَتَّبَعْنِي] [يوحنا ١٠ : ٢٦ ، ٢٧] ...

وهو أيضاً أوصى بطرس الرسول:

[يَا سِمْعَانُ ابْنُ يُوْنَا أَتُحِبُّنِي... ارْغُ خِرَافِي] [يوحنا ٢١ : ١٥] ...

٥ - لماذا دُعى كلمة الله إنساناً؟

الكلمة الذى من الله الآب (أى المولود من الآب) دُعى إنساناً رغم كونه بالطبيعة الله...

لأنه اشترك فى الدم واللحم مثلنا [عبرانيين ٢ : ١٤] ...

وهذا جعل الذين على الأرض قادرين على مشاهدته...

وعندما حدث ذلك (أى تجسّد) لم يفقد شيئاً مما له (أى ألوهيته) ...

وإذ أخذ طبيعة بشرية مثلنا (أى مثل طبيعتنا) لكنها كاملة (أى بلا خطيئة)، ظل أيضاً الله وربّ الكلّ، لأنه هو هكذا فعلاً وبطبيعته وبحق مولود من الله الأب رغم تجسده...

وهذا ما يرينا إيّاه بوضوح كافٍ الحكيم بولس عندما يقول:

[الإنسان الأول من الأرض ثرابي. الإنسان الثاني الرب من السماء] [١ كورونثوس ١٥ : ٤٧]...

ورغم أن العذراء مريم ولدت الهيكل (شاع استخدام كلمة " الهيكل " للدلالة على ناسوت المسيح في كل الكتابات المسيحية منذ العهد الجديد [أجاب يسوع: انقضوا هذا الهيكل وفي ثلاثة أيام أقيمهُ . فقال اليهود: في ست وأربعين سنة بُني هذا الهيكل فأنت في ثلاثة أيام تُقيمهُ؟ ، وأما هو فكان يقول عن هيكل جسده.] [راجع يوحنا ٢ : ١٩ ، ٢٠] وهو تعبير هام يؤكد أن ناسوت المسيح هو مكان حلول الله (المتحد بالكلمة إلا أن عمانوئيل قيل عنه، وهذا حق، " من السماء " لأنه من فوق، مولود من جوهر الأب...

وإن كان قد نزل إلينا عندما صار إنساناً، إلا أنه من فوق...

وعن هذا شهد يوحنا:

[الذي يأتي من فوق هو فوق الجميع والذي من الأرض هو أرضي ومن الأرض يتكلم . الذي يأتي من السماء هو فوق الجميع] [يوحنا ٣ : ٣١]...

والمسيح نفسه قال لشعب اليهود:

[أنتم من أسفل أما أنا فمن فوق. أنتم من هذا العالم أما أنا فليست من هذا العالم] [يوحنا ٨ : ٢٣]...

وأيضاً:

[وليس أحد صعد إلى السماء إلا الذي نزل من السماء ابن الإنسان الذي هو في السماء] [يوحنا ٣ : ١٣]...

ولذلك نقول أن ابن الإنسان نزل من السماء وهذا تدبير الاتحاد ...

لأن الكلمة وهب لجسده كل صفات مجده وكل ماهو فائق وخاص بالله...

(تتكرر كلمة " التدبير " في هذه المقالة، وهي تعني أن هناك أموراً معينة قام بها

المسيح مثل الجوع والعطش والألم ... إلخ، وكل هذه كانت جزءاً أساسياً في خطة

الخلاص... أو كانت الخطة " التدبير " هي أن يكون للمسيح كل صفات الناسوت)...

٦ - كيف قيل أن الكلمة أخلى أو أفرغ ذاته؟

إن الله الكلمة بطبيعته كامل من كل الوجوه، ومن ملئه يوزع عطاياه للخلائق...
ونحن نقول عنه أنه أفرغ ذاته دون أن يمسّ هذا بطبيعته...
لأنه عندما أفرغ ذاته لم يتغيّر إلى طبيعة أخرى...
ولم يصبح أقل مما كان عليه لأنه لم ينقص شيئاً...
هو غير متغيّر مثل المولود منه (أى الذى ولده الآب)...
ومثله تماماً غير عرضة للأهواء...
ولكن عندما صار جسداً (أى إنساناً) جعل فقر الطبيعة الإنسانية فقره...
ولذا قال:

[وَيَكُونُ بَعْدَ ذَلِكَ أَنِّي أَسْكُبُ رُوحِي عَلَى كُلِّ بَشَرٍ فَيَنبَأُ بَنُوكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَيَحْلُمُ شُيُوكُمْ
أَحْلَاماً وَيَرَى شَبَابُكُمْ رُؤًى] [يوثيل ٢ : ٢٨]...
ولقد تمّ هذا:

أولاً: لأنه صار إنساناً رغم أنه ظلّ الله...

ثانياً: أخذ صورة العبد، وهو بطبيعته حر كابن. وفي نفس الوقت هو نفسه رب المجد،
ولكنه قيل أنه تمجّد لأجلنا. هو نفسه الحياة، ولكن قيل عنه أنه أحيى (أى أقيم من
الأموات)، وأعطى سلطاناً على كل شئ، وهو نفسه ملك الأشياء مع الله الآب. أطاع
الآب وتألّم وما إليه...
هذه الأشياء تخص الطبيعة البشرية، ولكنه جعلها له (أى تخصه) عندما تجسّد لى
يكمل التدبير ويبقى كما هو...
وهذا ما تقصده الأسفار المقدّسة بإفراغ الذات...

٧ - كيف يكون المسيح واحداً؟

يكتب بولس الرسول:

[لِأَنَّهُ وَإِنْ وُجِدَ مَا يُسَمَّى إِلَهَةً سِوَاءَ كَانٍ فِي السَّمَاءِ أَوْ عَلَى الْأَرْضِ كَمَا يُوجَدُ إِلَهَةٌ
كَثِيرُونَ وَأَرْبَابٌ كَثِيرُونَ. لَكِنْ لَنَا إِلَهٌ وَاحِدٌ: الْآبُ الَّذِي مِنْهُ جَمِيعُ الْأَشْيَاءِ وَنَحْنُ لَهُ. وَرَبُّ
وَاحِدٌ: يَسُوعُ الْمَسِيحُ الَّذِي بِهِ جَمِيعُ الْأَشْيَاءِ وَنَحْنُ بِهِ] [١ كورونثوس ٨ : ٥، ٦]...

وأيضاً يقول يوحنا الرسول عن الله الكلمة:

[كُلُّ شَيْءٍ بِهِ كَانَ وَبَعِيرُهُ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِمَّا كَانَ] [يوحنا ١ : ٣]...

وجبرائيل المبارك يعلن البشارة المفرحة للعدراء القديسة قائلاً:
[وَهَآ أَنتِ سَتَحْبِلِينَ وَتَلِدِينَ إِنْسَانًا وَتُسَمِّيْهُ يَسُوعَ] [لوقا ١ : ٣١] ...
فيولس الرسول يعلن أن كل الأشياء خلقت بيسوع المسيح، والإنجيلي الإلهي يؤكد قوة التعبير نفسه ويبشر أنه هو الله خالق كل الأشياء، وهذا نطق حق ...
وصوت الملاك أيضاً يشير إلى أن يسوع المسيح ولد حقاً من العدراء القديسة...
ونحن لا نقول أن يسوع المسيح كان مجرد إنسان، ولا نعتقد بالله الكلمة بدون طبيعته الإنسانية!!!...
بل نقول أنه واحد من اثنين أى الإله المتجسد...
(راجع ثيوتوكية الأحد حيث تردد الكنيسة وتقول: واحد من اثنين، لاهوت قدّوس بغير فساد مساو للآب وناسوت طاهر مساو لنا كالتدبير)...
هو نفسه وُلِدَ إلهياً من الآب لأنه الكلمة وإنسانياً من امرأة كإنسان...
وهذا لا يعنى أنه وُلِدَ مرة ثانية عندما قيل أنه ولد حسب الجسد...
فهو مولود قبل كل الدهور...
وكما ذكرنا قبلاً، كثيرون قد دُعوا مسحاء ولكن يوجد واحد فقط يسوع المسيح الذى به خُلقت كل الأشياء...
وهذا لا يعنى بالمرّة أن إنساناً صار خالق كل الأشياء...
بلّ يعنى أن الله الكلمة الذى به خُلقت كل الأشياء صار مثلنا واشترك فى الدم واللحم، ودُعِى إنساناً دون أن يفقد ماله (أى ألوهيته)...
لأنه وإن كان قد صار جسداً لكنه بالحقيقة خالق الكل...
(راجع التسابيح الكيهكية حيث نرتل ونقول: فى حضن أبيه الممجّد. فلنسبحه كإله ونمدحه مع أمه كإنسان ... الإبصلمودية طبعة ١٩١١ ص ٩١ . يا ليت الذين يتهموننا بالأوطاخية يخلجون)...

٨ - كيف يكون عمانوئيل واحداً؟

قيل عن الله الكلمة مرة واحدة وإلى الأبد وفى آخر الدهور أنه صار إنساناً كما يقول الرسول بولس:
[فَإِذْ ذَٰلِكَ كَانَ يَجِبُ أَنْ يَتَأَلَّمَ مِرَاراً كَثِيرَةً مُنْذُ تَأْسِيسِ الْعَالَمِ، وَلَكِنَّهُ الْآنَ قَدْ أَظْهَرَ مَرَّةً عِنْدَ انْقِضَاءِ الدُّهُورِ لِيُبْطَلَ الْخَطِيئَةُ بِذَبِيحَةِ نَفْسِهِ] [عبرانيين ٩ : ٢٦] ...
وما هى هذه الذبيحة؟...

هى جسده الذى قدمه كرائحة بخور ذكيّة الله الأب...

فقد دخل مرة واحدة إلى القدس، ليس بدم ماعز وتيوس بل بدمه ذاته:

[وَلَيْسَ بَدَمِ ثِيُوسٍ وَعُجُولٍ، بَلْ بَدَمِ نَفْسِهِ، دَخَلَ مَرَّةً وَاحِدَةً إِلَى الْأَقْدَاسِ، فَوَجَدَ فِدَاءً أَبَدِيًّا]

[عبرانيين ٩: ١٢]...

وهكذا حصل للذين يؤمنون به فداءً أبديًا...

وكثيرون قبله كانوا قديسين ولكن ليس واحد منهم دُعى " عمانوئيل " . لماذا؟...

لأن الوقت لم يكن قد حان بعد ليكون هو معنا أى يجئ إلى طبيعتنا عندما يتجسد لأنه

أسمى من كل المخلوقات...

واحد إذاً هو " عمانوئيل " لأنه هو الابن الوحيد الذى صار إنسانًا عندما وُلد جسديًا من

العذراء القديسة...

لقد قال الله ليشوع " سأكون معك " (يشوع ١ : ٥) ولكن الله لم يُدع فى ذلك الوقت "

عمانوئيل "

وكان قبل ذلك مع موسى ولم يُدع " عمانوئيل "...

لذلك عندما نسمع اسم " عمانوئيل " أى " معنا الله " الذى أُعطى للابن، فلنعتقد بحكمة

أنه ليس معنا كما كان فى الأزمنة السابقة مع القديسين لأنه كان معهم كمعين فقط...

ولكن هو معنا لأنه صار مثلنا دون أن يفقد طبيعته لأنه الله غير المتغير...

٩ - ماهو هذا الاتحاد؟

عندما نقول أن كلمة الله اتحد بطبيعتنا فإن كيفية هذا الاتحاد هى تفوق فهم البشر...

فهو اتحاد لا يوصف وغير معروف لأى من الناس سوى الله وحده الذى يعرف كل

شئ...

وأى غرابة فى أن يفوق اتحاد اللاهوت بالانسوت إدراك أى عقل؟...

فنحن عندما نبحث بدقة عن أمورنا ونحاول إدراك كنهها نعترف أنها تفوق مقدرة

الفهم الذى فينا...

فما هى كيفية اتحاد نفس الإنسان بجسده؟...

من يمكنه أن يخبرنا؟...

ونحن بصعوبة نفهم وبقليل نتحدّث عن اتحاد النفس بالجسد...

ولكن إذا طُلبَ منا أن نحدّد كيفية اتحاد اللاهوت بالانسوت وهو أمر يفوق كل فهم بل

صعب جدًّا، نقول أنه من اللائق أن نعتقد أن اتحاد اللاهوت بالانسوت فى

"عمانوئيل" هو مثل اتحاد نفس الإنسان بجسده - وهذا ليس خطأ لأن الحق الذى نتحدث عنه هنا تعجز عن وصفه كلماتنا...

والنفس تجعل الأشياء التى للجسد هى لها رغم أنها بطبيعتها لا تشارك الجسد آلامه المادية الطبيعية أو الآلام التى تسببها للجسد الأشياء التى هى خارج الجسد لأن الجسد عندما يتحرك مدفوعاً نحو رغباته الطبيعية (الجسدية) فإن النفس التى فيه تعرف هذه الرغبات بسبب اتحاد النفس بالجسد...

ولكنها (أى النفس) لا تشارك الجسد رغباته، ومع ذلك نعتبر أن تحقيق الرغبة هو تحقيق لرغبتها هى (أى النفس)...

فإذا ضرب الجسد أو جرح، مثلاً، فإن النفس تحزن مع جسدها، ولكن طبيعتها لا تتألم بالآلام المادية التى تقع على الجسد...

ومع هذا يلزم أن نقول أن الاتحاد فى " عمانوئيل " هو أسمى من أن يُشبه باتحاد النفس بالجسد...

لأن النفس المتحدة بجسدها تحزن مع جسدها وهذا حتمى حتى أنها عندما تقبل الهوان تتعلم كيف تخضع لطاعة الله...

أما بخصوص الله الكلمة فإنه من الحماقة أن نقول أنه كان يشعر بلاهوته بالإهانات... لأن اللاهوت لا يشعر بما نشعر به نحن البشر...

وعندما اتحد بجسد له نفس عاقلة وتألم لم يفعل اللاهوت بما تألم به، ولكنه كان يعرف ما يحدث له...

وأباد كإله كل ضعفات الجسد، رغم أنه جعلها ضعفاته هو فهى تخص جسده...

لذلك بسبب هذا الاتحاد قيل عنه أنه عطش وتعب وتألم لأجلنا...

ولعلّ التفرقة بين " يعرف " و " يشعر " هى من أهم ما تعلم به الكنائس الشرقية الأرثوذكسية عن آلام الرب يسوع المسيح...

يُعبّر كيرلس الكبير هنا عن التقوى الشرقية الأرثوذكسية بكل وضوح أن المتألم هو ربنا وليس لاهوته ورغم أن الآلام تخص جسده إلا أنها تُنسب له كشخص واحد غير منقسم وهو ذات ما صرّح به القديس ديوسقورس بطل الرثوذكسية...

ولذا، فإن اتحاد الكلمة بطبيعتنا البشرية يُمكن على وجه ما أن يُقارن باتحاد النفس بالجسد...

لأنه كما أن الجسد من طبيعة مختلفة عن النفس، ولكن الإنسان واحد من اثنين (النفس والجسد)...

هكذا المسيح واحد من الأقنوم الكامل لله الكلمة ومن الناسوت الكامل...

والألوهة نفسها والناسوت نفسه في الواحد بعينه الأقنوم الواحد...

وكما قلت، أن الكلمة يجعل آلام جسده آلامه هو، لأن الجسد هو جسده وليس جسد أحد آخر سواه...

هكذا، يمنح الكلمة جسده كل ما يخصّ لاهوته من قوة، حتى أن جسده قادر على أن يقيم الموتى ويُبرئ المرضى...

اتحاد اللاهوت بالناسوت يعنى أن كل من لمس جسد الابن الوحيد بالإيمان يحصل على كل ما يريده من الله (اللاهوت)، مثل المرأة النازفة الدم التي لمست طرف ثوبه وبرئت لأن قوة خرجت من المسيح...

ولاحظ أن الرب يؤكّد حقيقة الاتحاد عندما قال:

[فَقَالَ يَسُوعُ: قَدْ لَمَسَنِي وَاحِدٌ لِأَنِّي عَلِمْتُ أَنَّ قُوَّةً قَدْ خَرَجَتْ مِنِّي] [لوقا ٨: ٤٦] ... ولم يقل من لاهوتي...

هكذا شرح القديس كيرلس المعجزة...

ويؤكّد الإنجيل في عدّة مناسبات أن المعجزات كانت تتم بقوة منه، كما جاء في :
[وَالْمُعَذَّبُونَ مِنْ أَرْوَاحٍ نَجِسَةٍ وَكَانُوا يَبْرَأُونَ. وَكُلُّ الْجَمْعِ طَلَبُوا أَنْ يَلْمِسُوهُ لِأَنَّ قُوَّةً كَانَتْ تَخْرُجُ مِنْهُ وَتَشْفِي الْجَمِيعَ] [لوقا ٦: ١٨] ...

فما أبعد الفرق بين هذه النظرة الإنجيلية وبين النصّ المشهور في طومس لاون:"
الواحد يشفى المرضى والآخر يتألم"...

أمثلة كتابية عن كيفية الاتحاد:

وإذ يليق بنا في هذا المجال أن نستخرج تشابه من الكتب الموحى بها من الله، لكي نوضّح
بعدة أمثلة كيفية الاتحاد، لذلك دعونا نتكلّم من الكتب حسب طاقتنا:

أ - الجمرة:

قال النبي أشعيا:

[فَطَارَ إِلَيَّ وَاحِدٌ مِنَ السَّرَافِيمَ وَبِيَدِهِ جَمْرَةٌ قَدْ أَخَذَهَا بِمِلْقَطٍ مِنْ عَلَى الْمَذْبَحِ . وَمَسَّ بِهَا فَمِي
وَقَالَ: إِنَّ هَذِهِ قَدْ مَسَّتْ شَفَتَيْكَ فَانْتُرِعَ إِثْمُكَ وَكُفِّرَ عَنْ خَطِيئَتِكَ] [أشعيا ٦: ٦، ٧] ...

ونحن نقول ان الجمرة المتقدة هي مثال وصورة للكلمة المتجسّد لأنه عندما يلمس
شفاهنا أى عندما نعترف بالإيمان به فإنه ينقّينا من كل خطية ويحرّرنا من اللوم القديم
الذى ضدّنا...

ويمكننا أن نرى أيضاً، الجمرة مثلاً لكلمة الله المتحد بالطبيعة البشرية دون أن يفقد خواصه...

بل حول ما أخذه (الطبيعة البشرية) وجعله متحدًا به، بلّ بمجده وبعمله...
لأن النار عندما تتصل بالخشب تستحوذ عليه، ولكن الخشب يظل خشبًا، فقط يتغيّر إلى شكل النار وقوتها، بلّ يصبح له صفات النار وطاقتها ويُعتبر واحدًا معها...
هكذا أيضًا يجب أن يكون إعتقادنا في المسيح، لأن الله اتحد بالإنسانية بطريقة لا يُنطق بها...

ولكنه أبقى على خواص الناسوت على النحو الذي نعرفه...
وهو نفسه لم يفقد خواص اللاهوت عندما اتحد بالناسوت، بلّ جعله واحدًا معه،
وجعل خواص الناسوت خواصه...

بل هو نفسه قام بكلّ أعمال اللاهوت في الناسوت...
نرى هذا الأساس الأبائي للعبارة المشهورة في الاعتراف الأخير قبل التناول حيث
يقول الكاهن القبطي: " وجعله واحدًا مع لاهوته بغير اختلاط ولا إمتزاج ولا تغيير "
وهي تعبّر عن إيمان سليم...

ب - سوسنة الأودية:

قدّم لنا نشيد الأناشيد ربنا يسوع المسيح قائلاً:
[أَنَا نَرْجِسُ شَارُونَ (وَرَدَةُ السِّفُوح .. الترجمة السبعينية) سَوْسَنَةُ الْأَوْدِيَةِ] [نشيد
الأناشيد ٢ : ١] ...
وفي السوسنة الرائحة غير المجسّمة (غير ظاهرة للعين) ولكنها لا توجد خارج
السوسنة...

ولذلك فالسوسنة واحدة من اثنين (الرائحة وجسم السوسنة)...
وغياب رائحة السوسنة لا يجعلها سوسنة...
وكذلك غياب جسم السوسنة لا يفسر وجود رائحة السوسنة، لأن في جسم السوسنة
رائحتها...
هكذا أيضًا يجب أن يكون اعتقادنا في ألوهية المسيح الذي يُعطّر العالم برائحته
الذكيّة ومجده الذي يفوق مجد الأرضيات...
ولكى يُعطّر العالم كله استخدم اللاهوت الطبيعة البشرية...
لأنه عندما أراد أن يُعلن عن ذاته من خلال الجسد جعل فيه كلّ ما يخصّ اللاهوت...

لذلك من الصواب أن نعتقد أن الذى بطبيعته غير جسمانى اتحد بجسده وأصبح الاتحاد مثل السوسنة لأن الرائحة العطرة وجسم السوسنة هما واحد ويسميان السوسنة...

أى أن الجسد الذى أخذه، له نفس عاقلة، وأصبح جسد اللاهوت غير المجسم، وإذا فُصل أيهما عن الآخر فإننا بالفصل نلغى يقيناً ونهائياً تدبير المسيح...

ج - تابوت العهد

إن خيمة الاجتماع التى أراد الله أن تُقام فى البرية ترمز على "عمانوئيل" فى أشياء كثيرة...

الله إله الكل قال لموسى:

[فَيَصْنَعُونَ تَابُوتًا مِنْ خَشَبِ السَّنْطِ طُولُهُ ذِرَاعَتَانِ وَيَصْنَعُ وَعرْضُهُ ذِرَاعٌ وَيَصْنَعُ وَارْتِفَاعُهُ ذِرَاعٌ وَيَصْنَعُ وَتَعْشِيَهُ يَذْهَبُ نَقِيٍّ. مِنْ دَاخِلٍ وَمِنْ خَارِجٍ تُعْشِيهِ. وَتَصْنَعُ عَلَيْهِ إِكْلِيلًا مِنْ ذَهَبٍ حَوَالِيهِ] [خروج ٢٥ : ١٠ ، ١١] ...

الخشب الذى لا يُسوّس هو رمز للجسد الذى لم يفسد، لأن الرز لا يُسوّس... أما الذهب وهو يفوق كل الأشياء فهو يشير إلى جوهر اللاهوت الفائق... لكن لاحظ كيف غُطّي التابوت كله بالذهب النقي من الداخل والخارج، لأن الله الكلمة اتحد بجسد مقدّس وهو ما يشير إليه تغطية التابوت بالذهب من الخارج... والنفس العاقلة التى فى جسده هى نفسه، وهذا ما يشير عليه تغشية التابوت من الداخل... وهكذا لم يحدث تشويش للطبيعتين...

لأن الذهب الذى غُطّي به الخشب ظلّ كما هو ذهباً...

أما الخشب فقد صار غنياً بمجدد اللاهوت، ولكنه لم يفقد خصائصه كخشب...

وببراهين كثيرة يمكننا أن نتأكد من أن التابوت يرمز للمسيح لأنه كان يخرج أمام بنى غسراييل وكان هذا سبب عزاء لهم، وهكذا قال المسيح فى موضع معين:

[لَا تَضْطَرِبْ قُلُوبُكُمْ. أَنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ فَأَمِنُوا بِي. فِي بَيْتِ أَبِي مَنَازِلُ كَثِيرَةٌ وَإِلَّا فَإِنِّي كُنْتُ قَدْ فُلْتُ لَكُمْ. أَنَا أَمْضِي لِأَعِدَّ لَكُمْ مَكَانًا وَإِنْ مَضَيْتُ وَأَعَدَدْتُ لَكُمْ مَكَانًا أَتِي أَيْضًا وَأَأْخُذْكُمْ إِلَيَّ حَتَّى حَيْثُ أَكُونُ أَنَا تَكُونُونَ أَنْتُمْ أَيْضًا وَتَعْلَمُونَ حَيْثُ أَنَا أَذْهَبُ وَتَعْلَمُونَ الطَّرِيقَ] [يوحنا ١٤ : ١-٤] ...

تفسير خيمة الاجتماع على هذا النحو موجود عند الآباء قبل القديس كيرلس، وبالذات إيرونائوس وهيبوليتوس...

ومن يقرأ نصّ القديس كيرلس يشعر على الفور أنه كان يأخذ من كلمات ثيوتوكية
الأحد حيث ترتّل كنيستنا: " التابوت المصّوح بالذهب من كلّ ناحية المصنوع من خشب
لا يسوّس سبق ان يدلّنا على الله الكلمة الذى صار إنساناً بغير افتراق..."
وشرعية تفسير الآباء قائمة على حقيقة أساسية أن كل ما هو متّصل بظهور الله فى
العهد القديم قد تحقق بشكل أفضل وأكمل فى العهد الجديد عندما إتحد وحلّ فى
الهيكل الحقيقى أى الطبيعة البشرية...
ولاحظ أن ثيوتوكية الأحد تتحدّث عن التجسّد ثم عن العذراء لأن كلّ ما يخصّ
العذراء مرتبط بالتجسّد...

١٠ - الله الكلمة واحد من اثنين: لاهوت كامل وناسوت كامل

الله الكلمة صار إنساناً..
وهو ليس إنساناً تشرفّ بصلة اللاهوت...
كما أنه ليس إنساناً حصل على مساواة كرامة وسلطان الله الكلمة حسب زعم البعض...
فى هذه الفقرة يفرّق القديس كيرلس بين هرطقتين وهما النسطورية التى إدّعت أن
المسيح حصل على مجرد صلة باللاهوت، والأريوسية التى إدّعت أن الابن فى الجسد
مخلوق رُفع بمنحة إلهية من الآب إلى كرامة اللاهوت...
ويمكن لأى إنسان يريد أن يتحاشى السقوط فى هرطقة أن يتذكّر دائماً ان ربنا يسوع
المسيح ليس إنساناً تأله ولا إلهاً فقط بل هو واحد من اثنين : لاهوت وناسوت...
يقول الرسول بولس:

[وَبِالْإِجْمَاعِ عَظِيمٍ هُوَ سِرُّ الثَّقَوَى: اللهُ ظَهَرَ فِي الْجَسَدِ، تَبَرَّرَ فِي الرُّوحِ، ثَرَأَى لِمَلَائِكَةٍ،
كُرِّزَ بِهِ بَيْنَ الْأُمَمِ، أُوْمِنَ بِهِ فِي الْعَالَمِ، رُفِعَ فِي الْمَجْدِ] [١ تيموثاوس ٣: ١٦]...
وهذا حقيقى لأن الله الكلمة ظهر فى الجسد، وتبرّر فى الروح، لأننا لم نر فيه أى
خضوع لضعفاتنا رغم أنه لأجلنا صار إنساناً إلا أنه بلا خطيئة...
وشاهدته الملائكة فهم لم يجهلوا ميلاده حسب الجسد...
وكُرِّزَ به للأمم كإله صار إنساناً...

وهذا ما برهنه الرسول بولس:

[لِذَلِكَ اذْكُرُوا أَنْتُمْ الْأُمَمَ قَبْلًا فِي الْجَسَدِ، الْمَدْعُوِّينَ غُرْلَةً مِنَ الْمَدْعُوِّ خِتَانًا مَصْنُوعًا
بِالْيَدِ فِي الْجَسَدِ، أَنْتُمْ كُنْتُمْ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ بُدُونِ مَسِيحَ، أَجَنَّبِيِّنَ عَنْ رَعْوِيَّةِ إِسْرَائِيلَ،
وَعُرَبَاءَ عَنْ عَهْدِ الْمَوْعِدِ، لَا رَجَاءَ لَكُمْ وَبِلَا إِلَهٍ فِي الْعَالَمِ] [أفسس ٢: ١١، ١٢]...

فالأمم إذ كانوا بلا إله فى العالم عندما كانوا بدون المسيح...
ولكن عندما آمنوا بالمسيح أنه هو بالحقيقة وبالطبيعة الله، إعتترف هو بهم بدوره كمعترفين بالإيمان...
وهو (أى المسيح) رُفِعَ بمجد (أى بمجد إلهى) لأن داود ينشد:
[ارْتَفِعِ اللَّهُمَّ عَلَى السَّمَاوَاتِ. لِيَرْتَفِعَ عَلَى كُلِّ الْأَرْضِ مَجْدُكَ] [مزمور ٦٧: ٥]...
لأنه بالحقيقة صعد بالجسد وليس باللاهوت وحده، لن الله تجسّد ولذلك يجب أن يُقال عنه أنه صعد أيضاً...
إن الإيمان الأرثوذكسى (الصحيح) هو:
أننا نؤمن بالرب الذى ظهر فى شكل العبد والذى صار مثلنا بالحقيقة بطبيعة بشرية ولكنه ظلّ الله...
لأن الله الكلمة عندما أخذ جسداً لم يفقد خواصه الإلهية بلّ ظلّ فى نفس الوقت هو الله المتجسّد...
وإذا قال أحد: أى ضرر يحدث إذا اعتقدنا أن إنساناً مثلنا قد حصل على الألوهة وليس الله هو الذى تجسّد؟...
سوف نجيب بأنه يوجد ألف دليل ضد هذا الرأى، وكلّ هذه الأدلة تؤكّد لنا أنه علينا أن نجاهد بثبات ضد هذا الرأى وأن نرفضه...
وقبل أى شئ آخر فلندرس التدبير الخاص بالتجسد ونفحص حالتنا جيداً...
يقول فى ذلك القديس كيرلس:
لقد تعرّضت البشرية للخطر وهوت إلى أدنى حالات المرض أى اللعنة والموت...
وزيادة على ذلك تدنّست بقذارة الخطيئة وضلّت وصارت فى الظلام حتى أنها لم تعرفه وهو الله الحقيقى وعبدت المخلوقات دون الخالق...
فكيف كان من الممكن أن تتحرّر من فساد مثل هذا؟...
هل بأن تعطى لها الألوهة؟...
كيف وهى لا تعرف على وجه الإطلاق ما هى كرامة وسموّ الألوهة؟...
ألم تكن البشرية مقيّدة بعدم المعرفة وفى ظلام، بلّ ومدنّسة بلطخة الخطيئة؟...
فكيف كان من الممكن أن ترتفع إلى الطبيعة الكلية النقاء، وتحصل على المجد الذى لا يستطيع أحد أن يحصل عليه إلا إذا وُهب له؟...
دعونا نفترض أنه بالمعرفة مثلاً أو بالتعليم يمكن الحصول على الألوهة، فمن ذا الذى سيعلمها عتّن المجد الإلهى؟...

لأنهم كيف يؤمنوا إن لم يسمعوا؟...

[فَكَيْفَ يَدْعُونَ بِمَنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ. وَكَيْفَ يُؤْمِنُونَ بِمَنْ لَمْ يَسْمَعُوا بِهِ؟ وَكَيْفَ يَسْمَعُونَ بِلَا

كارز؟] [رومية ١٠ : ١٤] ...

ولذلك فإنه غير ممكن لأى من الناس ان يرتقى إلى مجد الألوهة ولكن من اللائق بلّ من المعقول أن نعتقد أن الله الكلمة الذى به خلقت كل الأشياء انتهى أن يُخلص ما قد هلك... فنزل إلينا ونزل إلى ما دون مستواه حتى يرفع الطبيعة البشرية إلى ما هو فوق مستواها...

أى ترتفع إلى أمجاد اللاهوت بسبب الاتحاد به...

يلخص القديس كيرلس فى هذه السطور جوهر لاهوت مدرسة الإسكندرية ونظرتها العميقة للخلاص فهو:

أولاً: عودة إلى الاتحاد بالله بعد أن إغتربنا عنه بالخطيئة، وقتد أصبح من الممكن أن نعود لله عندما اتحد اللاهوت بالناسوت فى ربنا يسوع المسيح...

ثانياً: أن الذى يحقق عودتنا لله فى المسيح هو الروح القدس...

ثالثاً: أن الخلاص هو التصاق بالمسيح فى المعمودية التى هى دفن وقيامة معه وفى شركة جسده فى الإفخارستيا وفى فهم أسرارهِ فى الكلمة الإلهية، أو بالموت مثله فى حالات الشهداء والنساك، وكل هذا مؤسس على حقيقة أساسية وهى صحّة الاعتقاد بمجىء الله إلينا فى الجسد وباتحاده بهذا الجسد...

لذلك كان ارتفاع الطبيعة البشرية إلى فوق بسبب التجسّد مقبولاً ومعقولاً عن أن ترتفع الطبيعة البشرية على أمجاد اللاهوت بدون التجسّد، وأن تنال عدم التغيّر الخاص بالله دون أن ينزل الله إليها...

ومن اللائق أن ينزل غير الفاسد إلى الطبيعة المستعبدة للفساد حتى يحرّرها من الفساد... وكان من اللائق أن الذى لم يعرف خطيئة يصبح مثل الذين تحت الخطيئة ليُبطل الخطيئة...

ففى النور تصبح الظلمة بلا عمل...

وحيث يوجد عدم الفساد يهرب الفساد...

لأن الذى لم يعرف خطيئة (أى الله) جعل الذى تحت الخطيئة (الجسد) خاصاً به حتى تصير الخطيئة إلى عدم...

وعلى الرغم من انه قيل عن يسوع أنه كان:

[وَأَمَّا يَسُوعُ فَكَانَ يَتَقَدَّمُ فِي الْحِكْمَةِ وَالْقَامَةِ وَالنَّعْمَةِ عِنْدَ اللَّهِ وَالنَّاسِ] [لوقا ٢ : ٥٢] ...

فإن هذا يخص التدبير...

لأن كلمة الله سمح لبشريته أن تنمو حسب خواصها وحسب قوانينها وعاداتها... ولكنه أراد شيئاً فشيئاً أن يعطى مجد ألوهيته إلى جسده كلما تقدّم في العمر حتى لا يكون مرعباً للناس إذا بدر منه عدم الاحتياج المطلق لأى شئ... ولعلّ هذا المبدأ اللاهوتى الهام، هو ما يميّز الأناجيل الأربعة عن غيرها من الأناجيل المزوّرة التى تنسب للمسيح فى طفولته معجزات وخوارق غير عادية... ولذلك يجب أن نفرّق بين اتحاد اللاهوت والناسوت الذى حدث فى اللحظة التى تكون فيها الجسد، وبين ظهور المجد الإلهى...

فالاتحاد حدث دون انفصال لكن ظهور المجد الإلهى كان يحدث على فترات وفى مناسبات مثل السير على الماء أو التجلّى... ومع هذا تكلموا عنه:

[قَنَّعَبَ الْيَهُودُ قَائِلِينَ: كَيْفَ هَذَا يَعْرِفُ الْكُتُبَ وَهُوَ لَمْ يَتَعَلَّمْ؟] [يوحنا ٧: ١٥]... فالنمو يحدث للجسد، كما أن التقدّم فى النعمة والحكمة يتلاءم مع مقاييس الطبيعة البشرية...

وهنا يلزمنا أن نوّكد أن الله الكلمة المولود من الأب هو نفسه كلى الكمال لا ينقصه النمو أو الحكمة أو النعمة...

بلّ أنه يُعطى للمخلوقات الحكمة والنعمة وكلّ ما هو صالح... وعلى الرغم أنه قيل عن يسوع أنه تألم فإن الآلام هى أيضاً خاصة بالتدبير... هى آلامه هو، وهذا صحيح تماماً لأنه تألم فى الجسد الذى يخصّه هو... ولكنه كإله لا يتألم أى لا تقبل طبيعته الألم حتى عندما تجرّاً صالבוه وعذبوه بقسوة... عندما صار الابن الوحيد مثلنا - لأنه دُعِى فى الأسفار التى أوحى بها الله بـ " ابن البشر "، وهذا حسب التدبير - إلا أننا نعتزف لأنه بطبيعته الله...

براهين كتابية على أن كلمة الله وإن كان قد صار إنساناً إلا أنه ظلّ إله:

١ - الكاروبيم:

يقول الله لموسى النبى شارحاً الأسرار الإلهية:

[وَتَصْنَعُ غِطَاءً مِنْ ذَهَبٍ نَقِيٍّ طَوْلُهُ ذِرَاعَانِ وَنِصْفُ وَعَرْضُهُ ذِرَاعٌ وَنِصْفُ وَتَصْنَعُ كَرُوبَيْنَ مِنْ ذَهَبٍ. صَنْعَةَ خِرَاطَةٍ تَصْنَعُهُمَا عَلَى طَرَفِي الْغِطَاءِ. فَاصْنَعُ كَرُوباً وَاحِداً عَلَى الطَّرَفِ مِنْ هُنَا وَكَرُوباً آخَرَ عَلَى الطَّرَفِ مِنْ هُنَاكَ. مِنَ الْغِطَاءِ تَصْنَعُونَ الْكَرُوبَيْنِ عَلَى طَرَفَيْهِ. وَيَكُونُ الْكَرُوبَانِ بَاسِطَيْنِ أَجْنَحَتَهُمَا إِلَى فَوْقِ مُظْلَلَيْنِ بِأَجْنَحَتَيْهِمَا عَلَى الْغِطَاءِ

وَوَجَّهَاهُمَا كُلُّ وَاحِدٍ إِلَى الْآخَرِ. نَحْوَ الْغِطَاءِ يَكُونُ وَجْهًا الْكَرُوبَيْنِ [] خروج ٢٥ : ١٧ - ٢٠[]...

هذا رمز صحيح يدلّ على أن الله الكلمة الذى تأنس إلا أنه ظلّ الله، وعندما صار مثلنا من أجل التدبير لم يفقد مجده وعظمته...

وعمانوئيل صار لنا كفارة بالإيمان:

[] الَّذِي قَدَّمَهُ اللَّهُ كَفَّارَةً بِالْإِيمَانِ بِدَمِهِ لِإِظْهَارِ بَرِّهِ مِنْ أَجْلِ الصَّفْحِ عَنِ الْخَطَايَا السَّالِفَةِ بِإِمْهَالِ اللَّهِ [] رومية ٣ : ٢٥[]...

وهذا يبرهنه يوحنا أيضاً:

[] يَا أَوْلَادِي الصِّغَارَ، أَكْتُبُ إِلَيْكُمْ هَذِهِ الْأُمُورَ لِكَيْ لَا تَخْطِئُوا. وَلَكِنْ، إِنْ أَخْطَأَ أَحَدُكُمْ، فَلَنَا عِنْدَ الْآبِ شَفِيعٌ هُوَ يَسُوعُ الْمَسِيحُ الْبَارُّ. فَهُوَ كَفَّارَةٌ لِخَطَايَانَا، لَا لِخَطَايَانَا فَقَطْ، بَلْ لِخَطَايَا الْعَالَمِ كُلِّهِ [] ١ يوحنا ٢ : ١، ٢[]...

وعليّنا أن ننظر إلى الكروبيين واقفين باسطين أجنحتهما على كرسي الرحمة، وهما يتطلعان إلى كرسي الرحمة وفي نفس الوقت يثبتان أعينهما على إرادة ربهما. وحشد الأرواح السماوية يثبتون عيونهم على إرادة الله الكلمة الذى تأنس إلا أنه ظلّ الله، وكلهم لا يشبع من النظر إلى الله...

هذا المنظر الأرضي (فى خيمة الاجتماع) يذكرنا بالمنظر السمائي الذى رآه أشعياى النبى عندما رأى الابن جالساً على عرش عالس والسارافيم يخدمونه كأنه:

[] فِي سَنَةِ وَقَاةٍ عَزَّيَّا الْمَلِكُ رَأَيْتُ السَّيِّدَ جَالِسًا عَلَى كُرْسِيِّ عَالٍ وَمَرْتَفِعٍ وَأَذْيَالُهُ تَمْلَأُ الْهَيْكَلَ. السَّرَافِيمُ وَأَقْفُونُ فَوْقَهُ لِكُلِّ وَاحِدٍ سِتَّةُ أَجْنَحَةٍ. بَاثْنَيْنِ يُعْطِي وَجْهَهُ وَبَاثْنَيْنِ يُعْطِي رِجْلَيْهِ وَبَاثْنَيْنِ يَطِيرُ. وَهَذَا نَادَى ذَلِكَ: قُدُّوسٌ قُدُّوسٌ قُدُّوسُ رَبُّ الْجُنُودِ. مَجْدُهُ مِلْءُ كُلِّ الْأَرْضِ [] أشعياى ٦ : ١ - ٣[]...

٢- الحية النحاسية:

وموسى النبى قد أقيم فى القديم لكى يحرّر شعبه من ظلم المصريين ولكن كان من الضرورى أولاً أن يتعلم الذين كانوا تحت نير العبودية أن الله تصالح معهم...

لذلك أمر الله موسى أن يُجرى معجزات، لأن المعجزة فى بعض الأوقات تساعدنا على الإيمان، لذلك يقول موسى لله ضابط الكل:

[] فَأَجَابَ مُوسَى: وَلَكِنْ هَا هُمْ لَا يُصَدِّقُونَنِي وَلَا يَسْمَعُونَ لِقَوْلِي بَلْ يَقُولُونَ لَمْ يَظْهَرْ لَكَ الرَّبُّ. فَقَالَ لَهُ الرَّبُّ: مَا هَذِهِ فِي يَدِكَ؟ فَقَالَ: عَصَا. فَقَالَ: اطْرَحْهَا إِلَى الْأَرْضِ. فَطَرَحَهَا إِلَى الْأَرْضِ فَصَارَتْ حَيَّةً فَهَرَبَ مُوسَى مِنْهَا. ثُمَّ قَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: مَدَّ يَدَكَ وَأَمْسِكْ بِذَنْبِهَا

(قَمَدَ يَدَهُ وَأَمْسَكَ بِهِ فَصَارَتْ عَصًا فِي يَدِهِ). لِكَيْ يُصَدِّقُوا أَنَّهُ قَدْ ظَهَرَ لَكَ الرَّبُّ إِلَهُ آبَائِهِمْ
إِلَهُ إِبْرَاهِيمَ وَإِلَهُ إِسْحَاقَ وَإِلَهُ يَعْقُوبَ] [خروج ٤ : ١ - ٥]...

لنتأمل هذا، أن الله بالطبيعة وبالحق هو عصا الآب لأن العصا هي علامة المملكة...
لأن الآب في الابن له سلطان على الكل، وفي هذا يقول داود:
[كُرْسِيِّكَ يَا اللَّهُ إِلَى دَهْرِ الدُّهُورِ. قُضِيبُ اسْتِقَامَةٍ قُضِيبُ مُلْكِكَ] [مزمور ٤٥ : ٦]...
ولكنه (أى الآب) طرحها أو جعلها على الأرض في طبيعة بشرية، عند ذلك اتخذت (العصا) شبه الناس الخطاة، وأصبح واضحاً أن العصا التي صارت حيّة ترمز إلى شرّ الطبيعة البشرية، لأن الحيّة علامة على الشر...

ولكى نتأكد من هذا التفسير أن صواب، نجد أن ربنا يسوع المسيح نفسه يقول عن رموز التدبير بالجسد أنه مثل الحيّة النحاسية التي رفعها موسى لكى تشفى من عضات الحيات، لأنه يقول:

[وَكَمَا رَفَعَ مُوسَى الْحَيَّةَ فِي الْبَرِّيَّةِ هَكَذَا يَنْبَغِي أَنْ يُرْفَعَ ابْنُ الْإِنْسَانِ لِكَيْ لَا يَهْلِكَ كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ بَلْ تَكُونُ لَهُ الْحَيَاةُ الْأَبَدِيَّةُ] [يوحنا ٣ : ١٤ ، ١٥]...

والحيّة التي صنعت من نحاس كانت سبب خلاص الذين كانوا في خطر، لأنهم عندما نظروا عليها خلصوا...

هكذا ربنا يسوع المسيح للذين ينظرونه وهو في شبه الناس الخطاة - لأنه صار إنساناً - ولكن لا يجهل أحد أنه الله الذى يقيم والذى يمنح الحياة والقوة للهرب من العضات الأليمة والسامة (إى القوات الشيطانية التى تحاربنا)...

٣ - عصا موسى ابتلعت عصى السحرة:

ويمضى القديس كيرلس فيقول:

هناك وجه رمزى آخر وهو (عصا) موسى ابتلعت (عصى) السحرة التى ألقبت على الأرض...

لأن (العصا) بعد أن طُرحت على الأرض وصارت حية لم تظل حية بل رجعت إلى ما كانت عليه...

كذلك (عصا) الآب (أى الابن) الذى فيه يسود الآب على الكل صار فى شبهنا - كما قلت من قبل - إلا أنه بعد أن أكمل التدبير عاد إلى السماء، فهو فى يد الآب قضيب البر والملك [قُضِيبُ اسْتِقَامَةٍ قُضِيبُ مُلْكِكَ] [مزمور ٤٥ : ٦]...

وهو يجلس عن يمين الآب فى مجده، وله عرش الآب وهو فى الجسد...

٤ - يد موسى البرصاء:

قال الرب لموسى :

[ثُمَّ قَالَ لَهُ الرَّبُّ أَيْضًا: أَدْخُلْ يَدَكَ فِي عُبَّكَ فَأَدْخُلْ يَدَهُ فِي عُبِّهِ ثُمَّ أَخْرِجَهَا وَإِذَا يَدُهُ بَرَصَاءُ
مِثْلَ التَّلْجِ. ثُمَّ قَالَ لَهُ: رُدَّ يَدَكَ إِلَى عُبَّكَ (فَرَدَّ يَدَهُ إِلَى عُبِّهِ ثُمَّ أَخْرِجَهَا مِنْ عُبِّهِ وَإِذَا هِيَ قَدْ
عَادَتْ مِثْلَ جَسَدِهِ) [خروج ٤ : ٦ ، ٧] ...

اليد - يد الله الأب - فى الأسفار الإلهية هى الابن لأن هذا النص يشير إليه:

[وَيَدِي أَسَّسَتْ الْأَرْضَ وَيَمِينِي نَشَرَتْ السَّمَاوَاتِ. أَنَا أَدْعُوهُمْ فَيَقِفُونَ مَعًا] [أشعيا ٤٨ :
١٣] ...

وداود الإلهى ينشد قائلاً:

[بِكَلِمَةِ الرَّبِّ صُنِعَتِ السَّمَاوَاتُ وَبَنَسَمَةِ فَمِهِ كُلُّ جُنُودِهَا] [مزمور ٣٣ : ٦] ...

وعندما كانت يد موسى مختبأة فى حضنه لم تكن برصاء، ولكن عندما أخرجت صارت
برصاء...

وبعد فترة أدخلها مرة أخرى ثم أخرجها ولم تعد برصاء بل قيل:

[وَإِذَا هِيَ قَدْ عَادَتْ مِثْلَ جَسَدِهِ] [خروج ٤ : ٧] ...

لذلك عندما كان الله الكلمة فى حضن الاب كان يشرق ببهاء الألوهة، ولكن عندما صار

كما لو كان خارجاً بسبب التجسد - أو لأنه صار إنساناً فى شبه جسد الخطية

[... فَالْتَهُ إِذْ أَرْسَلَ ابْنَهُ فِي شِبْهِ جَسَدِ الْخَطِيئَةِ وَلِأَجْلِ الْخَطِيئَةِ دَانَ الْخَطِيئَةَ فِي الْجَسَدِ] [

رومية ٨ : ٣] ... و

[لِذَلِكَ أَقْسِمُ لَهُ بَيْنَ الْأَعْزَاءِ وَمَعَ الْعُظَمَاءِ يَقْسِمُ غَنِيمَةً مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ سَكَبَ لِلْمَوْتِ نَفْسَهُ

وَأَحْصَى مَعَ أَنْمَةٍ وَهُوَ حَمَلَ خَطِيئَةَ كَثِيرِينَ وَشَفَعَ فِي الْمُذْنِبِينَ] [أشعيا ٥٣ : ١٢] ...

لأن الرسول بولس يقول:

[لِأَنَّهُ جَعَلَ الَّذِي لَمْ يَعْرِفْ خَطِيئَةً، خَطِيئَةً لِأَجْلِنَا، لِنَصِيرَ نَحْنُ بِرَّ اللَّهِ فِيهِ] [٢ كورونثوس

٥ : ٢١] ...

وهذا ما أعتقد أن البرص أشار إليه لأن الأبرص حسب الناموس كان نجساً...

ولكنه عندما عاد إلى حضن الأب ، لأنه صعد على هناك بعد قيامته من الأموات -

صار مثل يد موسى التى أدخلت فى حضنه وصارت طاهرة...

هكذا سوف يأتى سوف يأتى ربنا يسوع المسيح فى الوقت المحدد ببهاء مجد الألوهة رغم

أنه لم يخلع شبهها...

لأن بولس المبارك يقول أيضاً عن المسيح:

[هَكَذَا الْمَسِيحُ أَيْضًا، بَعْدَمَا قُدِّمَ مَرَّةً لِكَيِ يَحْمِلَ خَطَايَا كَثِيرِينَ، سَيَظْهَرُ ثَانِيَةً بِلاَ خَطِيئَةٍ لِلخَلَاصِ لِلَّذِينَ يَنْتَظِرُونَهُ] [عبرانيين ٩ : ٢٨] ...

لذلك عندما تدعو الأسفار الإلهية المسيح يسوع في مناسبات متعددة، لا يظن أحد أنه مجرد إنسان بلّ لنعتقد أنه يسوع المسيح كلمة الله الحقيقي الذي من الله الآب حتى وإن صار إنساناً...

١١ - المسيح ليس الله لبس جسداً، وليس كلمة الله الذي حلّ في إنسان، بل الله الذي تجسّد فعلاً حسب شهادة الكتب

الذين بلا دنس يؤمنون بالمسيح، ويتفقون معنا، يعلمون أن الكلمة هو من الله الآب... وأنه نزل إلى فقرنا وصار في صورة العبد...

والجسد الذي أخذه وولد من العذراء هو جسده...

بل أنه لم يولد فقط بل صار مثلنا ودعى ابن الإنسان...

فهو بالحقيقة الله حسب الروح ولكنه هو نفسه إنسان حسب الجسد...

من أجل هذا يوجّه الرسول بولس خطابه إلى اليهود قائلاً:

[اللهُ، بَعْدَ مَا كَلَّمَ الآبَاءَ بِالْأَنْبِيَاءِ قَدِيمًا، بِأَنْوَاعٍ وَطُرُقٍ كَثِيرَةٍ، كَلَّمَنَا فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ الْآخِرَةِ

فِي ابْنِهِ - الَّذِي جَعَلَهُ وَارِثًا لِكُلِّ شَيْءٍ، الَّذِي بِهِ أَيْضًا عَمِلَ الْعَالَمِينَ] [عبرانيين ١ : ١، ٢

...]

كيف تكلم الله الآب في الأيام الأخيرة في ابنه؟...

قديمًا تكلم في الناموس في الابن...

ولذلك قال الابن أن كلماته أُعْطِيَتْ قَدِيمًا لِمُوسَى الْحَكِيمِ:

[لَا تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لِأَنْقُضَ النَّامُوسَ أَوْ الْأَنْبِيَاءَ. مَا جِئْتُ لِأَنْقُضَ بَلْ لِأَكْمَلَ. فَإِنِّي الْحَقُّ

أَقُولُ لَكُمْ: إِلَى أَنْ تَزُولَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ لَا يَزُولُ حَرْفٌ وَاحِدٌ أَوْ نُقْطَةٌ وَاحِدَةٌ مِنَ النَّامُوسِ

حَتَّى يَكُونَ الْكُلُّ. السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ تَزُولَانِ وَلَكِنْ كَلَامِي لَا يَزُولُ.] [متى ٥ : ١٧، ١٨،

متى ٢٤ : ٣٥] ...

وكذلك يشهد النبي أشعيا:

[أَنَا الْمُتَكَلِّمُ أَنَا أَنَا] [أشعيا ٥٢ : ٦ السبعينية] ...

وعندما تجسّد تكلم الآب معنا فيه كما قال بولس : [فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ الْآخِرَةِ] ...

ولكى لا يعوق أى شئ إيماننا بأنه هو هو قبل الدهور الله الابن أضاف الرسول على

الفور: [الَّذِي بِهِ أَيْضًا عَمِلَ الْعَالَمِينَ] ...

ثم عاد وأكد: [الذي، وهو بهاء مجده، ورسم جوهره] [عبرانيين ١ : ٣] ...

بالحقيقة صار إنساناً ذاك الذى به الله خلق العالمين...

ولذلك لكى يكون اعتقادنا سليماً علينا أن نؤمن أنه صار إنساناً وليس كما يفترض

البعض أن الله سكن فيه...

ولو كان هذا صحيحاً - أى أن الله سكن فى إنسان - الا يصبح ما يقوله يوحنا الإنجيلى : [

الكلمة صار جسداً] [يوحنا ١ : ١٤] بلا فائدة؟...

لأن ماهى الحاجة إلى هذا التصريح؟...

وكيف يقال أن الله تجسد غلا إذا كان فعلاً قد صار جسداً أى صار مثلنا؟...

إن قوة التجسد تظهر فى أنه صار مثلنا لكنه ظلّ فوقنا بلّ فوق كلّ الخليقة...

وسوف أبرهن بأمثلة كثيرة على صدق ما ذكرته وهو ان الابن الوحيد صار إنساناً وهو

الله حتى وهو فى الجسد، ولم يسكن فى إنسان ثم جعل هذا الإنسان لابساً لللاهوت مثل

البشر الذين أنعم عليهم بشركة الطبيعة الإلهية...

١ - يقول الله عن البشر:

[ها أيّام تأتي يقول الربُّ وأقطع مع بيت إسرائيل ومع بيت يهوذا عهداً جديداً. ليس كالعهد

الذي قطعته مع آبائهم يوم أمسكتهم بيدهم لأخرجهم من أرض مصر حين نقضوا عهدي

فرفضتهم يقول الربُّ. بل هذا هو العهد الذي أقطعته مع بيت إسرائيل بعد تلك الأيام يقول

الربُّ: أجعل شريعتي في داخلهم وأكتبها على قلوبهم وأكون لهم إلهاً وهم يكونون لي شعباً

[أرميا ٣٣ : ٣١ - ٣٣] ... و

[إنني سأسكن فيهم وأسير بينهم، وأكون لهم إلهاً وهم يكونون لي شعباً] [٢ كورونثوس

٦ : ١٦] ...

ويقول الرب يسوع المسيح نفسه:

[إن أحببني أحد يحفظ كلامي ويحبّه أبي وإليه تأتي وعنده نصنع منزلاً.... ههنا واقف

على الباب وأفرغ. إن سمع أحد صوتي وفتح الباب، أدخل إليه وأتعتنى معه وهو معي] [

يوحنا ١٤ : ٢٣ و رؤيا ٣ : ٢٠] ...

وكذلك ايضاً دعينا هياكل الله:

[أنتم هيكل الله الحي] [٢ كورونثوس ٦ : ١٦] ...

ويقول ايضاً:

[أم لستم تعلمون أن جسداًكم هو هيكل للروح القدس الذي فيكم الذي لكم من الله وأنكم لستم

لأنفسكم؟] [١ كورونثوس ٦ : ١٩] ...

فإذا قالوا أنه دُعي عمانوئيل بمعنى أنه مثلنا نحن البشر قد سكن الله فيه...
فليعترفوا علانية أنهم عندما يشاهدوننا نحن والملائكة في السماء وعلى الأرض نعبد
يخجلون من هذه الفكرة...

ويخجلون بالحرى لأنهم يجهلون قصد الأسفار المقدسة...
كما أنه لا يوجد عندهم الإيمان الذي سلّمه إلينا الذين كانوا منذ البدء معانين وخذّامًا للكلمة
[لوقا ١: ٢]...

وإذا قالوا أنه الله وأنه يمجد كإله لأن كلمة الله الآب سكن فيه (أى فى يسوع المسيح) وأنه
يُمدّد على هذا النحو وليس على أساس أنه الله الذى صار جسداً فليسمعوا منا هذا:
" لا يكفى لمن يسكن الله فيه أن تجعله هذه السكنى إلهًا يُعبد، لأن الله يسكن فى الملائكة
وفينا نحن بالروح القدس ... ومع هذا، فالذين أخذوا الروح القدس لا يفهم هذا لكى
يصبحوا بالحقيقة آلهة { تُعدّ هذه الفقرة من أهم ما تركه الآباء لنا عن الفرق الأساسى بين
المسيح وبين المؤمنين، من حيث مشاركة الطبيعة الإلهية، ولم يكتب أحد قبل كيرلس
الاسكندرى بهذا الوضوح فى هذه النقطة }، لذلك ليس لهذا السبب بالذات قيل أن
عمانوئيل هو الله، ونحن لا نعبده لأن الكلمة حلّ فيه كما يحلّ فى إنسان، وإنما نعبده لأنه
الله الذى صار جسداً أى إنساناً وظل فى نفس الوقت الله الذى يُعبد "...

٢ - عندما يتحدث بولس الرسول عن المسيح يقول:

[الذي فى أجيالٍ آخر لم يُعرّف به بنو البشر، كما قد أُعلن الآن لرُسُلِهِ الْقُدِّيسِينَ وَأَنْبِيَائِهِ]
[أفسس ٣ : ٥] ... و

[السّرّ المَكْنُونُ مِنْذُ الدُّهُورِ وَمِنْذُ الْأَجْيَالِ، لَكِنَّهُ الْآنَ قَدْ أَظْهَرَ لِقُدِّيسِيهِ، الَّذِينَ ارَادَ اللهُ أَنْ
يُعَرِّفَهُمْ مَا هُوَ غِنَى مَجْدِ هَذَا السَّرِّ فِي الْأُمَمِ، الَّذِي هُوَ الْمَسِيحُ فِيكُمْ رَجَاءُ الْمَجْدِ. الَّذِي تُنَادِي
به مُنْذَرِينَ كُلَّ إِنْسَانٍ، وَمُعَلِّمِينَ كُلَّ إِنْسَانٍ، بِكُلِّ حِكْمَةٍ، لِكَيْ تُحْضِرَ كُلَّ إِنْسَانٍ كَامِلًا فِي
الْمَسِيحِ يَسُوعَ] [كولوسى ١ : ٢٦ - ٢٨] ...

فإذا كان المسيح إنساناً لبس اللاهوت وليس الله بالحقيقة...
فكيف يصبح هو نفسه " غنى مجد السر " الى يُبشر به الأمم؟...
أو كيف يمكن أن يُقال أن الرسول بشر بالله بالمرة؟...

٣ - [فإني أريد أن تعلموا أيّ جهادٍ لي لأجلكم، ولأجل الذين فى لاوْدِكِيَّة، وَجَمِيعَ الَّذِينَ لَمْ
يَرَوْا وَجْهِي فِي الْجَسَدِ، لِكَيْ تَنْعَزَى قُلُوبُهُمْ مُقْتَرَنَةً فِي الْمَحَبَّةِ لِكُلِّ غِنَى يَقِينِ الْفَهْمِ، لِمَعْرِفَةِ
سِرِّ اللهِ الْآبِ وَالْمَسِيحِ] [كولوسى ١ : ١، ٢] ...

وها هو يسمّى سرّ الله، سرّ المسيح ويتمنى لمن يكتب إليهم أن يكون عندهم " يقين الفهم " لمعرفته...

فما هي حاجة الذين يريدون أن يعرفوا سرّ المسيح إذا كان الله قد حلّ في إنسان؟...
لكنهم يحتاجون إلى " غنى يقين الفهم " لكي يعرفوا أن الله الكلمة تجسّد...

٤ - [لَأَنَّهُ مِنْ قَبْلِكُمْ قَدْ أُذِيعَتْ كَلِمَةُ الرَّبِّ، لَيْسَ فِي مَكْدُونِيَّةٍ وَأَخَائِيَّةٍ فَقَطْ، بَلْ فِي كُلِّ مَكَانٍ أَيْضًا قَدْ دَاعَ إِيْمَانُكُمْ بِاللهِ، حَتَّى لَيْسَ لَنَا حَاجَةٌ أَنْ نَتَكَلَّمَ شَيْئًا] [١ تسالونيكي ١ : ٨]...

وها هو الرسول يذكر أن إيمانهم هو إيمان الله، بينما يقول المسيح:

[الْحَقُّ الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ: مَنْ يُؤْمِنُ بِي فَلَهُ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ] [يوحنا ٦ : ٤٧]...

كما ان الكلمة التي يبشر بها الرسول هي كلمة الرب أى المسيح...

٥ - [فَإِنَّكُمْ تَذْكُرُونَ أَيُّهَا الإِخْوَةُ تَعَبْنَا وَكُنَّا، إِذْ كُنَّا نَكْرُرُ لَكُمْ بِإِنْجِيلِ اللهِ، وَنَحْنُ عَامِلُونَ لَيْلًا وَنَهَارًا كَيْ لَا نُثْقَلَ عَلَى أَحَدٍ مِنْكُمْ. أَنْتُمْ شُهُودٌ، وَاللهُ، كَيْفَ بَطْهَارَةٍ وَبِرٍّ وَبَلَا لَوْمٍ كُنَّا بَيْنَكُمْ أَنْتُمْ الْمُؤْمِنِينَ. كَمَا تَعْلَمُونَ كَيْفَ كُنَّا نَعْظُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ كَالْأَبِ لِأَوْلَادِهِ، وَنُسَجِّعُكُمْ، وَنُشْهِدُكُمْ لِكَيْ تَسْلُكُوا كَمَا يَحِقُّ لِلَّهِ الَّذِي دَعَاكُمْ إِلَى مَلَكُوتِهِ وَمَجْدِهِ. مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ نَحْنُ أَيْضًا نَشْكُرُ اللهَ بِلَا انْقِطَاعٍ، لِأَنَّكُمْ إِذْ تَسَلِّمُتُمْ مَعًا كَلِمَةَ خَبَرٍ مِنَ اللهِ، قَبِلْتُمُوهَا لَا ككَلِمَةِ أَنْاسٍ، بَلْ كَمَا هِيَ بِالْحَقِيقَةِ ككَلِمَةِ اللهِ، الَّتِي تَعْمَلُ أَيْضًا فِيكُمْ أَنْتُمْ الْمُؤْمِنِينَ.] [١ تسالونيكي ٢ : ٩ - ١٣]...

ألا يقول الرسول صراحة أن كلمة المسيح هي إنجيل الله وأنها كلمة الله أيضًا؟...

٦ - [أَنَّهُ قَدْ ظَهَرَتْ نِعْمَةُ اللهِ الْمُخَلَّصَةِ لِجَمِيعِ النَّاسِ، مُعَلِّمَةً إِيَّانَا أَنْ نُنْكِرَ الْفُجُورَ وَالشَّهَوَاتِ الْعَالَمِيَّةَ، وَنَعِيشَ بِالتَّعْقَلِ وَالْبِرِّ وَالتَّقْوَى فِي الْعَالَمِ الْحَاضِرِ، مُنْتَظِرِينَ الرَّجَاءَ الْمُبَارَكَ وَظُهُورَ مَجْدِ اللهِ الْعَظِيمِ وَمُخْلِصِينَ يَسُوعَ الْمَسِيحَ] [تيطس ٢ : ١١ - ١٣]...

هنا جهرًا يوصف الرب يسوع بأنه " الله العظيم "...

ذلك الذى ننتظر مجيئه المجيد فنصلى بحرارة ونعيش بالتقوى وبدون عيب...

ولو كان المسيح إنسانًا لبس اللاهوت فكيف يُسمّى " الله العظيم "؟...

وكيف يكون رجاؤنا فيه مباركًا؟...

والنبي أرميا يقول:

[مَلْعُونُ الرَّجُلُ الَّذِي يَتَكَلَّمُ عَلَى الْإِنْسَانِ وَيَجْعَلُ الْبَشَرَ ذِرَاعَهُ وَعَنِ الرَّبِّ يَحِيدُ قَلْبُهُ] [

إرميا ١٧ : ٥]...

ولو كان المسيح قد لبس اللاهوت فهذا لا يجعله إلهًا...

وقياسًا على ذلك لو دعونا كل من حلّ فيهم الله آلهة، فماذا يمنعنا من عبادتهم؟...

لكن الرسول بولس يسمي المسيح: الله العظيم، وأن مجيئه مبارك، بولس أيضاً قال لليهود عن عمانوئيل:

[الَّذِينَ هُمْ إِسْرَائِيلِيُّونَ وَلَهُمُ التَّبَيُّ وَالْمَجْدُ وَالْعُهُودُ وَالْاِشْتِرَاغُ وَالْعِبَادَةُ وَالْمَوَاعِيدُ . وَلَهُمُ الْآبَاءُ وَمِنْهُمْ الْمَسِيحُ حَسَبَ الْجَسَدِ الْكَائِنُ عَلَى الْكُلِّ إِلَهًا مُبَارَكًا إِلَى الْأَبَدِ . آمِينَ .] [رومية ٩ : ٤ ، ٥] ...

ولقد كرّر بولس بإعلان إلهي ... وهذا واضح إذ يقول هو نفسه:

[مَنْ بَعْدَ أَرْبَعِ عَشْرَةِ سَنَةٍ صَعِدْتُ أَيْضًا إِلَى أُورُشَلِيمَ مَعَ بَرْنَابَا، آخِذًا مَعِيَ تَيْطُسَ أَيْضًا . وَإِنَّمَا صَعِدْتُ بِمُوجِبِ إِعْلَانٍ، وَعَرَضْتُ عَلَيْهِمُ الْإِنْجِيلَ الَّذِي أَكْرَزُ بِهِ بَيْنَ الْأُمَمِ، وَلَكِنْ بِالْإِنْفِرَادِ عَلَى الْمُعْتَبِرِينَ، لِئَلَّا أَكُونَ أَسْعَى أَوْ قَدْ سَعَيْتُ بَاطِلًا .] [غلاطية ٢ : ١ ، ٢] ...

ونحن نعلم أن بولس بشر بالمسيح للأمم كإله، وفي كل مكان كان يتحدث عن سر المسيح مسميًا إياه بالسرّ العظيم الإلهي واستمر في كرازته بعد أن عرضها على المعتبرين من القديسين عندما صعد إلى أورشليم بموجب الوحي الإلهي، فكانت توافق التعليم الرسولي...

رابعًا: دور العذراء مريم في التجسد

قلنا أن الله صمّم في محبته أن ينحدر على الإنسان ليخلصه...

إلا أنه - وهو يحترم حرية الإنسان - كان منتظرًا أن يريد الإنسان خلاصه، ان يشاء إقتبال الإله المنحدر إليه...

ولذا فقد هيأ الله الإنسانية تدريجيًا إلى إقتبال الخلاص...

وقد أدّت هذه التهيئة إلى العذراء مريم...

فمريم هي زهرة العهد القديم وثمره عناية الله بشعبه وتربيته له على مرّ الأجيال...

ففي مريم بلغت قداسة العهد القديم ذروتها في الإيمان والتواضع والطاعة لله...

لذلك في شخص مريم استطاعت البشرية أن تقول " نعم " لله وأن تتقبله مخلصًا لها،

هذا ما تمّ عندما أجابت مريم الملاك:

[هُوَذَا أَنَا أَمَةٌ الرَّبِّ . لِيَكُنْ لِي كَقَوْلِكَ] [لوقا ١ : ٣٨] ...

عندئذ، تمّ تجسّد ابن الله لأن البشرية " سمحت " له بشخص مريم أن يأتي إليها

ويخلصها...

لذلك كتب اللاهوتى " نقولا كباسيلاس " : { إن التجسد لم يكن فعل الآب وقدرته وروحه فحسب، ولكنه أيضاً فعل إرادة العذراء وإيمانها. فبدون قبول الكلية النقاوة، وبدون مساهمة إيمانها، كان تحقيق هذا المقصد متعذراً... }...

هكذا كانت مريم ذلك :

[ثُمَّ أَرْجَعَنِي إِلَى طَرِيقِ بَابِ الْمَقْدِسِ الْخَارِجِيِّ الْمُتَّجِهَةِ لِلْمَشْرِقِ وَهُوَ مُغْلَقٌ. فَقَالَ لِي الرَّبُّ: هَذَا الْبَابُ يَكُونُ مُغْلَقًا، لَا يُفْتَحُ وَلَا يَدْخُلُ مِنْهُ إِنْسَانٌ، لِأَنَّ الرَّبَّ إِلَهَ إِسْرَائِيلَ دَخَلَ مِنْهُ فَيَكُونُ مُغْلَقًا] [حزقيال ٤٤ : ١، ٢]...

ففى مريم تمّ أولاً الاتحاد بين الله والإنسان...

إذ أن ابن الله اتحد ذاته بجسد إتخذه من جسد مريم...

لذلك تدعو الكنيسة العذراء " والدة الإله " لأنها ولدت الإله المتجسد...

وبذلك تُردّد ما قالته أليصابات بوحي الروح القدس عندما زارتها نسيبتها العذراء مريم
إذ:

[فَلَمَّا سَمِعَتْ أَلِيصَابَاتُ سَلَامَ مَرْيَمَ ارْتَكُضَ الْجَنِينُ فِي بَطْنِهَا وَامْتَلَأَتْ أَلِيصَابَاتُ مِنَ
الرُّوحِ الْقُدُسِ وَصَرَخَتْ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ وَقَالَتْ: مُبَارَكَةٌ أَنْتِ فِي النِّسَاءِ وَمُبَارَكَةٌ هِيَ ثَمَرَةُ
بَطْنِكَ! فَمِنْ أَيْنَ لِي هَذَا أَنْ تَأْتِيَ أُمُّ رَبِّي إِلَيَّ؟] [لوقا ١ : ٤١ - ٤٣]...

وتعتقد الكنيسة أن منزلة العذراء تفوق الملائكة إذ قد أهلت أن تحمل فى ذاتها ابن الله
المتجسد فتصير هكذا هيكلًا حيًا للإله الذى: { لا تجسر طغيات الملائكة أن تنظر إليه
لذلك تخاطبها الكنيسة منشدة: { يامن هى أكرم من الشاروبيم وأرفع مجداً بغير قياس
من السارافيم }...

وأيضاً: { لأنه صنع مستودعك عرشاً وجعل بطنك أرحب من السماوات }...

وهكذا فتكريم الكنيسة الأرثوذكسية للعذراء مريم يعود خاصة للدور الذى لعبته فى
التجسد...

لذا، فالاسم الذى تطلقه عليها باستمرار هو اسم " والدة الإله "...

ولذلك، أيضاً عندما تمدحها تمدح بنوع خاص ذلك الدور الذى شاء الله أن يسنده إليها فى
مقاصده...

وللسبب عينه لا تمثل الأيقونات الأرثوذكسية أبداً العذراء وحدها، بلّ تمثلها دوماً
حاملة ابنها وإلهها...

فمجد والدة الإله مستمد من ذاك الذى شاء أن يُولد منها...

والعذراء نفسها فى حياتها الأرضية لم تشأ أن تُبرز شخصيتها بل كانت دائماً متخفية وراء ابنها والتعليم الوحيد الذى نقله إلينا الإنجيل عن لسان العذراء إنما هو وصيتها للبشر بأن يطيعوا ابنها:

[قَالَتْ أُمُّهُ لِلْخَدَّامِ: مَهْمَا قَالَ لَكُمْ فَافْعَلُوهُ] [يوحنا ٢: ٥]...

وتعتقد الكنيسة أن العذراء بما انها صارت أمّاً للإله المتجسّد، فقد أصبحت أيضاً أمّاً لكلّ الذين صار ذاك الإله أخاً لهم بالتجسّد:

[لِأَنَّ الْمُقَدَّسَ وَالْمُقَدَّسِينَ جَمِيعَهُمْ مِنْ وَاحِدٍ، فَلِهَذَا السَّبَبِ لَا يَسْتَحِي أَنْ يَدْعُوهُمْ إِخْوَةً....
فَإِذْ قَدْ تَشَارَكَ الْأَوْلَادُ فِي اللَّحْمِ وَالدَّمِ اشْتَرَكَ هُوَ أَيْضاً كَذَلِكَ فِيهِمَا] [عبرانيين ٢: ١١،
١٤]...

وبنوع خاص امّاً للذين أصبحوا بإيمانهم تلامذة أحبباء له...

فعندما كان يسوع على الصليب خاطب مريم قائلاً عن التلميذ الحبيب:

[فَلَمَّا رَأَى يَسُوعُ أُمَّهُ وَالتِّلْمِيزَ الَّذِي كَانَ يُحِبُّهُ وَاقِفًا قَالَ لِأُمِّهِ: { يَا امْرَأَةُ هُوَذَا ابْنُكَ } . ثُمَّ
قَالَ لِلتِّلْمِيزِ: { هُوَذَا أُمُّكَ } . وَمِنْ تِلْكَ السَّاعَةِ أَخَذَهَا التِّلْمِيزُ إِلَى خَاصَّتِهِ] [يوحنا ١٩: ٢٦،
٢٧]...

فهذه العبارات يصح إطلاقها على كل تلميذ حبيب ليسوع أى كل مؤمن به...

فى عرس قانا الجليل تحسست مريم لحاجة أهل البيت وضمت شعورها بهذه الحاجة إلى شعور ابنها قائلة له:

[وَلَمَّا فَرَعَتِ الْخَمْرُ قَالَتْ أُمُّ يَسُوعَ لَهُ: { لَيْسَ لَهُمْ خَمْرٌ } . قَالَ لَهَا يَسُوعُ: { مَالِي وَلكِ يَا
امْرَأَةُ! لَمْ تَأْتِ سَاعَتِي بَعْدُ }] [يوحنا ٢: ٣، ٤]...

هكذا تتحسس مريم لحاجتنا وشفاعها هى أن تضم حنوها علينا إلى حنو ابنها...

وهذه الشفاعة قوية كما يظهر من حادثة عرس قانا الجليل...

وكما تشهد الكنيسة: { ليس أحد يسارع محاضراً إليك ويمضى خازياً من قبلك أيتها
البتول النقية أم الإله }...

ولكن النعمة التى تطلبها لنا العذراء بنوع خاص هى أن يتصوّر ابنها فينا حتى نحمله
نحن فى كياناتنا كما حملته هى ونتحد به كما اتحدت به هى...

الفصل السادس

الفداء

"..وَصَلِبَ عَنَّا عَلَى عَهْدِ بِيلاطُسِ النُّبْطِيِّ وَتَأَلَّمَ وَفُيِّرَ وَقَامَ مِنْ بَيْنِ الْأَمْوَاتِ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ كَمَا هُوَ فِي الْكُتُبِ. وَصَعِدَ إِلَى السَّمَوَاتِ وَجَلَسَ عَنْ يَمِينِ الْآبِ. وَأَيْضًا يَأْتِي فِي مَجْدِهِ لِيُدِينَ الْأَحْيَاءَ وَالْأَمْوَاتِ. الَّذِي لَيْسَ لِمُلْكِهِ إِنْقِضَاءٌ..."

١- الصلب

إن الفداء إمتداد وتكملة لعمل التجسد...

هذا الفداء الذى بلغ بالصليب قمته يمكن أن يُنظر إليه من ثلاث جهات نظر:

*بالصليب حطم المسيح حواجز أنانيتنا :

بالتجسد أصبح الله حاضراً فى الإنسان ليجدّه ويشفيه ويشركه فى حياته الإلهية...

ولكن بقى أن يُزال الحاجز الذى أقامته الخطيئة فى صميم الإنسان بينه وبين خالقه...

هذا الحاجز هو كما رأينا إنغلاق الإنسان وإنطوائه على نفسه دون الله، هو عبادة الأنا

التي حكمت على الإنسان بعزلة مميتة...

كان ينبغي، إذًا، تحطيم هذا الحاجز لتتدفق فى الإنسان حياة الله، لأن الإنسان الممتلئ من

ذاته لم يعد لله مكان فيه...

لذلك عندما اتخذ ابن الله طبيعة الإنسان، داوى أنانيته بالانفتاح الكامل والعطاء الكامل

للذين حققهما فى إنسانيته...

فإنه طيلة حياته على الأرض، لم يرد أن يتمتع بالمجد الإلهي الذى كان كامناً فيه...

فإنه : [أَخْلَى نَفْسَهُ، أَخِذًا صُورَةَ عَبْدٍ، صَائِرًا فِي شِبْهِ النَّاسِ] [فيلبي ٢ : ٧]...

أخلى ذاته من التمتع بالمجد الإلهي وقبل طوعاً بوضع العبد...

فضلّ العطاء على التمتع، ومع أن كل شئ كان فى متناول يده، أراد أن يبذل لا أن يأخذ:

[كَمَا أَنَّ ابْنَ الْإِنْسَانِ لَمْ يَأْتِ لِيُخْدَمَ بَلْ لِيُخْدَمَ وَلِيَبْذِلَ نَفْسَهُ فِدْيَةً عَنْ كَثِيرِينَ] [متى ٢٠ :

٢٨]...

إنه : [الْمَسِيحُ أَيْضًا لَمْ يُرْضْ نَفْسَهُ بَلْ كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ: تَعْيِيرَاتُ مُعِيرِكَ وَقَعْتَ عَلَيَّ] [

رومية ١٥ : ٣]...

ولكن حياته كلها كانت قرباناً لله الآب وللنفس الذين صار أحمًا لهم...

فقد وُلد فقيرًا في مذود البهائم وتشرّد عند إضطهاد هيرودس له، وعاش معظم حياته عاملاً مجهولاً:

[أَلَيْسَ هَذَا هُوَ الْجَّارَ ابْنُ مَرْيَمَ] [مرقس ٦ : ٣] ...

وطاف يبشّر فيما [لِلْعَالِبِ أَوْجَرَةٌ وَلِطُيُورِ السَّمَاءِ أَوْكَارٌ وَأَمَّا ابْنُ الْإِنْسَانِ فَلَيْسَ لَهُ أَيْنَ يُسْنِدُ رَأْسَهُ] [متى ٨ : ٢٠] ...

ورفض أن يصنع آية في السماء ليبهر بها البشر [وَجَاءَ إِلَيْهِ الْفَرِيسِيُّونَ وَالصَّدُوقِيُّونَ لِيَجْرِبُوهُ فَسَأَلُوهُ أَنْ يُرِيَهُمْ آيَةً مِنَ السَّمَاءِ.... حِيلٌ شَرِيرٌ فَاسِقٌ يَلْتَمِسُ آيَةً وَلَا تُعْطَى لَهُ آيَةٌ إِلَّا آيَةُ يُونَانَ النَّبِيِّ] [متى ١٦ : ١، ٤] ...

ولكنه كان يصنع العجائب رافة بالمعذبين و [أَحْضَرُوا إِلَيْهِ جَمِيعَ السُّقَمَاءِ الْمُصَابِينَ بِأَمْرَاضٍ وَأَوْجَاعٍ مُخْتَلِفَةٍ وَالْمَجَانِينِ وَالْمَصْرُوعِينَ وَالْمَقْلُوجِينَ فَشَفَاهُمْ] [متى ٤ : ٢٣] ...

وقد احتمل عدم إيمان الكثيرين، حتى أقاربه الذين كانوا ينعتونه بالجنون وتلاميذه الذين لم يفهموا رسالته حق الفهم والذين تركوه كلهم وفرّوا حين تسليمه، وباعه أحدهم وأنكره آخر...

وصبر على كل إهانات وشتائم وإضطهادات أعدائه الذين كانوا ينعتونه [فَقَالَ الْيَهُودُ : أَلَسْنَا نَقُولُ حَسَنًا إِنَّكَ سَامِرِيٌّ وَبِكَ شَيْطَانٌ؟] [يوحنا ٨ : ٤٨] ...

ولم يرد أن ينتقم منهم بل إنتهر يعقوب ويوحنا عندما طلبا إنزال نار من السماء لإحراق قرية رفضت أن تستقبله:

[وَحِينَ ثَمَّتِ الْأَيَّامُ لَارْتِفَاعِهِ ثَبَّتَ وَجْهَهُ لِيَنْطَلِقَ إِلَى أُورُشَلِيمَ. وَأَرْسَلَ أَمَامَ وَجْهِهِ رُسُلًا فَذَهَبُوا وَدَخَلُوا قَرْيَةً لِلْسَامِرِيِّينَ حَتَّى يُعِدُّوا لَهُ. فَلَمْ يَقْبَلُوهُ لِأَنَّ وَجْهَهُ كَانَ مُتَّجِهاً نَحْوَ أُورُشَلِيمَ. فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ تَلْمِيذَاهُ يَعْقُوبُ وَيُوحَنَّا قَالَا : { يَا رَبُّ أَتُرِيدُ أَنْ نَقُولَ أَنْ تَنْزِلَ نَارٌ مِنَ السَّمَاءِ فَتُقْنِيَهُمْ كَمَا فَعَلَ إِيلِيَّا أَيْضًا؟ } فَالْتَقَتَا وَانْتَهَرَهُمَا وَقَالَ : { لَسْتُمَا تَعْلَمَانِ مِنْ أَيِّ رُوحٍ أَنْتُمَا ! لِأَنَّ ابْنَ الْإِنْسَانِ لَمْ يَأْتِ لِيُهْلِكَ أَنْفُسَ النَّاسِ بَلْ لِيُخَلِّصَ } . فَمَضَوْا إِلَى قَرْيَةٍ أُخْرَى] [لوقا ٩ : ٥١ - ٥٩] ...

وزجر بطرس عندما أراد أن يدافع عنه بالسيف:

[رُدُّ سَيْفِكَ إِلَى مَكَانِهِ. لِأَنَّ كُلَّ الَّذِينَ يَأْخُذُونَ السَّيْفَ بِالسَّيْفِ يَهْلِكُونَ] [متى ٢٦ : ٥٢] ...

وصلى من أجل قاتليه:

[يَا أَبَتَاهُ اغْفِرْ لَهُمْ لِأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ مَاذَا يَفْعَلُونَ] [لوقا ٢٣ : ٣٤] ...

وأراد، وهو المعلم والسيد، أن يكون وسط تلاميذه كالخادم:

[لَأَنْ مَنْ هُوَ أَكْبَرُ؟ الَّذِي يَتَكَبَّرُ أَمْ الَّذِي يَخْدُمُ؟ أَلَيْسَ الَّذِي يَتَكَبَّرُ؟ وَلَكِنِّي أَنَا بَيْنَكُمُ كَالَّذِي يَخْدُمُ] [لوقا ٢٢ : ٢٧] ...

وأن يغسل أرجلهم:

[قَامَ عَنِ الْعِشَاءِ وَخَلَعَ ثِيَابَهُ وَأَخَذَ مِثْشَفَةً وَأَنْزَرَ بِهَا ثُمَّ صَبَّ مَاءً فِي مِغْسَلٍ وَابْتَدَأَ يَغْسِلُ أَرْجُلَ التَّلَامِيذِ وَيَمْسَحُهَا بِالْمِثْشَفَةِ الَّتِي كَانَ مُتَّزِرًا بِهَا] [يوحنا ١٣ : ٤ ، ٥] ...

هذا العطاء الذى به أراد المسيح أن يستأصل أنانيتنا، بلغ ذروته فى الصليب...
كان فى وسع المسيح أن لا يموت بالنظر لللاهوت الكامن فيه...

ولكنه ذهب فى تخليه عن " الأنا " إلى أقصى الحدود، باذلاً ذاته للموت...

وهكذا قدّم حياته على الصليب قربان محبة للأب، وتعبيراً عن تخليه التام عن مشيئته الذاتية، كما قال بنفسه فى بستان جسيماني:

[يَا أَبَتَاهُ إِنْ أُمَكُنَ فَلْتَعْبُرْ عَنِّي هَذِهِ الْكَأْسُ وَلَكِنْ لَيْسَ كَمَا أُرِيدُ أَنَا بَلْ كَمَا تُرِيدُ أَنْتَ.... يَا أَبَتَاهُ إِنْ لَمْ يُمَكُنْ أَنْ تَعْبُرَ عَنِّي هَذِهِ الْكَأْسُ إِلَّا أَنْ أَشْرَبَهَا فَلْتَكُنْ مَشِيئَتُكَ] [متى ٢٦ : ٣٩ ، ٤٢] ...

وكما ورد فى الرسالة للعبرانيين:

[ذُبِيحَةٌ وَفَرَبَانًا لَمْ تُرَدَّ، وَلَكِنْ هَيَّاتَ لِي جَسَدًا. بِمُحَرَفَاتٍ وَدَبَائِحَ لِلْخَطِيئَةِ لَمْ تُسَرَّ. ثُمَّ قُلْتُ: هَنَذَا أَجِيءُ. فِي دَرَجِ الْكِتَابِ مَكْتُوبٌ عَنِّي، لِأَفْعَلَ مَشِيئَتَكَ يَا اللَّهُ] [عبرانيين ١٠ : ٥ - ٧] ...

هكذا تمرّد آدم، وأطاع المسيح...

تكبّر آدم، فتواضع المسيح...

اكتفى آدم بذاته، فتخلّى المسيح عن ذاته:

[وَضَعَ نَفْسَهُ وَأَطَاعَ حَتَّى الْمَوْتِ مَوْتَ الصَّلِيبِ] [فيلبي ٢ : ٨] ...

وهكذا بموته على الصليب، أعطى البشرية الدواء الشافى لداء الأنانية الذى فصلها عن الله...

*** بالصليب أخذ المسيح على ذاته خطيئتنا :**

ومن وجهة نظر أخرى، نرى أن الرب يسوع المسيح، لكى ينقذنا من الخطيئة التى أصبحنا ننن تحت وطأتها، شاء أن يأخذها على نفسه، لا أن يأخذها هى بلّ أن يحتمل فى ذاته نتائجها المريعة حباً بنا...

إن المحب يود لو أنه يستطيع أن يأخذ على نفسه مرض المحبوب ليخلصه من وطأته...

ولكن ما لا يستطيع أن يفعل الحب البشرى، استطاع أن الرب يسوع المسيح أن يتممه إذ أنه، لأجل محبته لنا، أخذ على نفسه مرضنا لينقذنا منه:

[لكنْ أَحْزَانُنَا حَمَلَهَا وَأَوْجَاعُنَا تَحَمَّلَهَا • وَنَحْنُ حَسْبُنَا مُصَابَا مَضْرُوبًا مِنَ اللَّهِ وَمَذْلُولًا] [أشعيا ٥٣: ٤] ... و

[لَكِي يَتِمَّ مَا قِيلَ بِأَشْعِيَاءَ النَّبِيِّ: هُوَ أَخَذَ أَسْقَامَنَا وَحَمَلَ أَمْرَاضَنَا] [متى ٨: ١٧] ...
فإنه وهو البرى من كل خطيئة، أخذ على نفسه كل الشقاء الذى جرّته الخطيئة على الجنس البشرى:

[نَبَتْ قُدَّامَهُ كَفْرٌ وَكَعْرٌ مِنْ أَرْضٍ يَابِسَةٍ لَا صُورَةَ لَهُ وَلَا جَمَالَ فَنَنْظُرَ إِلَيْهِ وَلَا مَنْظَرَ فَنَسْتَهْيِهِ... وَهُوَ مَجْرُوحٌ لِأَجْلِ مَعَاصِينَا مَسْحُوقٌ لِأَجْلِ آثَامِنَا • تَأْدِيبُ سَلَامِنَا عَلَيْهِ وَحُبْرُهُ شَفِينًا] [أشعيا ٥٣: ٢، ٥] ...

وكانه متروك من الله نفسه:

[إِلَهِي إِلَهِي لِمَاذَا تَرَكْتَنِي؟] [متى ٢٧: ٤٦] ...

حاصلاً فى ظلمة وحزن مميتين:

[نَفْسِي حَزِينَةٌ جِدًّا حَتَّى الْمَوْتِ] [متى ٢٦: ٣٨] ...

هكذا تجسّمت فى المسيح - وهو لم يعرف خطيئة - كل مأساة خطيئة البشر:

[كُلُّنَا كَغَنَمٍ ضَلَلْنَا. مِلْنَا كُلُّ وَاحِدٍ إِلَى طَرِيقِهِ وَالرَّبُّ وَضَعَ عَلَيْهِ إِثْمَ جَمِيعِنَا] [أشعيا ٥٣: ٦] ...

وكانه صار هو خطيئة على حد تعبير الرسول بولس:

[لِأَنَّهُ جَعَلَ الَّذِي لَمْ يَعْرِفْ خَطِيئَةً، خَطِيئَةً لِأَجْلِنَا] [٢ كورونثوس ٥: ٢١] ...

وهكذا فإن يسوع المسيح على الصليب ظهر لله الآب مجسماً فى جسده الجريح، الممزق، المختنق، وفى نفسه المنسحق، بشاعة كل خطيئة البشر التى أخذها على نفسه فصار شفيعاً للخطاة أجمعين عندما وحد ذاته معهم:

[لِذَلِكَ أَقْسِمُ لَهُ بَيْنَ الْأَعْزَاءِ وَمَعَ الْعُظَمَاءِ يَقْسِمُ غَنِيمَةً مِنْ أَجْلِ أَنَّهُ سَكَبَ لِلْمَوْتِ نَفْسَهُ وَأَحْصَى مَعَ أَثْمَةٍ وَهُوَ حَمَلَ خَطِيئَةَ كَثِيرِينَ وَشَفَعَ فِي الْمُدْنِبِينَ] [أشعيا ٥٣: ١٢] ...
ذلك أن الآب لم يعد ينظر إلى الخطاة إلا من خلال هذه الصورة، صورة ابنه الوحيد الحبيب المصلوب الذى جعل نفسه كواحد منهم.

وبهذا المعنى يتابع الرسول بولس:

[لِأَنَّهُ جَعَلَ الَّذِي لَمْ يَعْرِفْ خَطِيئَةً، خَطِيئَةً لِأَجْلِنَا، لِنَصِيرَ نَحْنُ بِرَّ اللَّهِ فِيهِ] [٢ كورونثوس ٥: ٢١] ...

أى أن الله تصالح مع البشر الخطاة و غفر خطاياهم وبرّرهم وضمهم إليه من خلال شخص الابن الوحيد الحبيب الذى وحد ذاته معهم...

هكذا كان الحمل الذى كان يُذبح فى الهيكل صباحًا ومساءً تكفيرًا عن خطايا الشعب رمزًا وإشارة إلى المسيح الذى قال عنه يوحنا المعمدان:

[هُودَا حَمَلُ اللَّهِ الَّذِي يَرْفَعُ خَطِيئَةَ الْعَالَمِ] [يوحنا ١ : ٢٩]...

*** بالصليب انتصر المسيح على الألم والموت بدخوله فيهما :**

وهناك أخيرًا، معنى ثالث بالغ الأهمية يتجلى فى الصليب...

لقد دخل البشر بالخطيئة فى مملكة الموت (وبلغت الكتاب والآباء تُدعى " الجحيم")...

وساد عليهم الحزن والألم والضعف والفناء...

لقد أصبحوا كمن أغلق عليهم فى سجن مظلم رهيب...

لقد كان بإمكان الله أن يحرّرهم من الخارج، بكلمة منه فقط، بإرادته الفائقة...

ولكن محبته دفعته أن يشارك البشر أولاً مصيرهم لكى يوحد ذاته معهم...

المحبة تدفع المحب إلى مشاركة المحبوب فى آلامه...

هكذا محبة الله للإنسان، كما نعتها كاباسيلاس، لم تدفعه إلى اجتياز الهوة الفاصلة بين الخالق والمخلوق وحسب - وهذا هو التجسد - بل إلى مشاركته أيضًا فى جحيم بؤسه...

فالإله بتجسده:

[فَإِذْ قَدْ تَنَاسَرَكَ الْأَوْلَادُ فِي اللَّحْمِ وَالدَّمِ اشْتَرَاكَ هُوَ أَيْضًا كَذَلِكَ فِيهِمَا ...] [عبرانيين ٢ :

١٤]...

شاء أن يصير شبيهًا فى كلّ شئ بالبشر الذين اتخذهم إخوة له:

[مِنْ تَمَّ كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يُشَبَّهَ إِخْوَتَهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ، لَكِي يَكُونَ رَحِيمًا، وَرَبِّيسَ كَهَنَةٍ أَمِينًا فِي مَا لِلَّهِ حَتَّى يُكْفَرَ خَطَايَا الشَّعْبِ] [عبرانيين ٢ : ١٧]...

أن يشاركهم أيضًا بكلّ ما تعرّض له هذا اللحم والدم، من جرّاء الخطيئة، من حزن وضيق وآلام وموت...

هكذا اكتمل التجسد ودخل ابن الله إلى صميم الطبيعة الإنسانية، مختبرًا إيّاها بكلّ شقائها، حتى يشعر الإنسان فى حزنه وبؤسه، فى آلامه الجسدية والمعنوية، فى نزاعه وموته، إنه محبوب، وأن الله نفسه شاركه فى ذلك كلّهُ...

لقد جعل الله نفسه طريح الألم لكى لا يشعر الإنسان أنه يعانیه وحده بلّ برفقة الإله المتجسد الذى عاش آلام الإنسان فى نفسه وجسده، بمعونة ذاك الذى كتبت عنه:

[لَأَنَّهُ فِي مَا هُوَ قَدْ تَأَلَّمَ مُجْرَبًا يَقْدِرُ أَنْ يُعِينَ الْمُجْرَبِينَ] [عبرانيين ٢ : ١٨] ...

هكذا دخل يسوع المسيح، حباً بالإنسان، مملكة الموت التى كان غريباً عنها إطلاقاً، ليس فقط من حيث إلهيته التى هى ينبوع الحياة، بل من حيث إنسانيته أيضاً...
فإنسانية يسوع المسيح لم تعرف الخطيئة البتة ولذلك فقد كانت بالكلية غريبة عن مملكة الموت، ذلك الموت الذى إنجرف إليه الإنسان بالخطيئة...

مملكة الموت هى مملكة الشيطان الذى قتل الناس بالخطيئة، ولم يكن للشيطان شئ فى إنسانية يسوع المسيح البريئة من كل عيب، ولذا قال يسوع لتلاميذه قبل تسليمه بقليل:
[لَأَنَّ رَئِيسَ هَذَا الْعَالَمِ (أى الشيطان الذى تسلط على العالم بالخطيئة) يَأْتِي (أى أن يسوع سوف يدخل بالموت إلى مملكته) وَلَيْسَ لَهُ فِي شَيْءٍ] [يوحنا ١٤ : ٣٠] ...
فى تلك المملكة التى كان غريباً عنها بالكلية، مملكة الموت والشيطان الذى له [سُلْطَانُ الْمَوْتِ] [عبرانيين ٢ : ١٤] ...

دخل يسوع حباً بالإنسان سجين ذلك العالم الرهيب...
ولكن مملكة الموت لم يكن بوسعها أن تضبط سيد الحياة والقُدّوس البرئ من الخطأ...
لذا كان دخول يسوع فيها مقدمة لتخطيمها وتحرير الإنسان منها...
هكذا لما شاركنا الرب فى الآلام والموت أعتقنا من الموت والآلام...
ولما أسلم ذاته لذلك العالم الرهيب الذى أوجدته الخطيئة ضرب قوى الخطيئة الكامنة فىنا ضربة قاضية...

عندما طرح نفسه فى ظلمتنا، أضاءها بنوره، وعندما شاركنا فى موتنا أعطانا حياته...
هكذا تحققت نبوة أشعياء التى رددها الإنجيل مطبقاً إياها على يسوع:
[الْجَالِسُونَ فِي أَرْضِ ظِلَالِ الْمَوْتِ أَشْرَقَ عَلَيْهِمْ نُورٌ] [أشعياء ٩ : ٢] ...
[الشَّعْبُ الْجَالِسُ فِي ظُلْمَةٍ أَبْصَرَ نُورًا عَظِيمًا وَالْجَالِسُونَ فِي كُورَةِ الْمَوْتِ وَظِلَالِهِ أَشْرَقَ عَلَيْهِمْ نُورٌ] [متى ٤ : ١٦] ...

هذا ما عبّرت عنه الرسالة إلى العبرانيين:
[فَإِذْ قَدْ تَشَارَكَ الْأَوْلَادُ فِي اللَّحْمِ وَالْدَّمِ اشْتَرَكَ هُوَ أَيْضًا كَذَلِكَ فِيهِمَا، لِكَيْ يُبِيدَ بِالْمَوْتِ ذَاكَ الَّذِي لَهُ سُلْطَانُ الْمَوْتِ، أَيْ إِبْلِيسَ] [عبرانيين ٢ : ١٤] ...

* ملحق :

١ - القديس مكسيموس المعترف هو أحد كبار معلمى الكنيسة، عاش راهباً فى القرن السابع وفقد لسانه ويده دفاعاً عن الإيمان المستقيم. قال فى سر الخلاص:

" لقد علق السيد جسده الإنسانى كطعم بصنارة ألوهيته، كأنه يريد بذلك أن يجتذب الشيطان. وبالفعل هذا التنين العقلى، النهم إلى جسد الإنسان فغر فاه حول هذا الطعم، حاسبًا إياه، من جرّاء طبيعته الإنسانية، سهل المنال. وهكذا علق بصنارة الألوهة. بعد ذلك أرغمه جسد الكلمة المقدّس أن يلفظ كليًا الطبيعة الإنسانية التى كان سبق فابتلعها. وهكذا فالذى كان قد أغوى الإنسان مؤملاً إياه بالتأليه وابتلعه على هذا المنوال، أُجْتَذِبَ بدوره بجسد الإنسان ذاته وأرغم على لفظ ما كان قد ابتلعه. هكذا تجلّت القدرة الإلهية بشكل ساطع: فقد انتصرت على قوة الغالب مستخدمة بمثابة سلاح ضعف الطبيعة المغلوبة. منذ ذلك الحين أصبح الله الظافر بطبيعته الإنسانية وليس الشيطان بوعده الإنسان بالطبيعة الإلهية" ...

٢- والشاعر " تشارلز باجى " عبر عن احتمال المسيح بالصليب كل لعنة الخطيئة، وأحصى مع أئمة، لذلك أصبح للبشر الخطاة الدالة أن ينادوا الآب " أبانا " من خلال الابن الوحيد الذى صار واحدًا منهم، قائلاً:

" أبانا الذى فى السموات، لقد علمهم ابنى هذه الصلاة ...

" أبانا الذى فى السموات، لقد كان يعرف ماذا يصنع، فى ذلك اليوم، ابنى الذى كان يحبهم بهذا المقدار ...

" الذى عاش بينهم، الذى كان واحدًا مثلهم ...

" الذى كان يسير مثلهم، ويتكلم مثلهم، ويعيش مثلهم ...

" الذى كان يتألم ...

" ابنى الذى أحبهم بهذا المقدار، الذى يحبهم أبدًا فى السماء ...

" أبانا الذى فى السموات، تلك الثلاث أو الأربع كلمات ...

" تلك الكلمات التى تسير أمام كل صلاة كما تسير يدا المتوسّل أمام وجهه ...

" كما أن يديّ المتوسّل المضمومتين تتقدّمان أمام وجهه و دموع وجهه ...

" هذا ما أخبرهم ابنى عنه، لقد سلم إليهم ابنى ...

" سرّ الدينونة نفسها ...

" والآن هكذا يبدون لى، هكذا أراهم ...

" هكذا أنا مرغم أن أراهم ...

" كما أن أثير سفينة جميلة لا يزال يتسع حتى يتلاشى ...

" ولكنه يبدأ برأس، وهو رأس السفينة ذاته ...

" هكذا موكب الخطاة الهائل لا يزال يتسع حتى يتلاشى ...

" يبدأ برأس هو رأس السفينة ذاته...
" والسفينة هى ابنى نفسه، حاملاً كل خطايا العالم...
" ورأس السفينة هو يدا ابنى المضمومتان...
" وأمام نظرة غضبى وأمام عدالتى...
" أبانا الذى فى السموات، لقد اخترع ذلك...
" لقد كان معهم، لقد كان مثلهم، لقد كان واحداً منهم...
" أبانا، كمثل رجل يلقى معطفاً كبيراً على كتفيه...
" ارتدى، متجهاً نحوى...
" معطف خطايا العالم....."...

٢ - القيامة

القيامة إنفجار قوة الفداء المحيية...
ويمكننا لجلاء معانيها أن نتأملها من وجهتى النظر التاليتين:
* القيامة فيض الحياة الإلهية فى إنسانية يسوع المنفتحة إلى الله بعباء كامل :
إن الرب يسوع بالصليب بلغ قمة التخلّى عن إرادته الذاتية وقدم ذاته بكليته إلى الله
الآب...
تقدمة محبة كاملة وعطاء لا تحفظ فيه...
هكذا أصبحت إنسانية يسوع منفتحة كل الانفتاح على الله الآب فى شركة حب كاملة
معه، لذا تدفقت فيها الحياة الإلهية كلها وتحولت بالمجد الإلهى...
لقد كان مجد الألوهة بالطبع حالاً فى المسيح منذ تجسده، إذ لم يزل إلهاً بعد أن اتخذ
جسدنا، إلا أن هذا المجد كان مستتراً، محجوباً وراء الطبيعة البشرية التى إتخذها ابن
الله بحدودها وشقائها...
لذا جاع المسيح وعطش وبكى وتألّم...
لقد كانت الألوهة مستقرة فى قلب كيانه ولكنه كان يبدو فى الظاهر إنساناً كبقية
الناس...
ولكن عندما اكتمل عطاء يسوع المصلوب إجتاح المجد الإلهى الكامن فيه والمحتجب
وراء طبيعته الإنسانية هذا الناسوت كله وملاه بقوة الله وحياته وجماله...

عند الفجر تكون الشمس أولاً متخفية وراء الأفق، يترأى نورها خفيفاً، ناعماً، لا يُبهر الأنظار، ثمّ ينفجر النهار ويغمر النور الكون كله ويضفى على الأشياء كلها بهاءً ساطعاً...

هكذا ألوهة الرب يسوع المسيح المستمّدة أزلياً من الله الآب فاضت بالصليب فى ناسوته المفتاح كلياً إلى الآب، فتمجّد هذا الناسوت وانتصر على الموت...

لقد كانت حادثة التجلى:

[وَبَعْدَ سِتَّةِ أَيَّامٍ أَخَذَ يَسُوعُ بُطْرُسَ وَيَعْقُوبَ وَيُوحَنَّا أَخَاهُ وَصَعَدَ بِهِمْ إِلَى جَبَلٍ عَالٍ مُتَقَرِّدِينَ.

وَتَغَيَّرَتْ هَيْئَتُهُ فِدَامَتُهُمْ وَأَضَاءَ وَجْهُهُ كَالشَّمْسِ وَصَارَتْ ثِيَابُهُ بَيَضَاءَ كَالنُّورِ.

وَإِذَا مُوسَى وَإِيلِيَّا قَدْ ظَهَرَا لَهُمْ يَتَكَلَّمَانِ مَعَهُ.

فَجَعَلَ بُطْرُسُ يَقُولُ لِيَسُوعَ: يَا رَبُّ جَيِّدٌ أَنْ نَكُونَ هَهُنَا! فَإِنْ شِئْتَ نَصْنَعُ هُنَا ثَلَاثَ مَظَالٍ.

لَكَ وَاحِدَةٌ وَلِمُوسَى وَاحِدَةٌ وَلِإِيلِيَّا وَاحِدَةٌ.

وَفِيمَا هُوَ يَتَكَلَّمُ إِذَا سَحَابَةٌ نَيِّرَةٌ ظَلَّلَتْهُمْ وَصَوْتُ مِنَ السَّحَابَةِ قَائِلًا: هَذَا هُوَ ابْنِي الْحَبِيبُ الَّذِي بِهِ سُرَرْتُ. لَهُ اسْمَعُوا.

وَلَمَّا سَمِعَ التَّلَامِيذُ سَقَطُوا عَلَى وُجُوهِهِمْ وَخَافُوا خَوْفًا جَدًّا.

فَجَاءَ يَسُوعُ وَلَمَسَهُمْ وَقَالَ: قُومُوا وَلَا تَخَافُوا.

فَرَفَعُوا أَعْيُنَهُمْ وَلَمْ يَرَوْا أَحَدًا إِلَّا يَسُوعَ وَحْدَهُ] [متى ١٧ : ١ - ٩ و لوقا ٩ : ٢٨ - ٣٦]...

مقدمة وصورة للقيامة كما يتضح من توصية يسوع بعد الحادثة:

[وَفِيمَا هُمْ نَازِلُونَ مِنَ الْجَبَلِ أَوْصَاهُمْ يَسُوعُ قَائِلًا: لَا تَعْلَمُوا أَحَدًا بِمَا رَأَيْتُمْ حَتَّى يَقُومَ ابْنُ

الْإِنْسَانِ مِنَ الْأَمْوَاتِ] [متى ١٧ : ٩]...

فعلى جبل التجلى فاض نور الألوهة المستقرّ فى الرب يسوع المسيح، فى جسده،

فتغيّر منظره وصار وجهه مضيئاً كالشمس وثيابه بيضاء كالثلج، لامعة كالنور...

وقد حدث هذا التحوّل عندما كان موسى وإيليا، اللذان ظهرا، يتحدثان مع يسوع:

[اللَّذَانِ ظَهَرَا بِمَجْدٍ وَتَكَلَّمَا عَنْ خُرُوجِهِ الَّذِي كَانَ عَتِيدًا أَنْ يَكْمُلَهُ فِي أُورُشَلِيمَ] [لوقا ٩ :

٣١]...

لقد تجلى يسوع عندما كان يتحدث عن موته، وفى ذلك إشارة إلى أن إنسانية يسوع

كانت سوف تتمجّد بالموت...

تلك العلاقة الوثيقة بين الصليب وتمجيد يسوع، قد أوضحها الكتاب المقدس في مواضع مختلفة...

ففي إنجيل يوحنا نرى يسوع يقول لتلاميذه قبل آلامه بفترة وجيزة:

[وَأَمَّا يَسُوعُ فَأَجَابَهُمَا: قَدْ أَتَتْ السَّاعَةُ لِيَتِمَّجَدَ ابْنُ الْإِنْسَانِ] [يوحنا ١٢: ٢٣]...

وأضاف موضحاً كيف يتم التمجيد:

[الْحَقُّ الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنْ لَمْ تَقَعْ حَبَّةُ الْحِنْطَةِ فِي الْأَرْضِ وَتَمُتَ فَهِيَ تَبْقَى وَحْدَهَا.

وَلَكِنْ إِنْ مَاتَتْ تَأْتِي بِثَمَرٍ كَثِيرٍ] [يوحنا ١٢: ٢٤]...

تمجيد يسوع هذا، إذاً، في موته...

كذلك في الصلاة التي تقوّه بها يسوع قبل خروجه مع تلاميذه إلى بستان جسيماني حيث أسلم ذاته، قال:

[أَيُّهَا الْآبُ قَدْ أَتَتْ السَّاعَةُ. مَجِّدْ ابْنَكَ لِيُجَدِّدَكَ ابْنُكَ أَيْضاً] [يوحنا ١٧: ١]...

" الساعة " التي أتت هي ساعة الصليب والموت كما يتضح من مكان آخر:

[فَطَلِّبُوا أَنْ يُسَبِّحُوهُ وَلَمْ يُلَقْ أَحَدٌ يَدًا عَلَيْهِ لِأَنَّ سَاعَتَهُ لَمْ تَكُنْ قَدْ جَاءَتْ بَعْدُ] [يوحنا ٧:

٣٠]...

" أتت الساعة، فمجد ابنك " يعنى، إذاً، أن ساعة الموت كانت بالنسبة للرب يسوع المسيح هي ساعة المجد...

الصليب، إذاً، كان يحمل كلّ طاقة القيامة:

لقد دخل يسوع المجد (الذي له منذ الأزل وهو في حضن الآب) عندما قبل بإجتياز

الموت ولم يبق بعد ذلك إلا أن يظهر هذا المجد بقيامته من بين الأموات...

بالصليب، إذاً، تحققت القيامة، لذلك فقد كانت آلة العار هذه بالنسبة ليسوع عرش

المجد والظفر...

لذا، شبهها الرسول بولس بتلك المركبة التي يقف عليها قادة روما الظافرون ويدخلون

بها إلى المدينة جارين وراءهم رؤساء الأعداء مقيدين...

هكذا إعتلى المسيح الصليب كمركبة ظفر وربط بها الأرواح الشريرة مقيدة ذليلة:

[إِذْ مَحَا الصَّلْبُ الَّذِي عَلَيْنَا فِي الْفَرَايِضِ، الَّذِي كَانَ ضِيقًا لَنَا، وَقَدْ رَفَعَهُ مِنَ الْوَسْطِ مُسَمَّرًا

إِيَّاهُ بِالصَّلَيبِ، إِذْ جَرَدَ الرِّيَّاسَاتِ وَالسَّلَاطِينَ أَشْهَرَهُمْ جَهَارًا، ظَافِرًا بِهِمْ فِيهِ] [كولوسي ٢:

١٤، ١٥]...

ولذلك، تحتفل الكنيسة الأرثوذكسية بحزن وخشوع في صلاة الساعة السادسة من

يوم الجمعة العظيمة بذكرى الصلب منشدة ذاك النشيد المؤثر:

[يا من فى اليوم السادس وفى الساعة السادسة سُمِّرت على الصليب من أجل الخطية التى تَجَرَّأ عليها آدم فى الفردوس.... يا يسوع المسيح إلهنا الذى سُمِّرت على الصليب فى الساعة السادسة وقتلت الخطية بالخشبة وأحييت الميت بموتك، الذى هو الإنسان الذى خلقته بيدك، الذى مات بالخطية، اقتل أوجاعنا بآلامك المشفية المحيية وبالمسامير التى سُمِّرت بها... صنعت خلاصاً فى وسط الأرض أيها المسيح إلهنا عندما بسطت يديك الطاهرتين على الصليب، فلهذا كل الأمم تصرخ قائلة: المجد لك يارب...]

مظهرة هكذا أنه حينما بلغت الظلمة أشدها بموت المسيح، انفجر النور فى صميمها ولم يبق لنا إلا انتظار ظهوره فى صباح الفصح...

كذلك، فى خدمة " جناز المسيح " ، التى يُحتفل بها بتذكار دفن المسيح، تتشد مع المراثى ترانيم القيامة...

ويا ليتنا نقرأ، ونتأمل فى الإصحاح الثالث من مراثى أرميا النبى...

*** القيامة تفجير لمملكة الموت بدخول سيد الحياة فيها:**

ومن جهة أخرى فقد رأينا أن الرب يسوع المسيح دخل فى مملكة الموت (وبعبارة أخرى فى الجحيم) لكى يشارك الإنسان بؤسه وشقاؤه...

ولكن الموت لم يكن بإمكانه أن يضبط من هو بلاهوته سيد الحياة ومصدرها...

لذلك فقد كان دخول المسيح فى الموت حكماً مبرماً على الموت بالزوال...

والموت نتيجة الخطيئة، ثمرتها السامة، لذا تحطيم مملكة الموت يعنى أيضاً تقويض سلطة الخطيئة...

لقد دخل الرب يسوع المسيح بموته فى السجن الذى كُنَّا مقيدين، مستعبدين، نئن تحت نير الشر والبؤس والموت، فدكَّ هذا السجن الرهيب وحطمه من أساسه...

فأطلق الموت يسوع وأطلق معه البشرية جمعاء التى وحدَّ يسوع ذاته بها...

لذا تتشد الكنيسة معبّرة عن الخلاص بصورة شعرية:

" أيها الرب، أيها الرب، أن أبواب الموت قد انفتحت لك من الخوف، ولما أبصرك بابو الجحيم ارتعدوا، لأنك حطمت أبوابه النحاسية وسحقت أقفال الحديدية وأنقذتنا من ظلمة الموت وإدلهامه وقطعت قيودنا"...

وأيضاً: " جمع الملائكة انذهل متحيراً لمشاهدتهم إياك محسوباً بين الأموات أيها المخلص وساحقاً قدرة الموت ومنهضاً آدم معك ومعتقاً إيانا من الجحيم كافة"...

هكذا تحققت بقيامة المسيح النبوة التى كان قد تقوّه بها هوشع النبى:

[مِنْ يَدِ الْهَلَوِيَّةِ أَفْدِيَهُمْ. مِنْ الْمَوْتِ أَخْلَصُهُمْ. أَيْنَ أَوْبَاؤُكَ يَا مَوْتُ؟ أَيْنَ شَوْكُكَ يَا هَلَوِيَّةُ؟
تَخْتَفِي النَّدَامَةُ عَنْ عَيْنَيَّ] [هوشع ١٣ : ١٤] ...

تلك النبوة ردّد الرسول بولس صداها بعدما تحققت بالمسيح منشداً بنشوة الظفر الذي
جعلنا يسوع مساهمين فيه:

[وَمَتَى لَيْسَ هَذَا الْفَاسِدُ عَدَمَ فَسَادٍ وَلَيْسَ هَذَا الْمَائِتُ عَدَمَ مَوْتٍ فَحِينَئِذٍ تَصِيرُ الْكَلِمَةُ
الْمَكْتُوبَةُ: { ابْتُلِعِ الْمَوْتُ إِلَى غَلْبَةٍ } . أَيْنَ شَوْكُكَ يَا مَوْتُ؟ أَيْنَ غَلْبَتُكَ يَا هَلَوِيَّةُ؟] [١
كورونثوس ١٥ : ٥٤ ، ٥٥] ...

وأضاف:

[أَمَّا شَوْكَةُ الْمَوْتِ فَهِيَ الْخَطِيئَةُ وَقُوَّةُ الْخَطِيئَةِ هِيَ النَّامُوسُ. وَلَكِنْ شُكْرًا لِلَّهِ الَّذِي يُعْطِينَا
الْغَلْبَةَ بِرَبَّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ.] [١ كورونثوس ١٥ : ٥٦ ، ٥٧] ...

معلناً أن إنتصار المسيح على الموت هو في الآن نفسه إبادة للخطيئة فينا، تلك
الخطيئة التي تُنتج الموت...

هكذا صار المسيح القائم من بين الأموات محرّر الإنسانية الحقيقي الأوحد لأنه لم
يكتف بمعالجة بعض مظاهر مأساة الإنسان لكنه جابه المأساة في أعماقها وأصولها
وجعل فينا طاقة تجاوزها...

إنه جابه قوى الموت الكامنة في الإنسان (أى قوى التفكك التي مزّقت الإنسان نفساً
وجسماً) ومن ورائها تلك القوة الرهيبة التي استخدمتها لاستعباد الإنسان أعنى بها قوة
الشيطان...

لقد جابه يسوع الشيطان في عقر داره، إذا صحّ التعبير، وضع نفسه بين برائنه
ليحطمه ويخلص منه البشر....

دخل إلى مملكته المظلمة ليقبّده ويُبطل قوته...

وقد علّمنا الرب يسوع نفسه هذه الحقيقة بمثل عندما قال:

[حِينَمَا يَحْفَظُ الْقَوِيُّ دَارَهُ مُتَسَلِّحًا تَكُونُ أَمْوَالُهُ فِي أَمَانٍ. وَلَكِنْ مَتَى جَاءَ مَنْ هُوَ أَقْوَى مِنْهُ
فَأَيْدِيهِ يَغْلِبُهُ وَيَنْزِعُ سِلَاحَهُ الْكَامِلَ الَّذِي اتَّكَلَ عَلَيْهِ وَيُوزَعُ غَنَائِمُهُ] [لوقا ١١ : ٢١ ، ٢٢] ...
هكذا انتصر المسيح على الموت لما اجتاز ظلمته، لقد " وطئ الموت بالموت" كما
تنشد الكنيسة...

لقد فتح باب النور والحياة بيديه الداميتين..

ولكنه أحرز هذا الظفر من أجلنا نحن، ليجعلنا مساهمين فيه: نحن ظافرون إذاً على
قدر إتحادنا بالمسيح الظافر...

نعم، إننا لا نزال نخطئ ونتألم ونموت، ولكن طاقة الحياة الطافرة قد زُرعت في أعماقنا...

من يمرّ على حقل بعد أن زُرعت فيه البذور يخاله جامدًا، ميتًا، ولطم الحياة كامنة في أعماقه تتحفّز للوثوب وسوف تنتصب بعد فترة تحت السماء سنابل ذهبية تتماوج في النور...

عندما كان يسوع موضوعًا في القبر، كان يبدو ميتًا كبقية الموتى ولكن الحياة كلها كامنة في هذا الجسد الساكن، كقنبلة مؤقتة كان لابد لها أن تفجّر الموت وتخرج حجر الضريح...

هكذا، فالمتحدون بيسوع يحملون في أجسادهم المائتة ونفوسهم التي لم تتحرّر بعد كليًا من ضعفها، طاقة قيامة ربهم التي سوف تحوّلهم في اليوم الأخير على صورة السيد الناهض من بين الأموات...

[لَأَنَّ هَذَا الْفَاسِدَ لَا بُدَّ أَنْ يَلْبَسَ عَدَمَ فُسَادٍ وَهَذَا الْمَائِتَ يَلْبَسُ عَدَمَ مَوْتٍ] [١ كورونثوس ١٥ : ٥٣]...

وقد كتب الرسول يوحنا بهذا المعنى، مظهرًا كيف أننا في آن حاصلون على التجدد ومنتظرون إعلانه الكامل فينا:

[أَيُّهَا الْأَحْيَاءُ، نَحْنُ الْآنَ أَوْلَادُ اللَّهِ. وَلَا نَعْلَمُ حَتَّى الْآنَ مَاذَا سَنَكُونُ، لَكِنَّا نَعْلَمُ أَنَّهُ مَتَى أَظْهَرَ الْمَسِيحُ، سَنَكُونُ مِثْلَهُ، لِأَنَّا سَنَرَاهُ عِنْدَيْهِ كَمَا هُوَ!] [١ يوحنا ٣ : ٢]...

بالقيامة تحقق الخلاص الذي شاء الرب أن يتممه بتجسّده وصلبه...

القيامة، إذًا، علامة نجاح خطة الله لإنقاذ الإنسان...

إنها برهان خلاصنا...

ولذلك، فهي الركيزة الأساسية للبشارة المسيحية...

فقد كان الرسل قبل كل شيء شهودًا لقيامة الرب يسوع المسيح:

[فَيَنْبَغِي أَنْ الرِّجَالِ الَّذِينَ اجْتَمَعُوا مَعَنَا كُلِّ الزَّمَانِ الَّذِي فِيهِ دَخَلَ إِلَيْنَا الرَّبُّ يَسُوعُ وَخَرَجَ. مِنْذُ مَعْمُودِيَّةِ يُوَحْنَا إِلَى الْيَوْمِ الَّذِي ارْتَفَعَ فِيهِ عَنَّا يَصِيرُ وَاحِدٌ مِنْهُمْ شَاهِدًا مَعَنَا بِقِيَامَتِهِ] [أعمال الرسل ١ : ٢١، ٢٢]...

وكتب الرسول بولس إلى أهل كورونثوس:

[وَإِنْ لَمْ يَكُنِ الْمَسِيحُ قَدْ قَامَ فَبَاطِلَةٌ كِرَازُنَا وَبَاطِلٌ أَيْضًا إِيْمَانُكُمْ] [١ كورونثوس ١٥ : ١٤]...

القيامة قلب الإيمان المسيحي والحياة الروحية...

إنها أيضاً محور الترتيب الطقسي، فكل يوم أحد تذكّار للقيامة، وكل قدّاس إلهي هو إستمرار لها، والصوم الكبير إستعداد للفصح، والفصح " عيد الأعياد وموسم المواسم" كما تسميه الطقوس، وقلب الكنيسة الأرثوذكسية فيه تنشد الكنيسة متهلة: المسيح قام... بالحقيقة قام...
إخرستوس أنستي... أليسوس أنستي...

* ملحق:

عظة للقدّيس يوحنا ذهبي الفم بمناسبة أحد الفصح المجيد:
من كان حسن العبادة ومحباً لله فليتمتع بحسن هذا الموسم البهيج. من كان عبداً شكوراً فليدخل إلى فرح ربه مسروراً. من تعب صائماً فليأخذ الآن أجرته ديناراً. من عمل من الساعة الأولى فلينل اليوم حقه بعدل. من قدم بعد الساعة الثالثة فليعيّد شاكرًا. من وافى بعد الساعة السادسة فلا يشك فإنه لا يسر شيئاً. من تأخّر إلى الساعة التسعة فليقدّم غير مرتاب. من وصل الساعة الحادية عشرة فلا يخف الإبطاء فإن السيد كريم جواد، يقبل الأخير مثل الأول، ويربح العامل من الساعة الحادية عشرة مثل العامل من الساعة الأولى. يرحم الأخير ويرضى الأول. يعطى ذاك ويهب هذا. يقبل الأعمال ويسر بالنية. يُكرم الفعل ويمدح العزم. فادخلوا إذاً كلكم إلى فرح ربكم. أيها الأولون والأخرون خذوا أجوركم. أيها الأغنياء والفقراء أطربوا معاً فرحين...
أمسكتكم أو توانيتم أكرموا هذا النهار. صمتتم أو لم تصوموا أفرحوا اليوم. المائدة ملأنة فتمتعوا كلكم. العجل سمين وافٍ فلا يخرج أحدًا جائعًا. تمتعوا كلكم بوليمة الإيمان. تمتعوا كلكم بوليمة الصلاح. لا ينوح أحد عن فقر فإن المملكة العامة قد ظهرت. لا يندم أحد على إثم فإن الصفح قد بزغ من القبر. لا يخف أحد الموت فإن موت المخلص قد حرّنا. فإنه قد أخدم الموت حين قبض الموت عليه، وسبى الجحيم بنزوله إليه. مرمره لما ذاق جسده. هذا ما سبق أشعياء ونادى قائلاً: تمرمر لما إلتقاك أسفل. تمرمر لأنه بطل. تمرمر لأنه هُزئ به. تمرمر لأنه قد أميت. تمرمر لأنه قد أبيد. تمرمر لأنه قد رُبط...

تناول جسداً فصادف إلهاً...

تناول أرضاً فألفاها سماءاً...

تناول ما نظر، فسقط من حيث لم ينظر...

أين شوكتك ياموت؟...

أين غلبتك ياهلوية؟...

قام المسيح وأنت صُرّعت...
قام المسيح والشياطين تساقطت...
قام المسيح والملائكة جذلوا...
قام المسيح والحياة انبعثت...
قام المسيح ولا أحد ميت فى القبر...
قام المسيح من الأموات فصار باكورة الراقدين...
فله كلّ المجد والعزّة إلى دهر الداهرين. آمين...

٣ - إشتراكنا فى صليب الرب وقيامته

* تمسك الإنسان بأنانيته مخافة من الموت:

إن ما فعله الرب بإجتيازه الموت الذى قاده إلى القيامة، إنما فعله من أجلنا...
ذلك أن الإنسان كان عليه، كى يُخلص من شقائه وتفككه، أن يقبل بالتخلّى للأنى، فيلاقى
الله من جديد وينعم بحياته...
ولكن الإنسان الساقط لم يعد قادراً على هذا التخلّى لأن فى ممارسته شعوراً بالإنسلاخ
والفراغ وضياح الذات...
وبعبارة أخرى، إذا شاء الإنسان أن يعرض عن إتخاذ الأنى محوراً لكل شئ، شعر
وكانه يموت، كأن حياته تفلت منه...
لذا يتمسك الإنسان بأنانيته مخافة من الموت...
ولكنه بذلك يبقى بعيداً عن الله، ينبوع الحياة، وبالتالي يبقى أسير الموت (بمعناه
العام، أى بمعنى التفكك الكيانى الذى ليس الموت الجسدى سوى مظهر من مظاهره
...)

إذاً، الإنسان يبقى أسير الموت بداعى خوفه من الموت...
تلك هى المفارقة الكبرى التى هى فى صميم مأساة الإنسان والتى يمكن لكل واحد منّا
أن يختبرها...

فلنتساءل:

لماذا نخطئ، فنجعل حاجزاً بين الله وبيننا؟...
الجواب العميق عن هذا السؤال هو أننا نخطئ مخافة من الموت...
لماذا يسرق الإنسان؟...
لأنه مثلاً يخاف من الحرمان، والحرمان نوع من الموت...

لماذا الكذب؟...

لأنه مثلاً يخاف من العقاب، والعقاب نوع من الموت...

لماذا يزنى؟...

لأنه فى كثير من الأحيان يخاف من العزلة، والعزلة نوع من الموت...

لماذا يتباهى؟...

لأنه يخاف أن لا يعجب به الناس، أن يهملوه، وإهمال الناس له نوع من الموت...
محمل الكلام أننا نستعيد أنفسنا للخطيئة، وبالتالي للموت، الذى هو على حدّ تعبير

الرسول بولس:

[أَجْرُ الْخَطِيئَةِ] [رومية ٦ : ٣٢]...

لأن الخطيئة تفصل عن الله مصدر الحياة، بسبب خوفنا من الموت...

هذا ما عبّر عنه الكتاب المقدّس فى الرسالة إلى العبرانيين بقوله:

[وَيَعْتَقُ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَوْفًا مِنَ الْمَوْتِ كَانُوا جَمِيعًا كُلَّ حَيَاتِهِمْ تَحْتَ الْعُبُودِيَّةِ] [عبرانيين

٢ : ١٥]...

ولنا نموذج لذلك فى علاقتنا البشرية...

كل إنسان يحلم بأن يعيش صداقة كاملة أو حباً كاملاً، لأن قلبه يتوق إلى شركة إنسانية
كهذه يروى بها عطشه إلى حياة كاملة...

ولكن الصداقة الكاملة والحب الكامل أمران يسعى إليهما الإنسان دون أن يتمكن من

إدراكهما كلياً...

إنه فى أحسن الاحتمالات يقترب من تحقيقهما ولكنه، حتى فى هذه الحال، يُبقى على

شئ كثير من العطش والعزلة...

إن إتحداه بمن يحب لا يمكن أن يكون كاملاً...

لماذا؟...

لأن إتحد الإنسان بمن يحبه لا يتم إلا إذا قبل الإنسان بأن لا يكون أنه محوراً
لوجوده، بأن يتخلّى عن تملك ذاته، بعبارة أخرى إذا قبل الإنسان بأن يمر بخبرة

الموت...

ولكن الإنسان فى وضعه الساقط، وأن قبل جزئياً بتلك الخبرة، لا يستطيع أن يقبلها

كلياً وفى الصميم...

أنه يخاف الموت ولذا يبقى أسير العزلة وبالتالي أسير الموت...

* الكلمة المتجسّد الوحيد الذى استطاع أن يتخلّى عن تملك ذاته:

يسوع المسيح وحده تم بئاسوته ما لم يكن بوسع أى إنسان أن يتممه...
الإنسان يسوع المسيح استطاع وحده أن يتخلّى بالحقيقة عن تملك ذاته، وبعبارة
أخرى استطاع وحده أن يقبل الموت بالكلية وفى الصميم...
ولذا، استطاع وحده أن يلج بإنسانيته إلى مجد الله...
لقد كان رئيس الكهنة عند اليهود يدخل مرة فى السنة إلى قدس الأقداس (الذى كان
يمثل السماء) حاملاً دم الذبائح...

الرسالة إلى العبرانيين تقول لنا أن ذلك كان رمزاً للمسيح الذى كان فى الآن نفسه
الكاهن والذبيحة، وقد دخل بدمه المسفوك إلى مجد الله:
[وَأَمَّا الْمَسِيحُ، وَهُوَ قَدْ جَاءَ رَئِيسَ كَهَنَةٍ لِلْخَيْرَاتِ الْعَتِيدَةِ، فَبِالْمَسْكَنِ الْأَعْظَمِ وَالْأَكْمَلِ، غَيْرِ
الْمَصْنُوعِ بِيَدٍ، أَيْ الَّذِي لَيْسَ مِنْ هَذِهِ الْخَلِيقَةِ. وَلَيْسَ بِدَمِ ثِيُوسَ وَعُجُولٍ، بَلْ بِدَمِ نَفْسِهِ، دَخَلَ
مَرَّةً وَاحِدَةً إِلَى الْأَقْدَاسِ، فَوَجَدَ فِدَاءً أَبَدِيًّا] [عبرانيين ٩ : ١١ ، ١٢]...
هذا الدخول إلى مجد الله إنما ظهر بالقيامة...

* المسيح نائب عن البشر أجمعين:

ولكن يسوع المسيح قد أتمّ هذا العطاء الكامل لا من أجل نفسه بلّ بالنيابة عن البشر
أجمعين...

عندما قبل الموت كلياً إنما قبله كممثل عن البشر الذين لا يستطيعون هم قبوله...
هذا ما عبّر عنه الرسول بولس بقوله:
[لِأَنَّ مَحَبَّةَ الْمَسِيحِ تَحْصُرُنَا. إِذْ نَحْنُ نَحْسِبُ هَذَا: أَنَّهُ إِنْ كَانَ وَاحِدٌ قَدْ مَاتَ لِأَجْلِ الْجَمِيعِ.
فَالْجَمِيعُ إِذَا مَاتُوا] [٢ كورونثوس ٥ : ١٤]...
عطاؤنا ناقص لا يمكن أن نبلغ به إلى الله، إنه مشوب بالأنانية المستحكمة فينا بسبب
خوفنا من الموت...

ولكننا نستطيع أن نلج إلى الله من خلال عطاء يسوع المسيح الكامل...
يسوع، بما أنه قربان كامل لله، يشفع بضعفنا وعجزنا ويقربنا من الله، كأننا طيور
مكسورة الأجنحة يحملها نسر قوى ويحلّق بها إلى أقصى الفضاء:
[لِأَنَّهُ كَانَ يَلِيقُ بِنَا رَئِيسُ كَهَنَةٍ مِثْلُ هَذَا، قُدُّوسٌ بِلَا شَرٍّ وَلَا دَنَسٍ، قَدْ انْفَصَلَ عَنِ الْخَطَاةِ
وَصَارَ أَعْلَى مِنَ السَّمَاوَاتِ] [عبرانيين ٧ : ٢٥]...
بذبيحة الرب يسوع إذاً، تلك الذبيحة التى تبلغ وحدها السماوات، ننال القيامة التى هى
تدفق الحياة الإلهية فى كياناتنا المتفككة، المانت...

* إرادة الإنسان والخلص:

ولكن الفداء لا يفعل فينا بشكل سحري...

الله لا يُخلص الإنسان بالاستقلال عن إرادة الإنسان لأنه يحترم حريته...

لذا لا ينال القيامة من يرفض الإشتراك في صليب المسيح، أى من لا يقبل أن يدخل

في طريق الموت عن الذات سلكها يسوع حتى النهاية...

لقد علمنا الرب صراحة أنه لا يسعنا الإشتراك معه في الحياة الإلهية (أى في قيامته)

إن لم نسلك في أثره طريق الموت:

[إِنْ أَرَادَ أَحَدٌ أَنْ يَأْتِيَ وَرَائِي فَلْيُنْكَرْ نَفْسَهُ وَيَحْمِلْ صَلِيبَهُ وَيَتَّبِعْنِي فَإِنَّ مَنْ أَرَادَ أَنْ يُخَلِّصَ

نَفْسَهُ يُهْلِكُهَا وَمَنْ يُهْلِكُ نَفْسَهُ مِنْ أَجْلِي يَجِدُهَا] [متى ١٦ : ٢٤ ، ٢٥]...

وقد علمنا الرسول بولس أن إشتراكنا في الصليب ضرورى إذا شئنا أن نكون منتهمين

إلى المسيح وبالتالي أبناء القيامة:

[وَلَكِنَّ الَّذِينَ هُمْ لِلْمَسِيحِ قَدْ صَلَبُوا الْجَسَدَ (أى الخطيئة، أى عبادة الذات) مَعَ الْأَهْوَاءِ

وَالشَّهَوَاتِ] [غلاطية ٥ : ٢٤]...

و [فَإِنْ كُنَّا قَدْ مُتْنَا مَعَ الْمَسِيحِ نُؤْمِنُ أَنَّنا سَنَحْيَا أَيْضاً مَعَهُ] [رومية ٦ : ٨]...

و [حَامِلِينَ فِي الْجَسَدِ كُلَّ حِينٍ إِمَامَةَ الرَّبِّ يَسُوعَ، لِكَيْ تُظْهَرَ حَيَاةُ يَسُوعَ أَيْضاً فِي جَسَدِنَا

[٢ كورونثوس ٤ : ١٠]...

و [لِأَعْرِفُهُ، وَقُوَّةَ قِيَامَتِهِ، وَشَرَكَةَ أَلَمِهِ، مُتَّسِبَةً بِمَوْتِهِ، لَعَلِّي أَبْلُغُ إِلَى قِيَامَةِ الْأَمْوَاتِ] [

فيليبى ٣ : ١٠ ، ١١]...

* التوبة والأعمال:

إننا فى وضعنا الساقط لا نستطيع بالطبع أن نقدّم ذواتنا بالكلية، ولكن المطلوب منا أن

نجتهد فى هذا السبيل...

أن ننوى بصدق السير فى طريق نكران الذات وراء المعلم...

تلك هى التوبة فى الأساس...

إنها سير فى طريق إسلام الذات لله...

وهذا السير يدوم الحياة كلها لأن عطاءنا يبقى ناقصاً ما حيينا...

لذا فالكنيسة ليست كنيسة الصديقين بلّ كنيسة التائبين أى العائدين من عبادة ذواتهم إلى

عبادة ربهم...

ولنا فى هذا السير دافعان يشددان عزمنا:

١- محبة المسيح لنا:

لقد تجلّت محبة المسيح لنا بشكل باهر فى بذله ذاته من أجلنا...

وقد قال هو عن نفسه:

[لَيْسَ لِأَحَدٍ حُبٌّ أَكْثَمُ مِنْ هَذَا أَنْ يَضَعَ أَحَدٌ نَفْسَهُ لِأَجْلِ أَحِبَّائِهِ] [يوحنا ١٥ : ١٣] ...
وأيضاً:

[أَمَّا أَنَا فَأَلْقِي الرَّاعِي الصَّالِحَ وَأَعْرِفُ خَاصَّتِي وَخَاصَّتِي تُعْرِفُنِي، كَمَا أَنَّ الْآبَ يَعْرِفُنِي وَأَنَا أَعْرِفُ الْآبَ. وَأَنَا أَضَعُ نَفْسِي عَنِ الْخِرَافِ] [يوحنا ١٥ : ١٤ ، ١٥] ...
هذا الحب المبذول يثير حُبنا ويدفعنا إلى أن نحيا فيما بعد لا لذواتنا بل للذي مات عنا حباً...

بهذا المعنى كتب بولس الرسول:

[لِأَنَّ مَحَبَّةَ الْمَسِيحِ تَحْصُرُنَا. إِذْ نَحْنُ نَحْسِبُ هَذَا: أَنَّهُ إِنْ كَانَ وَاحِدٌ قَدْ مَاتَ لِأَجْلِ الْجَمِيعِ. فَالْجَمِيعُ إِذَا مَاتُوا. وَهُوَ مَاتَ لِأَجْلِ الْجَمِيعِ كَيْ يَعْيشَ الْأَحْيَاءُ فِيمَا بَعْدُ لَا لِنَفْسِهِمْ، بَلْ لِلَّذِي مَاتَ لِأَجْلِهِمْ وَقَامَ] [٢ كورونثوس ٥ : ١٤ ، ١٥] ...
وفي مكان آخر كتب:

[مَعَ الْمَسِيحِ صُلِبْتُ، فَأَحْيَا لَا أَنَا بَلِ الْمَسِيحُ يَحْيَا فِيَّ. فَمَا أَحْيَاهُ الْآنَ فِي الْجَسَدِ فَإِنَّمَا أَحْيَاهُ فِي الْإِيمَانِ، إِيْمَانِ ابْنِ اللَّهِ، الَّذِي أَحْبَبَنِي وَأَسْلَمَ نَفْسَهُ لِأَجْلِي] [غلاطية ٢ : ٢٠] ...
أى أننى أسلم ذاتى (هذا هو المعنى العميق للإيمان) لذلك الذى أسلم ذاته لأجلى...
هكذا فالحب الذى تنثيره فينا محبة المسيح المبذولة لنا حتى الموت يساعدنا على التغلب على الخوف من الموت، ذلك الخوف الذى يحول دون تقدمة ذواتنا...
هذا ما تنشده الكنيسة عن الشهداء:

{ لِأَنَّ الْمَحَبَّةَ قَدْ غَلَبَتِ الطَّبِيعَةَ (أى مخافة الموت المتأصلة فى طبيعتنا) وجعلت
العاشق أن يتحد بواسطة الموت بالمعشوق { (خدمة عيد القديس جورجوس) ...

٢- ثقتنا بانتصار المسيح على الموت:

ومن جهة أخرى فإن حدة الخوف من الموت تخف فينا لمعرفة أن المسيح قهره
بمروره فيه...

فيما كان يتحدث عن قيامة السيد، هتف الرسول بولس بلهجة الانتصار:

[أَمَّا شَوْكَةُ الْمَوْتِ فَهِيَ الْخَطِيئَةُ وَقُوَّةُ الْخَطِيئَةِ هِيَ النَّامُوسُ] [١ كورونثوس ١٥ : ٥٥] ...
ونحن إذا شئنا التخلّى عن أنانيتنا ومررنا من جراء ذلك فى خبرة الموت يهدأ
جزعنا لعلنا أننا لسنا نجتاز هذه الخبرة وحدنا، بل بمعونة ذاك الذى اجتاز الموت
قبلنا وقهره:

[أَيْضاً إِذَا سِرْتُ فِي وَادِي ظِلِّ الْمَوْتِ لَا أَخَافُ شَرّاً لَأَنَّكَ أَنْتَ مَعِي. عَصَاكَ وَعُكَّازُكَ هُمَا يُعَزِّيانِي] [مزمور ٢٣ : ٤] ...

* الرب يعين ضعفنا:

إننا نتمرّس، إذًا، على تقدمة ذواتنا مدفوعين بالحب الذي تثيره فينا محبة الرب لنا وبتقننا بانتصاره على الموت...

ولكن الرب أيضًا يعين ضعفنا...

ذلك أننا إذا قبلنا أن نشترك في صليبه، فإن تقدمتنا هذه، وإن كانت لا تزال ناقصة، مشوبة بالأنانية، تبلغ إلى الله محمولة على أجنحة تقدمته هو، كما رأينا...

وبعبارة أخرى فإن قبولنا الإشتراك في صليب المسيح يجعلنا مشتركين في قيامته أيضًا، أي في الحياة الإلهية التي إحتاجت إنسانيته المقربة إلى الله...

وإذا تدفقت الحياة الإلهية فينا، أصبحنا أكثر قدرة على المحبة والعطاء...

تلك هي النعمة الإلهية التي تجددنا باستمرار بفعل صليب الرب وقيامته...

* إقبال الأسرار الإلهية:

هذا ما يجرى خاصة عند إقبالنا الأسرار الإلهية...

فعند إقامة سر الشكر مثلاً، في القداس الإلهي، يأتي المؤمنون إلى الله بتوبتهم (أي بعزمهم على إسلام ذواتهم لله) ولكن هذه التقدمة لا تبلغ إلى الله إلا لكونها تندمج في التقدمة الكاملة الوحيدة، تقدمة المسيح المصلوب التي يشكل كل قداس إمتداداً لها...

إستحالة الخبز والخمر (اللذين يمثلان تقدمة البشر) إلى جسد ودم المسيح معناها أن المسيح إتخذ توبة البشر الناقصة ودمجها بتقدمته هو ليوصلها إلى الأب...

هكذا يبلغ المؤمنون بالمسيح إلى الله وينالون بتناول القرايين الحياة الإلهية فيصيرون مشاركي القيامة التي تجددهم وتؤهلهم لأن يكونوا بدورهم قرايين...

* التوبة المستمرة:

هكذا بالتوبة التي هي عملية تستمر العمر كله - لأن طاعتنا لله ناقصة ما حيننا -

وبالأسرار، نشترك أكثر فأكثر فينا على حدّ تعبير الرسول، أي نصبح أكر فأكثر مساهمين في انفتاحه التام للأب وفي تدفق الحياة الإلهية فيه...

وهكذا شيئاً فشيئاً نصبح على حد تعبير الرسول:

[كَذَلِكَ أَنْتُمْ أَيْضاً إِحْسِبُوا أَنْفُسَكُمْ أَمْوَاتاً عَنِ الْخَطِيئَةِ وَلَكِنْ أَحْيَاءٌ لِلَّهِ بِالْمَسِيحِ يَسُوعَ رَبِّنا] [

رومية ٦ : ١١] ...

وشيئاً فشيئاً نستطيع أن نتبنى قول الرسول:

[لَأَنِّي مُتُّ بِالنَّامُوسِ لِلنَّامُوسِ لأَحْيَا لِلَّهِ. مَعَ الْمَسِيحِ صُلِبْتُ، فَأَحْيَا لَا أَنَا بَلِ الْمَسِيحُ يَحْيَا فِيَّ. فَمَا أَحْيَاهُ الْآنَ فِي الْجَسَدِ فَإِنَّمَا أَحْيَاهُ فِي الْإِيمَانِ، إِيْمَانِ ابْنِ اللَّهِ، الَّذِي أَحَبَّنِي وَأَسَلَّمَ نَفْسَهُ لَأَجْلِي] [غلاطية ٢ : ١٩ ، ٢٠] ...

٤ - الفداء ومحبة القريب

* محبة الفادى لنا تلهم محبتنا للناس:

محبة الفادى التى تجلّت فى بذله ذاته عتّا هى بمثابة النار التى لا بدّ أن تُلهب ما حولها...

إنها حَرِيّة بأن تُضرم فينا بدورنا نار المحبة...

لقد قال الرب بهذا المعنى:

[جِئْتُ لِأَتَّقِيَ نَاراً عَلَى الْأَرْضِ فَمَاذَا أُرِيدُ لَوْ اضْطَرَمْتُ؟] [لوقا ١٢ : ٤٩] ...

الحب يستدعى الحب...

لقد بيّن علم النفس الحديث أن الطفل يستمد من محبة والديه له المقدرة على أن يحب بدوره الناس، وبعبارة أخرى إن حب والديه له يوقظه إلى الحب، يفجّر فيه طاقة الحب...

هكذا المحبة الفائقة التى أبداهها الرب نحونا تنتزّ عنا من إكتفائيتنا لتلقى بنا بدورنا فى مجازفة الحب...

هذا الجواب الحى على محبة السيّد يتّخذ ، كما رأينا، شكل الحب لشخصه، ولكنه يتّخذ أيضاً شكل محبة البشر...

ذلك لأنه لا يسعنا، إذا كنّا مؤمنين، إلا أن نرى فى كل إنسان، أيّاً كان:

[فِيهِلِكَ بِسَبَبِ عِلْمِكَ الْأَخُ الضَّعِيفُ الَّذِي مَاتَ الْمَسِيحُ مِنْ أَجْلِهِ] [١ كورونثوس ٨ : ١١]

...

عند ذاك يصبح كل إنسان، فى نظرنا، ذا قيمة لا تقدّر، قيمة الدم الإلهى الذى سكب من أجله...

* إن محبة الفادى لنا تعين نوعية محبتنا للناس:

محبة الفادى لا تُلهم محبتنا للناس وحسب، ولكنها أيضاً تعين نوعيتها...

ذلك أنه ينبغى لنا أن نحبّ الناس بالمحبة التى أحبهم بها المسيح...

تلك هى وصية السيد فى خطابه الوداعى:

[هَذِهِ هِيَ وَصِيَّتِي أَنْ تُحِبُّوا بَعْضُكُمْ بَعْضًا كَمَا أَحْبَبْتُكُمْ] [يوحنا ١٥ : ١٢] ...

هذا يعنى أنه ينبغي أن تكون لمحبتنا للناس الصفات التالية:

أ - مبنية على بذل الذات:

يُكثر الناس من استعمال كلمة " أحبّ"، ولكنها هيهات أن يكون الحب الذى يتحدثون عنه فى كثير من الأحيان هو الحب الأصيل الذى عاشه السيّد...
" أحب التفاح" يعنى أننى أتلّف التفاح من أجل لذتى...
" أحبّ" إنساناً يعنى فى كثير من الأحيان، إذا شئت أن أواجه حقيقتى، أننى أريد تسخيرهُ واستغلالهُ لشهوَتى أو مصلحتى...
أما المسيح فقد أحبنا من أجل أنفسنا وعوض أن يُسَخِّرنا له سَخَّرَ نفسه لأجلنا...
لقد إعتبر أن لنا من الأهمية ما يُبرّر سفك دمه الإلهى عناً...
فأتاح لنا هكذا أن نكتشف المحبّة الحقة التى تقوم على العطاء...
ولذا نرى الرسل يحثونا على إقتفاء آثار السيّد فى محبتنا للناس، فقد قال الرسول يوحنا:

[وَمَقْيَاسُ الْمَحَبَّةِ هُوَ الْعَمَلُ الَّذِي قَامَ بِهِ الْمَسِيحُ إِذْ بَدَلَ حَيَاتَهُ لِأَجْلِنَا. فَعَلَيْنَا نَحْنُ أَيْضاً أَنْ نَبْدُلَ حَيَاتِنَا لِأَجْلِ إِخْوَتِنَا] [١ يوحنا ٣ : ١٦]...

" أن نَبْدُلَ حَيَاتِنَا " يسوع لم يعطِ فقط أشياء مما له، إنما أعطى ذاته للناس، طيلة حياته أولاً، التى كانت مسخرة لخدمتهم، ثم فى تقدمته الكبرى على الصليب...
ما يُطلب منا أن لا نكتفى نحن أيضاً بإعطاء بعض الوقت أو المال للغير، بل أن يكون الغير شغلنا الشاغل وموضوع إهتمامنا الدائم...
المطلوب أن لا نعود نحن مركز إهتمام ذواتنا بل أن يصبح الغير هم مركز الإهتمام،
كما كتب الرسول بولس:

[فَيَجِبُ عَلَيْنَا نَحْنُ الْأَقْوِيَاءُ أَنْ نَحْتَمِلَ أَوْعَافَ الضُّعَفَاءِ وَلَا نُرْضِيَ أَنْفُسَنَا. فَلْيُرْضَ كُلُّ وَاحِدٍ مِّنَّا قَرِيبَهُ لِلْخَيْرِ لِأَجْلِ الْبُنْيَانِ. لِأَنَّ الْمَسِيحَ أَيْضاً لَمْ يُرْضَ نَفْسَهُ بَلْ كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ: تَغْيِيرَاتُ مُعْيَرِيكَ وَقَعَتْ عَلَيَّ] [رومية ١٥ : ١ - ٣]...

ب - تتجلى بالمشاركة:

المسيح إذ أحبنا شاركنا حياتنا وآلامنا وموتنا...
ومحبتنا نحن أيضاً يجب أن تتجلى بالمشاركة...
قد يكون فى الشفقة ترفع عن الغير، ولذا فقد تجرح الناس وتضيف إلى آلامهم ألماً جديداً ومرارة...
لذلك أوصى الكتاب:

[فَرَحًا مَعَ الْفَرَحِينَ وَبُكَاءَ مَعَ الْبَاكِينَ] [رومية ١٢ : ١٥] ...

وأيضاً:

[اذْكُرُوا الْمُقِيدِينَ كَأَنَّكُمْ مُقِيدُونَ مَعَهُمْ، وَالْمُدْلِينَ كَأَنَّكُمْ أَنْتُمْ أَيْضًا فِي الْجَسَدِ] [عبرانيين ١٣ : ٣] ...

وقد عاش الرسول بولس المحبة إلى حدّ المشاركة الصميمة في المآسى التى أحسّها:
[مَنْ يَضْعُفُ وَأَنَا لَا أَضْعُفُ؟ مَنْ يَعْتُرُ وَأَنَا لَا أَلْتَهَبُ؟] [٢ كورونثوس ١١ : ٢٩] ...

ج - توجه الإرادة والعمل:

ولكن هذه المشاركة لا قيمة لها إن لم تتعدّ صعيد العاطفة...

فقد نربح ضميرنا بشكل رخيص مكتفين بأن " نشعر " مع الناس...

ولكن مشاعرنا لا تهم الله كثيراً...

أن ما يهمه إرادتنا...

المسيح لن يتلّ بتعابير غنائية عن المحبة وإنما عاشها فى عرق وجهاد وفى النهاية بتسلم ذاته للموت...

لذا، فليس المهم أن " أحس " نحو الناس بانعطاف، إنما المهم أن أوجّه إرادتى بالفعل نحو خدمتهم...

هذا ما علّمنا إيّاه الرسول يوحنا بقوله:

[أَيُّهَا الْأَوْلَادُ الصِّغَارُ، لَا يَجِبُ أَنْ تَكُونَ مَحَبَّتًا مُجَرَّدَ ادِّعَاءِ بِالْكَلَامِ وَاللِّسَانِ، بَلْ تَكُونَ مَحَبَّةَ عَمَلِيَّةٍ حَقَّةٍ] [١ يوحنا ٣ : ١٨] ...

د - مجانية، غير مشروطة:

لقد كان الله هو البادئ بالمحبة، إذ أن الإله المتجسّد بذل نفسه عنا بغض النظر عن عدائنا له، عن رفضنا إيّاه...

لقد أحبنا مجاناً، دون قيد أو شرط، لا لسبب آخر سوى حبّه المجانى...

هذا ما حدّثنا عنه الرسول بولس بقوله:

[لِأَنَّ الْمَسِيحَ إِذْ كُنَّا بَعْدُ ضِعَفَاءَ مَاتَ فِي الْوَقْتِ الْمُعَيَّنِ لِأَجْلِ الْفُجَّارِ. فَإِنَّهُ بِالْجَهْدِ يَمُوتُ أَحَدًا لِأَجْلِ بَارٍّ. رَبَّمَا لِأَجْلِ الصَّالِحِ يَجْسُرُ أَحَدٌ أَيْضًا أَنْ يَمُوتَ. وَلَكِنَّ اللَّهَ بَيْنَ مَحَبَّتِهِ لَنَا لِأَنَّهُ وَنَحْنُ بَعْدُ خُطَاةٌ مَاتَ الْمَسِيحُ لِأَجْلِنَا.] [رومية ٥ : ٦ - ٨] ...

وبالمعنى نفسه كتب الرسول يوحنا:

[وَفِي هَذَا نَرَى الْمَحَبَّةَ الْحَقِيقِيَّةَ، لَا مَحَبَّتَنَا نَحْنُ لِلَّهِ، بَلْ مَحَبَّتَهُ هُوَ لَنَا. فَبِدَافِعِ مَحَبَّتِهِ، أُرْسِلَ ابْنُهُ كَفَّارَةً لِخَطَايَانَا] [١ يوحنا ٤ : ١٠] ...

هكذا يجب أن تكون محبتنا للناس مجانية كمحبة يسوع لنا...

يجب أن نحبهم مهما كانت صفاتهم، مهما كان إنسجامهم أو عدم إنسجامهم معنا، مهما كانت علاقاتهم بنا وتصرفاتهم نحونا:

[وَإِنْ أَحْبَبْتُمْ الَّذِينَ يُحِبُّونَكُمْ فَأَيُّ فَضْلٍ لَكُمْ؟ فَإِنَّ الْخُطَاةَ أَيْضًا يُحِبُّونَ الَّذِينَ يُحِبُّونَهُمْ. وَإِذَا أَحْسَنْتُمْ إِلَى الَّذِينَ يُحْسِنُونَ إِلَيْكُمْ فَأَيُّ فَضْلٍ لَكُمْ؟ فَإِنَّ الْخُطَاةَ أَيْضًا يَفْعَلُونَ هَكَذَا. وَإِنْ أَقْرَضْتُمُ الَّذِينَ تَرْجُونَ أَنْ تَسْتَرُدُّوا مِنْهُمْ فَأَيُّ فَضْلٍ لَكُمْ؟ فَإِنَّ الْخُطَاةَ أَيْضًا يُقْرَضُونَ الْخُطَاةَ لِكَيْ يَسْتَرُدُّوا مِنْهُمْ الْمِثْلَ.

بَلْ أَحِبُّوا أَعْدَاءَكُمْ وَأَحْسِنُوا وَأَقْرَضُوا وَأَنْتُمْ لَا تَرْجُونَ شَيْئًا فَيَكُونَ أَجْرُكُمْ عَظِيمًا وَتَكُونُوا بَنِي الْعَلِيِّ فَإِنَّهُ مُنْعِمٌ عَلَى غَيْرِ الشَّاكِرِينَ وَالْأَشْرَارِ] [لوقا ٦: ٣٢ - ٣٥]...

المسيحي هو دومًا البادئ بالمحبة كما ان المسيح هو المبادر بالحب نحونا...
لقد كنّا غرباء عنه، ضائعين في متاهات عبادة الذات، ولكنه أتى إلينا - ولا يزال يأتي - فجعلنا قريبين إذ غمرنا بحبه المبدول...

هكذا علمنا من هو القريب...

لقد كان اليهود يعتقدون أن القريب، الذي تتوجّب عليهم محبّته، هو من كان يشاركهم في الجنس والدين..

وذات يوم سأل أحد معلّمي الناموس يسوع قائلاً : من هو قريبي؟...

فلم يجبه مباشرة بلّ روى له مثل السامري الصالح:

[إِنْسَانٌ كَانَ نَازِلًا مِنْ أُورُشَلِيمَ إِلَى أَرِيحَا فَوَقَعَ بَيْنَ لُصُوصَ فَعَرَّوهُ وَجَرَّحُوهُ وَمَضَوْا وَتَرَكَوهُ بَيْنَ حَيٍّ وَمَيِّتٍ. فَعَرَضَ أَنْ كَاهِنًا نَزَلَ فِي تِلْكَ الطَّرِيقِ فَرَأَاهُ وَجَازَ مُقَابَلَهُ. وَكَذَلِكَ لَاحِيٌّ أَيْضًا إِذْ صَارَ عِنْدَ الْمَكَانِ جَاءَ وَنَظَرَ وَجَازَ مُقَابَلَهُ. وَلَكِنْ سَامِرِيًّا مُسَافِرًا جَاءَ إِلَيْهِ وَلَمَّا رَأَاهُ تَحَنَّنَ فَتَقَدَّمَ وَضَمَدَ جَرَاحَاتِهِ وَصَبَّ عَلَيْهَا زَيْتًا وَخَمَرًا وَأَرْكَبَهُ عَلَى دَابَّتِهِ وَأَتَى بِهِ إِلَى فُنْدُقٍ وَاعْتَنَى بِهِ. وَفِي الْغَدِ لَمَّا مَضَى أَخْرَجَ دِينَارَيْنِ وَأَعْطَاهُمَا لِصَاحِبِ الْفُنْدُقِ وَقَالَ لَهُ: اعْتِنَ بِهِ وَمَهْمَا أَنْفَقْتَ أَكْثَرَ فَعِنْدَ رُجُوعِي أَوْفِيكَ. فَأَيُّ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةِ تَرَى صَارَ قَرِيبًا لِلَّذِي وَقَعَ بَيْنَ اللَّصُوصِ؟ فَقَالَ: الَّذِي صَنَعَ مَعَهُ الرَّحْمَةَ. فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: اذْهَبْ أَنْتَ أَيْضًا وَاصْنَعْ هَكَذَا] [لوقا ١٠: ٢٥ - ٣٧]...

هنا فجر يسوع وصية المحبة التي كانت في العهد القديم، إذ أعطانا أبعادًا شاسعة وجعلها تتخطى كلّ الحدود...

علمنا أن القريب ليس من هو قريبي، أي من تربطني به روابط اللحم والدم، روابط العاطفة أو المصلحة، روابط الرأي الواحد، والمجتمع الواحد...

إنّما قريبي هو من أصير أنا قريباً منه بمحبتى له...

القريب هو من أقترّب أنا منه بالمحبّة...

إننى أصبح قريباً لكل إنسان - ويصبح كل إنسان قريبي - إذا أحببته، ولو لم يكن بين هذا الإنسان وبينى أى رابط بشرى...

أكثر من ذلك، إذا كان إنسان ما عدوّى، فمحبتى غير المشروطة له تجعله قريباً، كما أن المسيح صار قريباً لى، وقد كنت عدوّه، إذ بذل نفسه عنيّ...

هـ - موجهة بصورة خاصة إلى المتألّمين:

تلك المحبّة للقريب يجب أن تشمل بنوع خاص البشر المتألّمين، الذين هم بحاجة خاصة إليها...

إن كنّا نحب المسيح فلنا أن نرى فى كلّ معذبى الأرض وجهه الدامى المكلّل بالشوك وجسده الممزّق وكرامته المداسة من الناس ونفسه الحزينة حتى الموت...

ذلك أن الرب نفسه جعل تلك المطابقة بين المتألّمين وبينه، فأقام وحدة بينه وبين الجائعين والعطاش والعراة والغرباء والمرضى والمسجونين:

[لَأَنِّي جُعْتُ فَأَطْعَمْتُهُمْ. عَطِشْتُ فَسَقَيْتُهُمْ. كُنْتُ غَرِيباً فَأَوَيْتُهُمْ. غُرِياناً فَكَسَوْتُهُمْ. مَرِيضاً فَزَرْتُهُمْ. مَحْبُوساً فَأَتَيْتُهُمْ إِلَى] [متى ٢٥: ٣٥، ٣٦]...

هذا ما سوف يقوله الرب للأبرار فى اليوم الأخير، مضيفاً:

[فَيُجِيبُ الْمَلِكُ: الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ: بِمَا أَتُّكُمْ فَعَلْتُمُوهُ بِأَحَدِ إِخْوَتِي هَؤُلَاءِ الْأَصَاغِرِ فَبِي فَعَلْتُمْ] [متى ٢٥: ٤٠]...

والصغار هؤلاء هم البؤساء والضعفاء الذين هم بنوع خاص أخوة يسوع إذ لم يشارك الرب البشر أمجادهم وغناهم بلّ إرتضى أن يشاركهم بؤسهم وفقرهم...

المألّمون إمتداد للمسيح المتألّم...

ولذلك كان أحد الآباء الروحيين يقول:

{ إن شئتم أن تلمسوا اليوم المسيح كما لمسها توما، فما عليكم إلا أن تحتكوا بإنسان بئس }...

لذا، فموقفنا من البائسين لا يمكن أن يكون بحال من الأحوال موقف الترفع

والتفضّل، إنما هو موقف إحترام عميق لهؤلاء الذين ، وإن لم يدروا، وإن جدّفوا، هم فى بشاعة بؤسهم صورة لذاك الذى إرتضى أن يصبح:

[نَبَتْ فُدَامَهُ كَفَرُخْ وَكَعِرُقْ مِنْ أَرْضِ يَابَسَةٍ لَا صُورَةَ لَهُ وَلَا جَمَالَ فَنَنْظُرَ إِلَيْهِ وَلَا مَنَظَرَ
فَنَسْتَهَيِّهِ. مُحَنَّقَرٌ وَمَخْدُولٌ مِنَ النَّاسِ رَجُلٌ أَوْجَاعٌ وَمُخْتَبِرُ الْحُزْنِ وَكَمُسْتَرٍ عَنْهُ وَجُوهُنَا
مُحَنَّقَرٌ فَلَمْ نَعْتَدْ بِهِ] [أشعياء ٥٣ : ٢، ٣] ...

يُروى عن القديس يوحنا الذى كان بطريركًا للإسكندرية أوئل القرن السابع ودُعى " يوحنا الرحوم"، أنه عندما استلم مسئوليته البطريركية طلب من أعوانه أن يضعوا له لائحة بأسماء " سادته" ...

وعندما سألوه مستغربين من عسى يكون هؤلاء السادة؟ ...

أجابهم بأنهم فقراء الإسكندرية...

هذا هو الموقف المسيحى الأصيل...

ولكن محبة البؤساء والمحرومين لا يمكن أن تتخذ طابع العمل الفردى وحسب، لأنها عندئذ تكون ناقصة...

محبتنا المسيحية للبائسين تدعونا لرفض كل ما يكرس يؤسهم وحرمانهم فى الأنظمة الإقتصادية والسياسية والإجتماعية...

تلك المحبة تدعونا للنضال من أجل إقامة مجتمع يؤمن لمعدبى الأرض العدالة وشروط حياة كريمة...

هذا ما فهمه عدد متكاثر من المسحيين فى عصرنا الذين فى كل أقطار المعمورة يناضلون من أجل العدالة وكرامة الإنسان، مدفوعين لا بإعتبارات إنسانية وحسب بل بقناعتهم بأن كل ظلم يلحق بالإنسان إنما هو طعنة للمسيح فى الصميم... كل ما لم تفعلوه بأحد إخوتى هؤلاء الصغار فبى لم تفعلوا...

أمام الدماء النازفة من جراح محرومى الدنيا، لا يسع المسيحيين إلا أن يتذكروا عبارة باسكال الشهيرة:

{ المسيح فى نزاع إلى منتهى الدهر، فكيف يسعنا أن ننام؟ } ...

*** من قيامة المسيح نستمد المقدرة على محبة القريب:**

ولكن محبة القريب، كما حددناها، تلك المحبة غير المشروطة التى تتجه إلى الآخر من أجل ذاته وتبذل ذاتها من أجله، تلك المحبة لا تنسجم مع متطلبات " الإنسان العتيق" فينا، ذلك الإنسان الساقط، أسير الأناء، الذى يَعتبر ذاته مركزاً للكون ولا ينظر إلى الآخر إلا كوسيلة لإشباع شهوته أو حاجز دون بلوغ مأربه...

المحبة المسيحية تفرض أن نتخلق بأخلاق الله وهذا لا يتم لنا إلا باشتراكنا بقيامة المسيح
التي بها نصبح مساهمين في حياة الله وبالتالي في أخلاق الله...

المحبة المسيحية ثمرة القيامة التي نشترك بها كما رأينا بالتوبة وبالأسرار...
" الإنسان العتيق"، وهو في كل منا كامن ما حيينا، لا قدرة له على المحبة المسيحية
لأنه بعيد عن الله، في تفكك وموت...

الحياة الإلهية إذا تدفقت في كياننا تكون فينا إنساناً جديداً، مستعيداً صورة خالقه،
وتجعلنا بالتالي قادرين على محبة القريب...

لذا، كتب الرسول يوحنا إلى المسيحيين قائلاً لهم أن المحبة التي تجمع بينهم هي برهان
خروجهم من الموت إلى الحياة، أي برهان مساهمتهم في قيامة المسيح:
[إِنْ مَحَبَّتَنَا لِإِخْوَتِنَا تَبَيَّنَ لَنَا أَنَّنَا انْتَقَلْنَا مِنَ الْمَوْتِ إِلَى الْحَيَاةِ. فَالَّذِي لَا يُحِبُّ إِخْوَتَهُ، فَهُوَ
بَاقٍ فِي الْمَوْتِ] [١ يوحنا ٣ : ١٤]...

وقد كتب الرسول نفسه أيضاً:

[أَيُّهَا الْأَحِبَّاءُ، لِئُحِبَّ بَعْضُنَا بَعْضًا: لِأَنَّ الْمَحَبَّةَ تَصُدِّرُ مِنَ اللَّهِ. إِذَنْ، كُلُّ مَنْ يُحِبُّ، يَكُونُ
مَوْلُوداً مِنَ اللَّهِ وَيَعْرِفُ اللَّهَ (بالمعنى الكتابي: أى متحد بالله) . أَمَّا مَنْ لَا يُحِبُّ، فَهُوَ لَمْ
يَتَعَرَفْ بِاللَّهِ قَطُّ لِأَنَّ اللَّهَ مَحَبَّةٌ!] [١ يوحنا ٤ : ٧، ٨]...

لذا، تربط الكنيسة بين القيامة ومحبة الناس فتنشد في خدمة الفصح:

{ اليوم يوم القيامة ... فلنقل يا إخوة ونصف لمبغضينا عن كل شئ في القيامة {،
وكانها نذكرنا بذلك أن إشتراكنا في القيامة ينبوع محبتنا للآخرين...

ولكن إذا كانت محبة الإخوة ثمرة إشتراكنا في القيامة، فمن جهة أخرى، التمرس
عليها والجهاد من أجل إكتسابها هو مظهر أساسى لذلك المجهود، مجهود التوبة، الذى
به، كما رأينا، نقبل الإشتراك بصليب الرب فنصبح مشتركين في قيامته...

إن إجهاد تسليم ذواتنا للرب لا ينفصم عن الجهاد في سبيل محبة القريب:

[وَنَحْنُ أَنْفُسُنَا اخْتَبَرْنَا الْمَحَبَّةَ الَّتِي خَصَّنَا اللَّهُ بِهَا، وَوَضَعْنَا ثِقَتَنَا فِيهَا. إِنَّ اللَّهَ مَحَبَّةٌ. وَمَنْ
يَتَّبِعُ فِي الْمَحَبَّةِ، فَإِنَّهُ يَتَّبِعُ فِي اللَّهِ، وَاللَّهُ يَتَّبِعُ فِيهِ] [١ يوحنا ٤ : ١٦]...

محمل الكلام أن محبة القريب هي ثمرة القيامة وطريق القيامة في آن...

إن الاعتراف بالآخر شخصاً مستقلاً عن أهوائنا ومصالحنا، مهماً بحد ذاته، بعبارة
أخرى، الإعراف به على أنه آخر وليس مجرد إمتداد لشخصى، هذا الإعراف الذى
تقرضه المحبة المسيحية، " جحيم" بالفعل لـ " الإنسان العتيق" فى، إنسان الشهوة،
أسير عبادة الذات...

إنه إنسلاخ وموت...

ولكن من قبل أن يجتاز هذا الموت يشترك فى صليب المسيح ويبلغ إلى الله من خلال إنفتاحه للآخر فتتحقق " السماء " فى قلبه...

*ملحق:

١ - كان يوحنا ذهبى الفم، بطريرك القسطنطينية (الذى جرّد البطريركية من كل مظاهر الترف وعاش فيها فقيراً وتوفى سنة ٤٠٧ فى المنفى لتوبيخه الملوك) يخاطب بجرأة أغنياء عصره، معلناً إن إهمالهم للمساكين فى سبيل ترفهم هو إهمال للمسيح نفسه، ومن أقواله:

{ لقد أعطاكم الله سقفاً دون المطر لا لترصّعوه ذهباً فى حين أن الفقير يموت جوعاً. وأعطاكم ملابس لتتستروا لا لتزكّشوها بترف فى حين أن المسيح العارى يموت برداً. أعطاكم منزلاً لا لتسكنوه وحدكم بل لتستقبلوا فيه الآخرين، والأرض لا لتدبوا مواردها على الجوارى والراقصات والممثلين وعازفى المزمار والقيثارة ولكن لتسعفوا الجياع والعطاش... } ...

{ ماذا ينفع تزيين مائدة المسيح بأوان ذهبية إذا كان هو نفسه سموت جوعاً؟. فأشبعه أولاً حينما يكون جائعاً. وتنظر فيما بعد فى أمر تجميل مائدته بالنوافل ... } ...
{ فلا تزين الكنائس إن كان ذلك لإهمال أخيك فى الشدة، هذا الهيكل أكثر جلالاً من ذاك } ...

{ بينما كلبك متخم، يهلك المسيح جوعاً } ...
إنك تحترم هذا المذبح حينما ينزل إليه جسم المسيح ولكنك تهمل وتبقى غير مبالي حينما يفنى ذاك الذى هو جسم المسيح } ...

٢ - ويقول فرانسوا مورياك - الحائز على جائزة نوبل فى الأدب - فى محاضرة أمام ثلاثة آلاف شخص بمناسبة أسبوع المفكرين الكاثوليك، عنوانها: " الإقتداء بجلادى المسيح":
{ أيّا كانت مبرراتنا وأعدارنا، أقول أنه، بعد تسعة عشر قرناً من المسيحية، لا يظهر المسيح أبداً، لجلادى اليوم، فى المعدب، لا ينكشف الوجه المقدس أبداً فى وجه العربى الذى يهوى عليه مفوض الشرطة بقبضته (وذلك فى نضال المغاربة لنوال استقلالهم عام ١٩٥٤ وتعذيبهم من الشرطة الفرنسية) ألا تجدون غريباً أن يفكروا أبداً بإهمالهم المقيد بالعمود والمسلم إلى الجند، أن لا يسمعوا، من خلال صراخ ضمايرهم وأنينها صوته المعبود يقول: " بى تفعلونه". ذلك الصوت الذى سيدوى يوماً، ولن يكون عند ذاك متوسلاً، وسيصرخ بنا كلنا نحن الذى قبلنا وربما لأيدنا هذه الأشياء: " كنت هتذا

الشباب المحب لوطنه والمحارب من أجل ملكه، كنت هذا الأخ الذى كنت تريد أن ترغمه على خيانة أخيه...". كيف لا تعطى هذه النعمة أبداً لأحد هؤلاء الجلادين المعمدين؟ كيف لا يلقى جنود الفرقة أحياناً سوط الجلد ليركعوا عند أقدام ذاك الذى يجلدونه؟ { ... ٣ - ويقول " ألبير لحام" فى محاضرة عن " العدالة السياسية فى المسيحية" التى نشرت بمجلة " محاضرات الندوة" بتاريخ ١١/١٢/١٩٦٦ ، ص ٤٤ :
قلب المسيحية هو الإيمان بأن ابن الله إتخذ فى ذاته آلامنا طوعاً ليحررنا من الآلام.
ليست المسيحية، إذًا، كما يقول البعض، ديانة تدعو إلى الخنوع أمام الألم والظلم...
ليست المسيحية ديانة الألم...
إنما هى ديانة الفداء...

لا قيمة للألم فى نظرنا إلا إذا اقتبل، كما اقتبله المسيح، محبة بالله وبالأخرين...
المسيحى، إذا أراد أن يسير فى طريق سيده، لا بدّ له أن يكون مستعداً لإحتمال الألم والموت من أجل تحرير المتألمين والمظلومين والمستعبدين، لا بدّ أن يناضل حتى الدم من أجل العدالة...

هذا ما أوضحه الأستاذ " ألبير لحام" فى محاضرة ألقاها فى الندوة اللبنانية ضمن سلسلة محاضرات " العدالة فى المسيحية والإسلام". وفيما يلي مقطع منها:
{ فى وسط الجناح المخصص للمسيحية فى متحف الإلحاد فى مدينة لينجيراد يقوم تمثال كبير للسيد المسيح يزرع تحت وطأة صليب ثقيل. هذا التمثال، يقول لك الدليل، هو رمز المسيحية التى تدعو الناس إلى حمل الصليب والرضوخ للظلم والقبول بالألم والإستسلام للطغيان بانتظار حياة الآخرة. هذا التعريف الكاريكاتورى للمسيحية، كم يذكرنى بقول الرسول بولس:

[فَإِنَّ كَلِمَةَ الصَّلِيبِ عِنْدَ الْهَالِكِينَ جَهَالَةٌ وَأَمَّا عِنْدَنَا نَحْنُ الْمُخَلَّصِينَ فَهِيَ قُوَّةُ اللَّهِ] [١]

كورونثوس ١ : ١٨]...

فالصليب ليس عنوان الذل والخمول والإستسلام...

بل عنوان المحبة الإلهية الفادية...

والتضامن المطلق مع جميع الناس...

والمشاركة التامة للراحين تحت الظلم والطغيان...

والمجازفة الجريئة حتى الموت لتحريرهم جميعاً...

لأنه، كما تقول الرسالة إلى العبرانيين:

[فَإِذْ قَدْ تَشَارَكَ الْأَوْلَادُ فِي اللَّحْمِ وَالْدَّمِ اشْتَرَكَ هُوَ أَيْضًا كَذَلِكَ فِيهِمَا، لِكَيْ يُبَيِّدَ بِالْمَوْتِ ذَاكَ
الَّذِي لَهُ سُلْطَانُ الْمَوْتِ، أَيْ إِبْلِيسَ، وَيَعْتِقَ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَوْفًا مِنَ الْمَوْتِ كَانُوا جَمِيعًا كُلَّ
حَيَاتِهِمْ تَحْتَ الْعُبُودِيَّةِ] [عبرانيين ٢ : ١٤ ، ١٥] ...
فإذا كان المسيحى يلتزم قضية العدالة السياسية فى مجتمعه، فلأنه يسير فى خطى ذلك
الذى يلتزم بؤسنا وشقاءنا إذ لبس طبيعتنا وخاض معنا، كواحد منا، معركة الموت
والحياة، وفتح لنا بصليبه طريق النصر والرجاء وهو القائل:
[وَأَمَّا أَنَا فَقَدْ أَتَيْتُ لِيَكُونَ لَهُمْ حَيَاةٌ وَلِيَكُونَ لَهُمْ أَفْضَلُ] [يوحنا ١٠ : ١٠] ...

٥ - الصعود

* الصعود تتويج لعملية الفداء:

فالمجد الإلهى، كما رأينا، إجتاح إنسانية يسوع لما أسلمت بإرادتها ذاتها بالكلية على
الصليب...

هذا المجد الإلهى نفسه الذى أقام يسوع من بين الأموات كان كفيلاً بأن يصعده إلى
السماء، أى بأن يهب لإنسانيته الإشتراك التام بالحياة الإلهية وبالسيادة الإلهية على
جميع الكائنات...

هكذا دخلت طبيعة يسوع الإنسانية، عندما بلغت الكمال بالصليب، فى ذلك المجد
الإلهى الذى كانت طبيعته الإلهية تتمتع به منذ الأزل...

هذا ما أشار إليه الرب عندما خاطب الأب قبيل ذهابه إلى الآلام قائلاً له:

[وَالْآنَ مَجْدَنِي أَنْتَ أَيُّهَا الْأَبُ عِنْدَ ذَاتِكَ بِالْمَجْدِ الَّذِي كَانَ لِي عِنْدَكَ قَبْلَ كَوْنِ الْعَالَمِ] [يوحنا ١٧ : ٥] ...

هكذا كان إنحدار المسيح بإختياره إلى دركات الموت طريقاً لبلوغه ذروة المجد...

هذا ما أشار إليه الرسول بولس عندما كتب:

[الَّذِي نَزَلَ هُوَ الَّذِي صَعِدَ أَيْضًا فَوْقَ جَمِيعِ السَّمَاوَاتِ، لِكَيْ يَمْلَأَ الْكُلَّ] [أفسس ٤ : ١٠] ...

عندما إبتعد ابن الله بتواضعه الفائق، إلى أبعد حدٍّ عن أصله الإلهى، عند ذاك،
وبفعل هذا التواضع بالذات، عاد بجسده إلى ذلك الأصل الإلهى...

هذا ما انشده الرسول فى رسالته إلى أهل فيليبى:

[الَّذِي إِذْ كَانَ فِي صُورَةِ اللَّهِ، لَمْ يَحْسِبْ خُلْسَةً أَنْ يَكُونَ مُعَادِلًا لِلَّهِ. لَكِنَّهُ أَخْلَى نَفْسَهُ، أَخَذَا
صُورَةَ عَبْدٍ، صَائِرًا فِي شِبْهِ النَّاسِ. وَإِذْ وُجِدَ فِي الْهَيْئَةِ كَانِسَانٍ، وَضَعَ نَفْسَهُ وَأَطَاعَ حَتَّى

الْمَوْتَ مَوْتَ الصَّلِيبِ. لِذَلِكَ رَفَعَهُ اللَّهُ أَيْضًا، وَأَعْطَاهُ إِسْمًا فَوْقَ كُلِّ إِسْمٍ لِكَيْ تَجُتَوَّ بِاسْمِ
يَسُوعَ كُلُّ رُكْبَةٍ مِمَّنْ فِي السَّمَاءِ وَمَنْ عَلَى الْأَرْضِ وَمَنْ تَحْتَ الْأَرْضِ، وَيَعْتَرَفَ كُلُّ لِسَانٍ
أَنَّ يَسُوعَ الْمَسِيحَ هُوَ رَبُّ لِمَجْدِ اللَّهِ الْآبِ] [فيلبي ٢ : ٦ - ١١] ...

* تلك هي السماء التي صعد إليها يسوع:

تلك هي السماء التي صعد إليها يسوع والذي كان إرتقاؤه في الفضاء أمام التلاميذ
صورة ورمزًا لها...

إن عددًا من المؤمنين يخلطون بين السماء المادية و"سما" الله...

يعتقدون أن الله كائن يقبع في أجواء الفضاء العليا...

ويشاركونهم عدد من غير المؤمنين بهذا التفكير...

هكذا صرّح رائد الفضاء " تيتوف " أن الله غير موجود لأنه لم يجده أثناء رحلته
الفضائية...

هذا تصوّر صبياني لا يليق بالعقل الإنساني ولا بطبيعة الله...

فالله ليس قابلاً في أجواء الفضاء الخارجي العليا، إنه كائن لا يحده مكان وهو

حاضر بمعرفته وقدرته وحبّه وعنايته في كل مكان...

إنما الإنسان لكونه كائنًا حسيًا ومحدودًا، لا يستطيع أن يعبر عن الله إلا بصورة
حسية، ناقصة...

السماء المادية تعلو عن الأرض، لذلك إتخذت في كل الأديان صورة عن تعالى الله...

عبارة " سما " نفسها مستقاة من " سما " التي تعني " علا "...

السماء المادية رمز إذا لتعالى الله...

هذا ما عبّر عنه أشعيا النبي عندما كتب:

[لَأَنَّ أَفْكَارِي لَيْسَتْ أَفْكَارُكُمْ وَلَا طُرُقُكُمْ طُرُقِي يَقُولُ الرَّبُّ. لِأَنَّهُ كَمَا عَلَتْ السَّمَاوَاتُ عَنِ

الْأَرْضِ هَكَذَا عَلَتْ طُرُقِي عَنِ طُرُقِكُمْ وَأَفْكَارِي عَنِ أَفْكَارِكُمْ] [أشعيا ٥٥ : ٨ ، ٩] ...

صعود المسيح إلى السماء يعنى، إذاً، إشتراك إنسانيته في تعالى الله، في حياة الله، في

مجد الله، في سيادة الله...

* لكن يسوع صعد إلى السماء ليصعد البشرية معه:

نزعة الإنسان العميقة هي أن يبلغ إلى السماء، أى إلى الإشتراك في الحياة الإلهية...

هذا المعنى العميق لحنيته إلى القدرة والمعرفة والعدالة والحبّ والسعادة والخلود...

ولكنه يطمع أن يبلغ السماء بفعله الذاتي...

فأتباع الديانات الوثنية كانوا ولا يزالون يعتقدون أن الإنسان يستطيع أن يبلغ إلى عالم الإلوهة بواسطة طقوس يقيمها أو تقشفات ينصرف إليها...

كذلك نرى الكثيرين من البشر في عالمنا الحديث يحملون بتأليه الإنسانية بوسائل بشرية بحثة كالاختراعات العلمية والأنظمة الإجتماعية...

تجاه تلك المواقف تعلن المسيحية أن الإنسان لا يستطيع بفعله الذاتي أن يتخلص من حدوده ويبلغ إلى التأليه، إنه لا يسعه بمجرد مبادرته الذاتية أن يتحرر جذرياً من الشقاء والخطيئة والعزلة والموت...

السماء لا تقتحم إقحاماً إنما تنحدر إلينا هبة مجانية...

لم يكن باستطاعة الإنسان أن يبلغ إلى الله لو لم ينحدر الله إلى الإنسان ليرفعه إليه...

هذا ما عبّر عنه الرب يسوع عندما قال لنيقوديموس:

[ولَيْسَ أَحَدٌ صَعِدَ إِلَى السَّمَاءِ إِلَّا الَّذِي نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ ابْنُ الْإِنْسَانِ الَّذِي هُوَ فِي السَّمَاءِ] [

يوحنا ٣: ١٣]...

طريق السماء أى الحياة الإلهية بما تتضمنه من إنتصار نهائى على الخطيئة والشقاء والعزلة والموت، إنما فتحه لنا المسيح عندما عاد بالجسد إلى مجده الذى كان له منذ الأزل...

بصعوده دشّن صعودنا نحن...

هذا معنى صلاته إلى الآب قبل الآلام:

[أَيُّهَا الْآبُ أَرِيدُ أَنْ هُوَ لَاءَ الَّذِينَ أُعْطِيتَنِي يَكُونُونَ مَعِيَ حِينَ أَكُونُ أَنَا لِيَنْظُرُوا مَجْدِي

الَّذِي أُعْطِيتَنِي لِأَنَّكَ أَحْبَبْتَنِي قَبْلَ إِشْءِ الْعَالَمِ] [يوحنا ١٧: ٢٤]...

بصعود الرب يسوع المسيح بدأ تأليهنا نحن:

[اللَّهُ الَّذِي هُوَ غَنِيٌّ فِي الرَّحْمَةِ، مِنْ أَجْلِ مَحَبَّتِهِ الْكَثِيرَةِ الَّتِي أَحَبَّنَا بِهَا، وَتَحْنُ أَمْوَاتٌ

بِالْخَطَايَا أَحْيَانَا مَعَ الْمَسِيحِ - بِاللَّعْمَةِ أَنْتُمْ مُخَلَّصُونَ وَأَقَامَنَا مَعَهُ، وَأَجَلَسْنَا مَعَهُ فِي

السَّمَاوِيَّاتِ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ] [أفسس ٢: ٤ - ٦]...

*** لقد فتح لنا يسوع بصعوده طريق السماء:**

أى طريق الإشتراك فى الحياة الإلهية...

بقى علينا أن نسلك هذه الطريق...

ولكن طريقنا لا يمكن أن تكون غير طريق يسوع...

وطريق يسوع إلى القيامة ثم إلى الصعود كانت طريق الإنسلاخ المعطاء...

طريق نكران الذات فى إتجاه محب إلى الله والناس...

لذا من أراد الإشتراك فى الصعود وجب عليه أن ينسلخ، بجهد هو عملية الحياة كلها، عن التمتع الأنانى بخيرات الدنيا، كى يتجه، مع المسيح وبمؤازرة نعمته، إلى فوق، أى إلى تلك الشركة مع الله التى أعدت لنا...

هذا ما علمنا إياه الرسول بولس عندما كتب إلى أهل كولوسى:

[فَإِنْ كُنْتُمْ قَدْ قُمْتُمْ مَعَ الْمَسِيحِ فَاطْلُبُوا مَا فَوْقَ، حَيْثُ الْمَسِيحُ جَالِسٌ عَنْ يَمِينِ اللَّهِ. اهْتَمُّوا بِمَا فَوْقَ لَا بِمَا عَلَى الْأَرْضِ، لِأَنَّكُمْ قَدْ مُمُّمٌ وَحَيَاكُمْ مُسْتَتِرَةٌ مَعَ الْمَسِيحِ فِي اللَّهِ] [كولوسى ٣: ١ - ٣]...

*** الصعود لا يعنى إذا هروباً من الأرض وواجباتها:**

ولكن عبارة الرسول: [اهْتَمُّوا بِمَا فَوْقَ لَا بِمَا عَلَى الْأَرْضِ] لا تعنى ، كما يعتقد

البعض، أنه ينبغى للمسيحيين أن يهملوا الأرض، أن يتركوها وشأنها...

هذا التفسير بالطبع مرفوض لأنه يناهى محبة القريب التى بدونها، كما رأينا، لا يمكننا أن نقترّب من الله...

محبة الإخوة تفرض أن نهتم بشئونهم ليس الروحية وحسب بل الأرضية أيضاً (كما أشبع المسيح الجوع وشفى المرضى)، أن نعالج إذاً من أجلهم شئون الدنيا (بالعمل والعلم والنضال الاجتماعى مثلاً)...

عبارة الرسول تعنى إذاً أن نعرض عن التمتع الأنانى، النهم بخيرات الأرض...

من إنشغل بهذا التمتع تغرّب عن الله وعن الآخرين لأنه غارق فى شهوته...

أما المسيحي الذى يكافح أنانية الشهوة فإنه بمشاركته صليب الرب، يساهم فى صعوده، وإذ ينال هكذا الحياة الإلهية لا يصبح غريباً عن الناس وهمومهم بل قريباً منهم كل القرب بتلك المحبة التى فيه، المستمدة من محبة الله لخلائقه...

الصعود لا يعنى إذاً هروباً من الأرض وواجباتها ومشاكلها وآلامها...

هذا الهروب، أيّا كانت مبرراته، يدل بالعكس على أننا لم نصعد بعد، على أننا لا

نزال أسرى " الإنسان العتيق " فىنا يؤلّه راحته وطمأنينته...

الصعود هو بالعكس إلّتزام كلى لكلّ قضايا الإنسان فى الأرض...

إنه حضور كله حب وبذل...

ذلك أن السماء، كما سبق فقلنا، ليست فوق الغيوم ولكنها، فى صميم كياننا، إشتراك، منذ الآن، فى حياة الله...

لقد قال الرب يسوع:

[وَلَا يَقُولُونَ: هُوَذَا هَهُنَا أَوْ: هُوَذَا هُنَاكَ لِأَنَّ هَا مَلَكُوتُ اللَّهِ دَاخِلَكُمْ] [لوقا: ١٧: ٢١]...

وملكوت الله هو الحياة الإلهية، هو بعبارة أخرى السماء...

إذًا، المسيحى الحقيقى يصعد إلى السماء دون أن يترك الأرض، إنه يعيش على الأرض سماويًا أى مشتركًا فى حياة الله إلى أن تكتمل فيه فى اليوم الأخير...

هذا ما عبّر عنه الرب يسوع عندما قال عن تلاميذه، مخاطبًا الآب:

[وَلَسْتُ أَنَا بَعْدُ فِي الْعَالَمِ وَأَمَّا هَؤُلَاءِ فَهُمْ فِي الْعَالَمِ وَأَنَا آتِي إِلَيْكَ. أَيُّهَا الْآبُ الْقُدُّوسُ احْفَظْهُمْ فِي إِسْمِكَ. الَّذِينَ أُعْطَيْتَنِي لِيَكُونُوا وَاحِدًا كَمَا نَحْنُ.

أَنَا قَدْ أُعْطَيْتُهُمْ كَلَامَكَ وَالْعَالَمُ أَبْغَضَهُمْ لِأَنَّهُمْ لَيْسُوا مِنْ الْعَالَمِ كَمَا أَنِّي أَنَا لَسْتُ مِنَ الْعَالَمِ

لَسْتُ أَسْأَلُ أَنْ تَأْخُذَهُمْ مِنَ الْعَالَمِ بَلْ أَنْ تَحْفَظَهُمْ مِنَ الشَّرِّيرِ] [يوحنا ١٧ : ١١ ، ١٤ ، ١٥

المؤمن المشترك فى صعود ربه يتخلق بأخلاق الله:

[الدِّيَانَةُ الطَّاهِرَةُ النَّقِيَّةُ عِنْدَ اللَّهِ الْآبِ هِيَ هَذِهِ: إِفْتِقَادُ الْيَنَامَى وَالْأْرَامِلِ فِي ضَيْقَتِهِمْ، وَحِفْظُ

الْإِنْسَانِ نَفْسَهُ بَلَا دَنَسٍ مِنَ الْعَالَمِ] [يعقوب ١ : ٢٧] ...

ولكن الحياة الإلهية الكامنة فيه هى فى جوهرها حبّ وعطاء، لذلك لا يسعها إلا أن

تنسكب وتنتب فيما حولها، ناشرة فى الأرض عدلاً وسلاماً وفرحاً وإخاء...

هكذا يُشعّ الملكوت من المؤمنين ليحوّل الأرض كما تُخمر خميرة صغيرة العجين

كله:

[يُشْبِهُ مَلَكُوتُ السَّمَاوَاتِ خَمِيرَةً أَخَذَتْهَا امْرَأَةٌ وَخَبَأَتْهَا فِي ثَلَاثَةِ أَكْيَالٍ دَقِيقٍ حَتَّى اخْتَمَرَ

الْجَمِيعُ] [متى ١٣ : ٣٣] ...

بهذا المعنى دعا الرب يسوع المؤمنين به :

[مِلْحَ الْأَرْضِ] [متى ٥ : ١٣] ...

الملح يختلف عن الطعام ولكنه يختلط بالطعام إختلاطاً صميمياً ليطعمه كله...

هكذا يحمل المؤمن فى ذاته حياة الله التى تفق العالم ولكنه يثبتها فى كل مرافق

الوجود الأرضى، فى الحياة العائلية والمهنية والاجتماعية والسياسية...

حبّه للناس وإشتياقه إلى رؤية الملكوت قد تحقق تماماً يدفعانه إلى رسم صورته فى

الكون...

لذلك، لا يسعه إلا أن يجاهد من أجل كل حق وخير الأرض، من أجل العدل والسلام

والإخاء بين البشر، من أجل كرامة كل إنسان ونمو شخصيته، من أجل تقهقر الشقاء

والألم والمرض والموت...

* ولكن المسيحى يعلم أن تحوّلَهُ هو وتحوّل الكون لم يكتملا إلا عند المجئ الثانى فى

نهاية الأزمنة:

بصعود المسيح ألقى نور الله في صميم الدنيا وبدأت الأرض تتحول إلى سماء، ولكن في نهاية الأزمنة :

[وَعِنْدَنَا الْكَلِمَةُ النَّبَوِيَّةُ، وَهِيَ أَثْبَتُ، الَّتِي تَفْعَلُونَ حَسَنًا إِنْ انْتَبَهْتُمْ إِلَيْهَا كَمَا إِلَى سِرَاجٍ مُبِيرٍ فِي مَوْضِعٍ مُظْلِمٍ، إِلَى أَنْ يَنْفَجِرَ النَّهَارُ وَيَطْلُعَ كَوْكَبُ الصُّبْحِ فِي قُلُوبِكُمْ] [٢ بطرس ١ : ١٩] ...

ويجدد الكون :

[وَمَتَى أَخْضَعَ لَهُ الْكُلَّ فَحِينَئِذٍ الْابْنُ نَفْسُهُ أَيْضًا سَيَخْضَعُ لِلَّذِي أَخْضَعَ لَهُ الْكُلَّ كَيْ يَكُونَ اللَّهُ الْكُلُّ فِي الْكُلِّ] [١ كورونثوس ١٥ : ٢٨] ...

صعود الرب إذا مقدمة لمجيئه الثاني الظافر كما يتضح من الحادثة نفسها:

[الْكَلَامُ الْأَوَّلُ أَنْشَأْتُهُ يَا ثَاوُفِيلُسُ عَنْ جَمِيعِ مَا ابْتَدَأَ يَسُوعُ يَفْعَلُهُ وَيَعْلَمُ بِهِ. إِلَى الْيَوْمِ الَّذِي ارْتَفَعَ فِيهِ بَعْدَ مَا أَوْصَى بِالرُّوحِ الْقُدُسِ الرُّسُلَ الَّذِينَ اخْتَارَهُمْ. الَّذِينَ أَرَاهُمْ أَيْضًا نَفْسَهُ حَيًّا بِيرَاهِينَ كَثِيرَةٍ بَعْدَ مَا تَأَلَّمَ وَهُوَ يَظْهَرُ لَهُمْ أَرْبَعِينَ يَوْمًا وَيَتَكَلَّمُ عَنِ الْأُمُورِ الْمُخْتَصَّةِ بِمَلَكُوتِ اللَّهِ. وَفِيمَا هُوَ مُجْتَمِعٌ مَعَهُمْ أَوْصَاهُمْ أَنْ لَا يَبْرَحُوا مِنْ أُورُشَلِيمَ بَلْ يَنْتَظِرُوا } مَوْعِدَ الْآبِ الَّذِي سَمِعْتُمُوهُ مِنِّي، لِأَنَّ يُوْحَنَّا عَمَّدَ بِالْمَاءِ وَأَمَّا أَنْتُمْ فَسَتَنْتَعِمُونَ بِالرُّوحِ الْقُدُسِ لَيْسَ بَعْدَ هَذِهِ الْأَيَّامِ بكَثِيرٍ. } أَمَّا هُمْ الْمُجْتَمِعُونَ فَسَأَلُوهُ: { يَا رَبُّ هَلْ فِي هَذَا الْوَقْتِ تَرُدُّ الْمَلِكَ إِلَى إِسْرَائِيلَ؟ } فَقَالَ لَهُمْ: { لَيْسَ لَكُمْ أَنْ تَعْرِفُوا الْأَرْمَنَةَ وَالْأَوْقَاتَ الَّتِي جَعَلَهَا الْآبُ فِي سُلْطَانِهِ. لَكِنَّكُمْ سَتَنَالُونَ قُوَّةَ مَتَى حَلَّ الرُّوحُ الْقُدُسُ عَلَيْكُمْ وَتَكُونُونَ لِي شُهَدَاءَ فِي أُورُشَلِيمَ وَفِي كُلِّ الْيَهُودِيَّةِ وَالسَّامِرَةِ وَإِلَى أَقْصَى الْأَرْضِ } . وَلَمَّا قَالَ هَذَا ارْتَفَعَ وَهُمْ يَنْظُرُونَ وَأَخَذَتْهُ سَحَابَةٌ عَنْ أَعْيُنِهِمْ. وَفِيمَا كَانُوا يَشْخَصُونَ إِلَى السَّمَاءِ وَهُوَ مُنْطَلِقٌ إِذَا رَجُلَانِ قَدْ وَقَفَا بِهِمْ بِلِبَاسٍ أَبْيَضَ. وَقَالَا: { أَيُّهَا الرِّجَالُ الْجَلِيلِيُّونَ مَا بِالْكُمْ وَاقِفِينَ تَنْتَظِرُونَ إِلَى السَّمَاءِ؟ إِنَّ يَسُوعَ هَذَا الَّذِي ارْتَفَعَ عَنْكُمْ إِلَى السَّمَاءِ سَيَأْتِي هَكَذَا كَمَا رَأَيْتُمُوهُ مُنْطَلِقًا إِلَى السَّمَاءِ } [أعمال الرسل ١ : ١ - ١١] ...

لذا ينتظر المؤمن هذا الكون الجديد:

[وَلَكِنَّا بِحَسَبِ وَعْدِهِ نَنْتَظِرُ سَمَاوَاتٍ جَدِيدَةً وَأَرْضًا جَدِيدَةً، يَسْكُنُ فِيهَا الْبَرُّ] [٢ بطرس ٣ : ١٣] ...

هذا الكون الذي وصفه يوحنا الرسول في سفر الرؤيا قائلا:

[وَأَنَا يُوْحَنَّا رَأَيْتُ الْمَدِينَةَ الْمُقَدَّسَةَ أُورُشَلِيمَ الْجَدِيدَةَ نَازِلَةً مِنَ السَّمَاءِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُهَيَّاةً كَعَرُوسٍ مُزَيَّنَةٍ لِرَجُلِهَا.

وَسَمِعْتُ صَوْتًا عَظِيمًا مِنَ السَّمَاءِ قَائِلًا: " هُوَذَا مَسْكَنُ اللَّهِ مَعَ النَّاسِ، وَهُوَ سَيَسْكُنُ مَعَهُمْ، وَهُمْ يَكُونُونَ لَهُ شَعْبًا. وَاللَّهُ نَفْسُهُ يَكُونُ مَعَهُمْ إِلَهًا لَهُمْ. وَسَيَمْسَحُ اللَّهُ كُلَّ دَمْعَةٍ مِنْ عَيْنِهِمْ، وَالْمَوْتُ لَا يَكُونُ فِي مَا بَعْدُ، وَلَا يَكُونُ حُزْنٌ وَلَا صُرَاخٌ وَلَا وَجَعٌ فِي مَا بَعْدُ، لِأَنَّ الْأُمُورَ الْأُولَى قَدْ مَضَتْ".

وَقَالَ الْجَالِسُ عَلَى الْعَرْشِ: "هَا أَنَا أَصْنَعُ كُلَّ شَيْءٍ جَدِيدًا". وَقَالَ لِي: "اكَتُبْ، فَإِنَّ هَذِهِ الْأَقْوَالَ صَادِقَةٌ وَأَمِينَةٌ" [رؤيا ٢١ : ٢ - ٥]...

تلك الأرض المتجددة التى أصبحت سماء حضور الله الكامل فيها هى موطننا الحقيقى...

بهذا المعنى ورد فى الرسالة إلى العبرانيين:

[لِأَنَّ لَيْسَ لَنَا هُنَا مَدِينَةً بَاقِيَةً، لَكِنَّا نَطْلُبُ الْعَتِيدَةَ] [عبرانيين ١٣ : ١٤]... وفى الرسالة إلى أهل فيليبي:

[فَإِنَّ سِيرَتَنَا نَحْنُ هِيَ فِي السَّمَاوَاتِ، الَّتِي مِنْهَا أَيْضًا نَنْتَظِرُ مُخْلَصًا هُوَ الرَّبُّ يَسُوعُ الْمَسِيحُ، الَّذِي سَيُغَيِّرُ شَكْلَ جَسَدِ تَوَاضُعِنَا لِيَكُونَ عَلَى صُورَةِ جَسَدِ مَجْدِهِ، بِحَسَبِ عَمَلِ اسْتِطَاعَتِهِ أَنْ يُخْضِعَ لِنَفْسِهِ كُلَّ شَيْءٍ] [فيليبي ٣ : ٢٠ ، ٢١]...

*** ولكننا ندخل هذا الكون المتجدد منذ الآن:**

بهذا المعنى قال الرب يسوع:

[وَلَكِنْ تَأْتِي سَاعَةٌ وَهِيَ الْآنَ حِينَ السَّاجِدُونَ الْحَقِيقِيُّونَ يَسْجُدُونَ لِالْأَبِ بِالرُّوحِ وَالْحَقِّ لِأَنَّ الْأَبَ طَالِبٌ مِثْلَ هَؤُلَاءِ السَّاجِدِينَ لَهُ] [يوحنا ٤ : ٢٣]... التجديد سيكتمل فى اليوم الأخير ولكنه منذ الآن قد بدأ...

ينبغى أن ندخل فيه منذ الآن حتى يتحقق فينا كاملاً عند مجئ الرب الثانى...

المسيحى لا ينتظر مجئ يوم الرب وحسب ولكنه:

[مُنْتَظِرِينَ وَطَالِبِينَ سُرْعَةَ مَجِيءِ يَوْمِ الرَّبِّ، الَّذِي بِهِ تَتَحَلَّى السَّمَاوَاتُ مُلْتَهَبَةً، وَالْعَنَاصِرُ مُحْتَرَقَةٌ تَدُوبُ.

وَلَكِنَّا بِحَسَبِ وَعْدِهِ نَنْتَظِرُ سَمَاوَاتٍ جَدِيدَةً وَأَرْضًا جَدِيدَةً، يَسْكُنُ فِيهَا الْبِرُّ.

لِذَلِكَ أَيُّهَا الْأَحْبَاءُ، إِذْ أَنْتُمْ مُنْتَظِرُونَ هَذِهِ، اجْتَهِدُوا لِتَوْجِدُوا عِنْدَهُ بِلَا دَنْسٍ وَلَا عَيْبٍ، فِي سَلَامٍ.

وَاحْسِبُوا أَنَا رَبَّنَا خَلَصًا، كَمَا كَتَبَ إِلَيْكُمْ أَخُونَا الْحَبِيبُ بُولُسُ أَيْضًا بِحَسَبِ الْحِكْمَةِ

الْمُعْطَاةِ لَهُ] [٢ بطرس ٣ : ١٢ - ١٥]...

أى أنه يبدأ بتحقيقه، بنعمة الرب، فيه وحوله، مستنزلاً على الأرض بعض أيام السماء...

وفى جهاده، المرير أحياناً، من أجل الحق والخير والفرح فى الأرض، يشعر بثقة لا تعادلها ثقة لأنه يعلم أن جهوده لن تضيع وأن الشر والموت سيقهران نهائياً بنعمة الإله الذى تجسّد و صلب وقام وصعد إلى السماء ليحرر الإنسان من الخطيئة...

الفصل السابع

الثالوث القدوس

"..أؤمن بالله واحد، الله الآب...وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الآب قبل كل الدهور ... نعم أؤمن بالروح القدس الرب المحيى المنبثق من الآب..."

* ليس الثالوث فلسفة :

إن الكثيرين من المسيحيين يظنون أن عقيدة الثالوث هى نظرية فلسفية وهى قضية معقدة لا يفهمها أحد، وبالتالي هى موجودة ونقول بها، إلا أنها لا تمت بصلة إلى الناس وإلى ما يعيشون...

ولكن عندنا القديس " إغريغوريوس اللاهوتى " الذى يقول: " الثالوث فرحى "...
إذاً، وجدَ أناس ليس الثالوث بالنسبة إليهم شرحاً فلسفياً، ليس تعليمًا للأذكىاء ولكنه حياة تُعطى للناس جميعاً، وكل الناس يمكنهم الإشتراك فى حياة الثالوث...
ليس عند المسيحيين تعليم إلا وله علاقة بحياة البشر الأقرب إلى معيشتهم، ليس المسيحيون فلاسفة وليس ثمة عنصر فلسفى فى دياناتهم، وهم يُجلّون إيمانهم عن أن يكون فلسفياً...

هذا يعنى أنه ليس هناك عنصر أرضى يكون إيمانهم...
هم يقولون أن الألف والياء فى إيمانهم هو الثالوث القدوس...
وبالتالى، لا مهرب من أن نواجه هذا الذى يقال عنه فى المسيحية أن البداية والنهاية...

* ما يُنسب للإنسان لا يُنسب لله :

يجب القول، بادئ ذى بدء، تمهيداً لبسط العقيدة، أننا إذا تحدّثنا فى الله فإنما يكون للكلمات معانٍ غير المعانى المألوفة...
الله يُحدّث عنه بتزييه عن المخلوق...

الله ليس مثله شئ، ليس مثله مخلوق...

فالحديث عنه ، إذاً، بكلمات - طبعاً لا يستطيع الإنسان إلا أن يتكلم، وهذا العلم الإلهي نقول عنه إنه التكلم بالإلهيات - ولكن، حتى إذا تكلمنا في أمور الله فنحن نضمّن الكلمات معانى غير المعانى المعروفة ، لها ، طبعاً، صلات بالمعانى المعروفة ولكنها غيرها فى النهاية...

مثلاً:

إذا قلنا أن هذا الإنسان واحد وليس إثنين فليس بهذا المعنى نقول إن الله واحد. الله واحد ولكن ليس تشبيهاً بأن هذا من الناس أو ذاك هو واحد. هناك، طبعاً، شئ من القرابة بين أن الله واحد وأن هذا من الناس أو ذاك واحد. ولكنها فقط قرابة. لا نعنى الشئ نفسه إذا قلنا واحد عن إنسان وإذا قلنا واحد عن الله. ليس هناك مدلول واحد. عندنا مدلولات مختلفة. إذا قلنا أن هذا الإنسان جميل، بمعنى أن ثمة تناسقاً بين عينيه ومنخريه وفمه وقامته... إلخ. فليس بهذا المعنى نقول أن الله جميل...

ماذا نعنى عندما نقول أن الله جميل؟...

هذا يفرض حركة فى القلب، حركة تطهر كبيرة...
وندرك فى الصلاة، فى التأمل الروحي، أن الله جميل...
الله هو الذى يُتصل به ويُعبد وفى النهاية، لا يُتكلم عنه...
ولكن لا بد من الكلام...

فنقول، إذاً، كلاماً منزهاً عن الكلام البشرى...

نقول عن الله ما ليس هو، ولا نقول عنه ما هو...

نقول، مثلاً، الله ليس بواحد، ليس بجميل وليس بموجود، إذا كان الإنسان موجوداً بمعنى أن له عظاماً ولحمًا ونفساً... إلخ...

أى أننا إذا حددنا كيان الإنسان فليس بهذا المعنى الله موجود...

ولا يمكننا، بمعنى من المعانى، أن نتكلم عن الله مثلما نتكلم عن الإنسان...

صحيح أن الله موجود أى هو قائم، ولكن هل هو موجود مثلما الإنسان موجود؟...
كلا...

دائماً هناك كلا عندما نتكلم عن الله...

ليس هو موجوداً بنفس الوجود الإنسانى...

إذا كان للإنسان جوهر، فهل لله جوهر؟...

نقول فى نشيد الميلاد: { العذراء تلد الفائق الجوهر } ...

لم نقل أن له جوهرًا ولكن أنه يفوق الجوهر...

فإذًا، إذا كان الإنسان ذا جوهر فإله ليس ذا جوهر...

ما يُنسب للإنسان لا يُنسب لله...

إله يُنزه دائمًا ويُرفع ويُعلّى...

*** الثالث يتعدى العدد :**

بناء على ما تقدّم...

إذا قلنا أن الله مثلث الأقانيم، وإذا قلنا أنه واحد في الجوهر فهذا ليس معناه، على

الإطلاق، أنه هو ثلاثة أو أنه واحد...

ليس هو ثلاثة بمعنى العدد...

العدد لا علاقة له بالله...

لا يستطيع الإنسان إلا أن يعدّ المحسوسات...

الله لا يُعدّ لأن من عدّه فقد حدّه...

وذلك، عندما يقول شهود يهوه أو المسلمون أو اليهود، عندما يقولون عنا أن عندنا

ثلاثة آلهة، لأننا نقول: واحد وثن وثالث، (وهم يعنون بذلك أن عندنا ثلاثة آلهة)...

فالجواب على ذلك هو أننا لا نعدّ الله ثلاثة...

ليس هذا عددًا...

أحدهم اسمه الآب وأحدهم اسمه الابن وأحدهم اسمه الروح القدس...

إذا أنه يُجاب على المسلم واليهودي وشهود يهوه بأنه إذا كان إلهك واحدًا وأنت تعدّه

واحدًا فهذا كأنك تعدّه ثلاثة أو أربعة أو خمسة عشر... إلخ...

لأنك إذا عدّدته واحدًا معنى هذا أنك حدّدته بواحد...

الله لا يُحدّد...

فإذًا، واحد ليس أقل من ثلاثة...

إذا كان ثلاثة عددًا فواحد عدد أيضًا...

الله ليس واحدًا إذا قصدنا بهذا أنه ليس إثنين...

هو واحد، هكذا قال عن نفسه بمعنى لا أعرفه عقليًا ولا يمكن أن أعرفه عقليًا...

ولكن هكذا كشف هو نفسه...

وأنا أستطيع، بالإتصال الروحي، بالصلاة، بخيرة القديسين وخبرة الجماعة أن أدّوق

كيف هو ثلاثة، كيف هو واحد...

ولكن يبقى أن القضية ليست إحصاء...

* موقف روحى صوفى :

تلاحظون أننا أرجعنا الآن إلى موقف روحى، صوفى، إلى موقف يفوق كل إدراك عقلى، لأننا نحن لا نستوعب الله ولكنه هو يستوعبنا...
وبالتالى لا مبرر للسؤال:
كيف أن الثلاثة واحد والواحد ثلاثة؟...
لأنه ليس همى أن أفهمك هذا ولا يمكنك أن تفهم هذا...
وأكثر من ذلك لا يمكنك أن تفهم، حتى، كيف أن الله واحد؟...
ولكن عقل الإنسان حسابى وهذا بالنسبة إليه بسيط أكثر من أن تجعله يقارن بين شيئين فيلتبس عليه الأمر وتتعدد بساطته العقلية...
ولكن، فى حقيقة الحال، عقلياً، الواحد ليس أبسط من ثلاثة...
ويبقى فهمك للواحد على نفس صعوبة فهمك للثلاثة...
فإذا، لا يفتخرن أحد علينا بأن عنده ديانة عقلية...
وهل فهم أن الله واحد هو موقف عقلى؟...
كل وجود الله ، فى الأساس، ليس عقلياً...
العقل البشرى لا يفرض عليك الوجود الإلهى...
ويرتاح العقل البشرى، كلياً، إن بوجود الله أو بعد وجوده...
إذ يمكن لهذا العقل أن يصعد إلى القمر وأن يصنع مختبرات وصواريخ سواء كان الله، بالنسبة إليه، موجوداً أو غير موجود...
ولا يستطيع العقل البشرى، بقدرته الوحيدة، إلا أن يعدّ...
والفيزياء الصحيحة والسليمة هى، فى النهاية، العدّ، هى حساب...
كلّ شئ ليس هو حساباً ليس علماً...
كلّ شئ ليس هو حساباً ليس معرفة...
الله ليس حساباً لذلك فهو لا يُعرَف ولا يستدلّ عليه...

* من هو إله المسيحيين؟ :

فى سفر الرؤيا آية تقول عن المسيح أنه:
[وَسَيَسْجُدُّ لَهُ أَهْلُ الْأَرْضِ جَمِيعًا، أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ تُكْتَبْ أَسْمَاؤُهُمْ مُنْذُ إِنْشَاءِ الْعَالَمِ فِي سِفْرِ الْحَيَاةِ، سِفْرِ الْحَمْلِ الذَّبِيحِ] [الرؤيا ١٣ : ٨]...
إذاً، قبل أن يخلق الله العالم كان عنده فى جوفه حمل مذبح وهو الابن الذى أعدّه لخلاص العالم...

هذا قبل أن يُنشأ العالم...

هناك، إذًا، عملية حُب في داخل الثالوث...

الله أعدّ ابنه ليكشف للعالم بأنه محبوب، أى بأن العالم هذا محبوب...

ويحذرنا الآباء، طبعًا، من أن نتحدّث في الثالوث القدوس إذا كنا نريد أن نتكلم عن علاقة الله بالعالم...

هذا الحديث، يقول الآباء، هو خارج عن المبحث الثالوثي...

ثمة علم اسمه "التيولوجيا" وهو الكلام عن الله في أزليته، بحد نفسه...

وثمة علم اسمه "إيكونوميا" وهو التدبير، أى هو كيف أن الله يريد أن يدبر هذه الدنيا عن طريق الخلاص...

ويقول لنا الآباء، أيضًا، أن البحث في "التيولوجيا" هو غير البحث في الـ "إيكونوميا" أى في تدبير الخلاص...

الإله الواحد الأحد لا يُحب...

"الواحد" تعنى في العربية، واحدًا بالعدد، و"الأحد" تعنى الذى ليس بعده ثان، هذا فى العربية...

{ قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد }...

هذه آية من سورة "الإخلاص" وليست هى، فى الحقيقة، موجهة ضد المسيحيين...

ليس معناها أنها تنكر الابن والروح القدس...

إذا أخذناها نصًا فقط وليس بمدلولها القرآنى، يمكننا أن نقول، من حيث النص، أن الإله الأحد أى المنغلق على نفسه، المحدود بأحدثه، هذا الإله لا يلد ولا يولد، أى أنه لا يحب ولا يُحب...

عندما يكون الواحد واحدًا فقط وغير قادر أن يصير إثنين وأن يحاور شخصًا أمامه فهو ليس منفتحًا...

حتى الراهب الساكن فى صومعته هو فى حوار مع المؤمنين الذين ليسوا معه فى صومعته، ذلك أنه يصلّى من أجلهم ويصلّون من أجله...

لا يوجد إنسان طالع من صخر...

كلّ إنسان يحاور حتى يوجد...

قبل أن يحاور ليس هو موجودًا...

الله موجود لأنه يحاور، لأنه غير منغلق على نفسه، لأنه فاتح نفسه...

هذا الإله الفاتح نفسه للحديث، لحديث حبّ - ولا حديث غير هذا - هذا الإله هو الآب وهو مصدر الوجود الإلهي، أى مصدر اللاهوت، مصدر الألوهة... قبل أن يكون العالم وبالإستقلال عن العالم الله قائم... كان يمكن للعالم ألا يكون...

العالم موجود عرضاً ويمكن أن يُفنى، يقول العلماء أنه سيُفنى... الله موجود بصرف النظر عن العالم، عن وجود العالم وزواله...

*** الابن مولود من الآب والروح القدس منبثق من الآب :**

هذا الإله الموجود، القائم فى نفسه والمنفتح من نفسه أيضاً، هذا الإله الذى لا بدء له ولا نهاية ولكنه بدء كل شئ ونهاية كل شئ، هذا الإله، قبل أن يَخْلُق وبالإستقلال عن الخلق، جاء منه الابن، فاض منه الابن - الكلمة، وفاض منه، أى من الآب، أيضاً الروح القدس... والكلمات التى تُستعمل فى التراث المسيحى، فى هذا الشأن، هى أن الآب غير مولود وغير منبثق - هذه صفته الخاصة به والتى تميزه عن الابن والروح -

والابن مولود من الآب،

والروح القدس منبثق من الآب...

هاتان الكلمتان - مولود ومنبثق - موجودتان فى الكتاب المقدس...

نحن نعرف أن الابن مولود من الآب وقرأنا أن الروح القدس منبثق من الآب...

ماهو الفرق بين المولود والمنبثق؟...

هذا ما لا نعرفه...

هذا النشوء:

نشوء الابن عن الآب ونشوء الروح القدس عن الآب، هو نشوء أزلى، أى بلا زمان، قبل الزمان، لأن الزمان مخلوق...

قبل الزمان وبدونه، بدون إنفعال، بدون مخاض وبدون أزمة، صدر الابن عن الآب وصدر الروح القدس عن الآب...

هذا بدون بَعْدِيَّة، أى أن الواحد لا يأتى بعد الثانى فى الزمن...

من هذا القبيل فإن هذا لا يُشَبَّه، إطلاقاً، بالولادة الجسدية لأن الأب الجسدى هو قبل ابنه، فبينهما إذا بَعْدِيَّة...

ليس من بَعْدِيَّة بين الآب والابن...

فالواحد ليس قبل الثانى فى الزمن...

ولكن، إذا صحَّ التعبير، يمكننا أن نقول أن الآب هو قبل الابن ليس بالزمان ولكن

بالنطق، أى بالتسلسل، بتسلسل غير زمنى...

الآب قبل الابن بالنطق لا بالزمن أى أن الواحد يجئ من الثانى...

ولكن نعود فنقول، أنه مذ كان الآب فى الأزل، كان ابنه معه وكان روحه معه...

فإذًا، ليس بينهم انفصال ولا فجوة ولا بُعد ولكن، فى نفس الوقت، الواحد ليس الآخر...

الآب ليس الابن، والابن ليس الروح القدس، والروح القدس ليس الآب، ولكنهم الكل فى

جوهر واحد...

هناك تمايز - وهنا يمكن أن تكون كل الكلمات ثقيلة جدًا - بينهم، تمايز بلا أفضلية...

التمايز يعنى فى اللغة العربية، أن الواحد غير الثانى...

الآب لا يمكن أن يكون الابن، ولا الابن الروح القدس، ولا الروح القدس الآب، العلاقة

بينهم علاقة الصدور...

الابن صدر عن الآب والروح القدس صدر عن الآب، الابن بالولادة والروح بالانبثاق

وما يجمعهم هو الجوهر الواحد...

الذى يجمع الأقانيم الثلاثة هو الجوهر الواحد أو الطبيعة الواحدة...

أى أن كل ما بينهم مشترك ما عدا صفات تخص الأقنومية...

كل ما بينهم مشترك ما عدا الصفات الأقنومية...

الجلسة واحدة أى الملوكية واحدة أو الربوبية واحدة، أو باللغة الإسلامية، الحاكمية

واحدة ...

والخالقية واحدة أى أن الثلاثة اشتركوا فى خلق العالم...

كل هذه العبارات تأتى تحت كلمة الربوبية...

الربوبية، الازلية، الأبدية، الرحمة، المحبة... إلخ، كل الصفات مشتركة ما عدا

الصفات الخاصة بكل منهم...

أى أن الصفة الخاصة بالآب هى الأبوة، أى هو غير مولود وغير منبثق، وهذه هى

صفة الأقنومية للآب...

والصفة الأقنومية للابن هى المولودية، أى أنه مولود...

والصفة الأقنومية للروح القدس هى الإنبثاق، أى أنه منبثق...

فإذًا، كل ما بينهم مشترك عدا الصفات الأقنومية...

وهذه قاعدة أساسية فى اللاهوت المسيحى...

لذلك ترون فى الإنجيل أحاديث وأن هذه الأحاديث تدور، تارة، على الابن مولود من الآب وإدًا، هو خاضع للآب وعائد إليه - هذا فى موضوع التجسّد - وتارة تدور هذه الأحاديث على التساوى بينهما...

ثمة أحاديث، إدًا، تدلّ على التساوى بين الآب والابن...
وثمة أحاديث أخرى تدلّ على أن الابن مولود من الآب وبالتالي على أنه تابع من حيث أنه ليس هو المصدر ولكنه آت من المصدر بدون زمان...
هو تابع ليس لأنه عبد للآب بل بمعنى انه متصل بالتبعية...
الابن والروح القدس متصلان بالتبعية مع الآب بلا زمان، بلا تفريق، بلا فجوة وبلا بُعد...

ولكن هناك ثان وثالث مقابل الأول وهو الآب الذى يبقى مصدرًا للاهوت...
علينا، إدًا، أن نستوعب فى نفسنا المؤمنة، وفى نفس الوقت، أن بين الأفانيم الثلاثة تساويًا، ولذا، فثمة أحاديث تدور حول التساوى...
وأن بينهم تستسلا أو إرتباطًا أو صلة ولذا، أيضًا، ثمة أحاديث عن الصلة...
من أجل ذلك مردودة هى هذه الدعاوى:
كيف يتكلم عن الآب أنه أهم من الابن أو أعلى منه وأن المسيح يظهر نفسه بأنه خاضع؟....

المسيح خاضع لأنه تابع، لأنه ابن، والمسيح خاضع أيضًا، فيما بعد، فى الإنجيل، لأنه تألم، لأنه إنسان، ولكن ليس فقط لأنه إنسان، بل أيضًا، لأنه ابن وسيكون الله الآب الكل فى الكل، وفى الآخر سيخضع المسيح للآب لأنه، أى المسيح، يأتى بالإنسانية جمعاء إلى الله الآب...

ولكن، بصرف النظر عن المخلوق وبصرف النظر عن الفداء، فالمسيح متجه إلى الآب لأنه مولود منه...

* المعنى الأخير للثالوث :

لماذا كل هذه " الكركبة " ، هذه " الشغلة " لماذا؟...
فقط لأن الله هكذا قال...

وما قاله صحيح...

ولكن ما المعنى الأخير للثالوث؟...

المعنى الأخير للثالوث هو أن الله محبة...

أى، هذا الإله الأول، كما تسميه الطقوس الأرثوذكسية، وهو الآب، الأول فى النطق وليس الأول فى الزمن...

الأول من حيث أنه المصدر...

هذا الإله الأول، لكونه محبة، صدر عنه ابنه وروحه صدور حب...

صدورًا لا زمنيًا، ولكنه صدورًا حبيًا كما يقول القديس مكسيموس الماعترف...

الله الآب يحب بهذا المقدار أنه صدر عنه هذا الإثنان الابن والروح...

وهذا يعنى أن الابن هو الآب مسكوبًا كليًا فى الأقنوم الثانى...

الابن معناه جوهر الآب، طبعًا، وليس أقنوم الآب وفرد الآب كفرد، أى معناه جوهر

الآب، طبيعة الآب وحياة الآب...

وبكلمة عصرية، حياة الآب التى فيه إنسكبت كليًا فى الابن...

فإذا، يمكننا القول أن الآب نفسه مضى بالابن وكذلك إنسكبت كليًا فى أقنوم ثالث، وهو

الروح القدس، حتى تكتمل دورة المحبة...

قال متصوف أرثوذكسى التفكير وهو H. de Saint-Victor :

{ الآب يحبّ الابن، هكذا أن الروح القدس انبثق من الآب حتى يكون الابن محبًا للروح

القدس وحتى يكون الابن محبوبًا من الروح القدس }.

من هنا أنه فى التجسد، الله يأتى ليكلّم الناس...

يقول " نيقولا كاسيلاس " أن الله هو الخطيب وهو كمن يخطب بنثًا فيأتى ويخطب ودها.

المسيح خطيب للجنس البشرى...

جاء ليبذل الحب للناس حتى يذعن الناس لهذا الحب. المسيح أحبّ، فى النهاية، لكى

يدرب الإنسانية، حتى يفتح قلبها على الله. المسيح هكذا فعل لأنه مفوض. وهو

مفوض أن يفعل هذا لأنه هو هكذا، لأن من طبيعته أن يحب. الأمور كلها مضبوطة

بشكل أن من لا يقبل الثالث لا يقبل المحبة...

*** الثالث متجلى الله :**

وبالتالى، الثالث القدوس هو المتجلى وهو التعليم الكامل والسليم عن الله فى حياته

والذى هو وحده الأساس والضابط لكل شئ...

من هنا ترون أن الثالث ليس فذلكة عقلية وليس هو أن الآباء أرادوا أن يتسلوا لأنهم

درسوا الفلسفة اليونانية فركبوا الأمور هكذا...

القضية ليست أننا فلاسفة أنكفاء ونرتب الأمور هكذا...

كلا...

ذلك أن هذه القضية، قضية الثالوث، وصلنا إليها أو هي كشفت لنا، في النهاية، على الصليب...

الحمل الذبيح قبل إنشاء العالم والذي رأيناه مذبحاً، في وقت ما، على تلة من تلال أورشليم، هذا الحمل كشف لنا أن هذه العملية التي هي موته وحبّه، عملية لا تفهم ولا تدرك إلا لأنها عملية تامة منذ الأزل...

الله، منذ الأزل، أحب الجنس البشرى وأرسل الابن...

الله حين ظهر إلى الوجود - وهو مجرد تعبير - أى قبل الوجود، سرمدياً، ظهر إلهاً محباً، محاوراً نفسه ويحرك الحب في نفسه حتى يستطيع أن يكشفه للناس، جوهراً، بهذا المعنى...

الفصل الثامن

الكنيسة

"..وبكنيسة واحدة ، مقدسة ، جامعة ، رسولية..."

* الروح القدس يحقق الكنيسة جسد المسيح :

في الكنيسة مهمتان: مهمة للمسيح ومهمة للروح القدس...

فالمسيح بتجسده، بأبعاد التجسد الكاملة أى الفداء والقيامة، وضع الأساس...

[فَإِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَضَعَ آسَاسًا آخَرَ غَيْرَ الَّذِي وُضِعَ الَّذِي هُوَ يَسُوعُ الْمَسِيحُ] [١]
كورونثوس ٣: ١١]...

والأساس يصل إلينا نحن عن طريق الكلمة أيضاً، الكلمة المعبر عنها بشتى المظاهر أى الإنجيل مقروءاً، مدروساً، ممثلاً ومسكوباً فى طقوس، فى خدمة وفى عبادة...
هذا هو الأساس...

هذا الأساس ينقله الروح القدس ويبنى عليه...

الروح القدس هو الذى ينشئ فى العتالم هيكل الله أى الكنيسة...

هيكل الله، حضور الله فى العالم، مؤسس وقائم على هذه الكلمة الواردة إلينا فى الإنجيل والتى ظهرت، أولاً، بشخص يسوع،...

وهذا الهيكل له نمو بالروح القدس الذى يشكل فى هذا العالم جسد المسيح...

أى أن هذه الكنيسة هي جسد المسيح...

أى هى محضر المسيح ومكان تجليه...

من هنا أنه يوجد عملان لا ينفصلان:

عمل المسيح البنائى، الأساسى، ثم عمل الروح القدس الذى لا يأتى بمسيح جديد، بل

يشكل المسيح فينا، ونفتحته هى التى تنشئ هذا المسيح فينا...

لهذا كانت الأسرار وهى مبنية على كلمة المسيح ولكنها محققة بالروح القدس...

مثال على ذلك:

المسيح عندما قال " ... خذوا كلوا هذا هو جسدى ... واشربوا منه كلكم هذا هو دمي

... لمغفرة الخطايا" ، أسس سرّ الشكر...

كلامه هذا هو كلام التأسيس الذى أوجد هذا السر...

أما اليوم، بعد صعود المسيح، فالروح القدس هو الذى يبني على هذا الأساس...

أى هو الذى يحولّ الخبز إلى جسد المسيح والخمر إلى دمه...

إدًا، فالمسيح يظهر ويشكل إنطلاقًا من خبز وخمر، بنفخة الروح القدس وينزل هذا

الروح على القرايين وعلى الجماعة...

كما أن كلام الله للإنسان فى الفردوس:

" تكثران وتملآن الأرض" أسس الزواج فجعله ممكنًا، إلا أن إتصال الرجل بالمرأة هو

الذى يحقق كلمة الله...

الروح القدس هو، إدًا، المحقق لحضور المسيح...

*** الكنيسة شركة المؤمنين فى مواهب الروح :**

هذا الروح هو الذى يوحد أعضاء الكنيسة وقد صاروا أعضاء فيها بالمعمودية...

ولكن يجب أن تتعمق عضويتهم وأن يقوى إنتسابهم للمسيح بالقداسة...

ما كانت المعمودية سوى مدخل إلى الكنيسة، ولوج إليها...

ولكن لا يصل الإنسان إلى ملء قامة المسيح، أى لا يحقق الإنسان فى نفسه كل أبعاده

المسيحية، كل قامته إلا بالنمو اليومي الدائم بالروح القدس...

ومعايشة المسيحيين بعضهم بعضًا وتساندهم بالمحبة هما اللذان يجعلان هذه الكنيسة

شركة الروح القدس...

يقول الرسول بولس:

[نعمة ربنا يسوع المسيح ومحبة الله الأب وشركة الروح القدس لتكن معكم]...

من هنا أننا نصبح جسدًا للمسيح أى نصبح واحدًا له ومتجلى وإمتدادًا ليس فقط

بالمعمودية ولكن على قدر هذا النمو الذى هو، أصلًا، حصيلة الميرون...

هكذا يعنى أن نموتاً يأتى بالميرور وأننا به ندخل فى الميثاق مع الله...
فكما أن الإنسان فى العهد العتيق كان يولد وفى اليوم الثامن يُختن أى يدخل فى ميثاق
الله، هكذا، فى العهد الجديد، يولد الإنسان للمسيح بالمعمودية ولكن بالميرور يدخل فى
ميثاق الله أى العهد...

معاهدة الله بهذا السرّ وختم الله علينا، ختم موهبة الروح القدس...
روح القداسة هو الأَقنوم الثالث...

وهذه القداسة تتمّ عن طريق توزيع المواهب المختلفة...
الكلمة المستعملة فى اللغة اليونانية والتي ترجمت فى العربية بكلمة موهبة Charisma
وهى مشتقة من لفظة Charis أى النعمة...

والنعمة تعنى، طبعا، العطاء المجانى، أى أن الواحد يعطى الآخر لقاء لاشئ...
Charisma تعنى، حرفياً، حصيلة النعمة فىنا وهى التى ترجمناها بـ " موهبة"...
وكلمة موهبة، فى العربية، تدل على الفاعلية والمفعولية...
تدل على المواهب " الله الواهب " - ولهذا يُقال أن فلاناً عنده موهبة للدلالة بذلك على أن
الله هو الواهب ، وعلى الشئ الموهوب...

والمقصود بـ Charisma هنا هو هذا العطاء الذى وهبه الإنسان من الروح القدس، بل
إن هذا العطاء هو الروح القدس نفسه...

ومعنى هذا أن عطاء الروح القدس لنا ليس شيئاً خارج الله، مستقلاً عنه ولكنه قوة
تفيض من الله نفسه...

لذلك، كل من أخذ موهبة فقد أخذ الله: " أخذنا الروح السماوى"، ولكن الله له مفاعيل
مختلفة...

*** الإكليريكى والعلمانى وعضوية شعب الله :**

يصف بولس الرسول، فى رسالته الأولى إلى أهل كورونثوس، مواهب الروح القدس...

[فَأَنْوَاعَ مَوَاهِبَ مَوْجُودَةٌ وَلَكِنَّ الرُّوحَ وَاحِدٌ.

وَأَنْوَاعُ خِدَمٍ مَوْجُودَةٌ وَلَكِنَّ الرَّبَّ وَاحِدٌ.

وَأَنْوَاعُ أَعْمَالٍ مَوْجُودَةٌ وَلَكِنَّ اللَّهَ وَاحِدٌ الَّذِي يَعْمَلُ الْكُلَّ فِي الْكُلِّ.

وَلَكِنَّهُ لِكُلِّ وَاحِدٍ يُعْطَى إِظْهَارُ الرُّوحِ لِلْمَنْفَعَةِ.

فَأِنَّهُ لِيُؤَادِّعُ بِالرُّوحِ كَلَامُ حِكْمَةٍ. وَآخَرَ كَلَامُ عِلْمٍ بِحَسَبِ الرُّوحِ الْوَاحِدِ.

وَلَاخَرَ إِيْمَانٌ بِالرُّوحِ الْوَاحِدِ. وَآخَرَ مَوَاهِبُ شِفَاءٍ بِالرُّوحِ الْوَاحِدِ.

وَلَاخَرِ عَمَلُ قَوَاتٍ وَلَاخَرِ بُبُوَّةٍ وَلَاخَرِ تَمْيِيزُ الْأُرُوجِ وَلَاخَرِ أَنْوَاعِ السِّنَةِ وَلَاخَرِ
تَرْجَمَةِ السِّنَةِ.

وَلَكِنَّ هَذِهِ كُلُّهَا يَعْمَلُهَا الرُّوحُ الْوَاحِدُ بِعَيْنِهِ قَاسِمًا لِكُلِّ وَاحِدٍ بِمُقَرَّدِهِ كَمَا يَشَاءُ] [١٢ : ٤ - ١١] ...

وثمة فى مواضع أخرى ذكر لموهبة الشفاء، مثلاً، وموهبة التدبير وموهبة ترجمة اللغات وموهبة النبوة وما إلى ذلك...

هناك، إذًا، مواهب متعددة ومنها الموهبة العامة التى هى أن يكون الإنسان عضوًا فى شعب الله، ويسمى فى العامة علمانيًا...

وربما أتت هذه اللفظة من السريانية "عُولِم"...

أو هى فقط من علم أى الاهتمام يأمر هذه الدنيا...

العلماني، فى العامة، تعنى من ليست له علاقة بالعلوم اللاهوتية الروحية ولكنه يتعاطى العلم الاعتيادى...

وإذا أتت من "عُولِم" فهى تعنى من يتعاطى شؤون هذه الدنيا...

هذا التفسير لكلمة علماني خاطئ، طبعًا، وهو صادر عن التفكير اللاهوتى الغربى...

علماني تعنى Laicos وهذه كلمة يونانية مشتقة من Laos التى تعنى شعب...

و Laicos اليونانية تعنى العضو، ومن الأفضل تعريبها بكلمة "عامى" أى بالنسبة لعامة الشعب...

وهكذا فإن العامى، أى الذى من الشعب، هو عضو فى الشعب الإلهى، والحقيقة أن كل إنسان، حتى الإكليريكي، عضو فى الشعب الإلهى، الإكليريكي عامى أيضًا، والقول الذى شاع فى هذه البلاد، وهو أيضًا هناك إكليريكيًا و علمانيًا، قول لا أساس له...

فكل من نال الميرون صار من شعب الله، والاكليريكي عندما صار إكليريكيًا لم يبطل أن يكون من شعب الله أى علمانيًا...

ضمن هذه الشراكة المواهب متنوعة، الله ينوّعها...

هو الذى يجعل كلاً منا عضوًا فى شعب الله، وهو الذى يعطى الحياة الأبدية

للمؤمنين، أى أن حياة الله فيهم يعطيها هو بدفق دائم...

وإذا تآزرت هذه المواهب تتشكل الكنيسة...

أى يخرج المؤمنون من كونهم جماعة زمنية تعيش فى هذا التاريخ، جماعة

سوسيولوجية، يخرجون من وضعهم الاجتماعى إلى وضع أبدى...

أى أنهم يأخذون حجمهم الإلهى عن طريق الروح القدس...

أى كما أن ثمة قوة فيهم حتى يشهدوا فى العالم، هكذا أيضاً، وبعكس ذلك، فيهم قوة حتى يتصفوا من تقلبات هذا العالم، من خطايا هذا العالم ليصبحوا شعباً لله... وعلى قدر ما يصيرون شعباً لله يعودون ليشغلوا فى هذا العالم باستقلال عنه، أى تكون هناك، بينهم وبين العالم، فسحة من الحياة الأبدية... فالحياة الأبدية التى فيهم تجعلهم يحكمون فى شئون هذا العالم ويوجهونه... ولكن ثمة وجهاً إلى الله أولاً...

الروح القدس هو الذى يوجهنا إلى الله... يوجهنا تعنى، فى العربية، يلفت وجوهنا إلى الله، يديرها حتى تتطلع إليه... وعلى قدر ما تنتظر هذه الوجوه باتجاه واحد، على هذا القدر، نكون كنيسة... نصبح كنيسة على قدر ما يلتفت وجه كل واحد منا ليتطلع إلى الله... ولكن، عندما نتطلع إلى الله ونحن نمارس الخدمة، تبقى لكل من موهبته الخاصة... عندنا جميعاً موهبة العلمانية، أى موهبة الميرون، وهى أن نكون مختومين لله، محفوظين للمسيح، مخصصين له...

فإذا، إذا كنا نحن مختومين ليسوع المسيح معنى هذا أننا نفتتح له فقط، فبهذا الاتجاه الواحد إلى الله، ونحن فى هذا العالم، نشكل الكنيسة... الكنيسة إذاً، هى، دائماً، متجهة إلى الله الآتى إليها، وهى، بسبب الخدمة من أجل تحويل هذا العالم، متجهة على العالم...

*** مواهب الروح ومعية الكنيسة :**

من هنا أننا نحتل بعضنا بعضاً، كما يقول الرسول بولس فى رسالته إلى أهل رومية، ليس لمحاكمة أفكار، ونحمل بعضنا لاثقال بعض ولا ندين أحداً بل نقبل الموهبة التى فى الآخر...

نقبل، مثلاً، أن فلاناً واعظ كبير وأن فلاناً مدبر صالح... ولذلك، لا يفتش الواعظ الكبير عن أن يصبح مدبراً أى إدارياً، وإذا فعل ذلك فإنما هو يضيع وقته لأن الروح القدس لم يعطه هذه الموهبة... وايضاً، لا يفتش الإدارى الكبير عن أن يصبح واعظاً... الإنسان لا يستطيع أن يأخذ شيئاً لم يعطه إياه الله، أساساً... تبقى هناك، طبعاً، جهود بشرية... كل الأمور التى بمتناول الإنسان يجب السعى إليها...

الوعظ، مثلاً، يُتعلّم كتقنية، كفن، ولكن قد يستمر الواحد عشرين سنة فى تعلّم الفن وقد يُتقن خطاباً سياسياً أو أدبياً دون أن يتوصّل إلى إتقان عظة دينية إذا لم تكن عنده النفحة لذلك...

الأسقفية، أساساً، تجمع مواهب فى الكنيسة مختلفة كالتعليم والإدارة، وما إلى ذلك... والأسقفية ليست سلطة أو إمتيازاً ولكنها موهبة...

والإنسان لا يعمل، فى الأساس، شيئاً حتى ينال الموهبة...

فهو لا يستطيع أن يصنع نفسه كاهناً...

فإمّا أن يكون من بطن أمه كاهناً أو لا يكون...

وهو يستطيع أن يكتشف ذلك فيما بعد إذا كان موهوباً له، والبطريرك يقول له ذلك

والكنيسة جمعاء تستطيع أن تقول له ذلك...

يبقى أن أصحاب المواهب يتبنّون بعضهم بعضاً، يقبلون بعضهم بعضاً ويقبلون تنوعهم...

هذه عملية من أصعب ما فى الدنيا: ان أقبل أن يكون فلان إداريّا بينما أنا لست

إداريّا، أو أن يكون فلان معلماً بينما أنا لست معلماً...

والخطأ يكون عندما يهيج كل منا نفسه ليجمع المواهب كلها...

نحن نقبل التنوع لأننا نقبل الله مصدراً للكل...

لا شك أنن، فى الكنيسة، حتى نكون معية يجب أن ننمى المواهب فى كل إنسان...

فالذكى مثلاً يجب أن لا نطمسه حسداً ولكن نظهره لأن المسيح يستفيد من ذكائه، ولأن

القضية التى نحملها تنجح بالاشتراك...

بالمحبة، إذًا، والتشجيع نجعل الآخرين يتقدمون...

إذا كانت تهمنا، فعلاً، مصلحة المسيح، فيهمنا بالتالى أن يبقى فلان تقيّاً لا أن نقص له

حواجه وننمّ عليه...

ومن أجل هذا نستتر بعضنا عيوب بعض...

من واجبنا، طبعاً، أن نوقظ المواهب فى الناس، ذلك أن الإنسان لا يعرف نفسه موهوباً...

المحبة الأخوية هى القوة التى توقظ المواهب...

فنحن، إذًا، نحيط الناس بعناية وعطف حتى تستفيق فيهم مواهب الروح القدس لتنمو

بالتنوّع...

من هنا اننا لا نستطيع، إعتباطاً، أن نقرّر ما هو الأكثر فائدة للكنيسة فى هذا لابطرف

أو ذاك...

أى أننا لا نستطيع نحن أن نقرّر، مثلاً، أن الكنيسة، اليوم، بحاجة إلى إداريين فنأتى بأحسن الإداريين ونجعلهم رؤساء، أو إكليروساً أو غير ذلك... هذا تفكير خاطئ...

لا نستطيع نحن أن نقرّر أن الكنيسة بحاجة إلى لاهوتيين أكثر مما هي بحاجة إلى ناس عمليين...

الكنيسة بحاجة إلى مواهب متنوعة ومتعددة كما رسمها الله على لسان الرسول بولس... نحن ليس لنا أن نقرّر ما هو المهم وما هو غير المهم... ما يكشفه الله أنه مهم هو المهم...

وبالتالى فإن هذه المواهب تتآزر ونوظفها نحن فى الناس...

*** شركة المواهب وشركة المائدة :**

إذا عرفنا ذلك فنحن نعرف أن هذه الشركة بين أصحاب المواهب تتوطد على قدر إلتفافنا حول المائدة، مائدة القرايين حيث يتغذى أصحاب المواهب لينتقلوا إلى العالم... عندما نأكل جسد المسيح ونشرب دمه نكون، بالتالى، فى حالة التقوى بمواهب الروح كل حسبما وهب...

الإكليروس والعلمانيون يشتركون معاً فى حياة الكنيسة حسبما أعطى كل منهم من مواهب الروح...

الاشتراك الأمثل والضرورى جداً والذي لا حياة لنا بدونه هو الاشتراك بجسد ابن الله فى كل قداس إلهى حيث تكون الـ " بيرارخيا"...

والـ " بيرارخيا" كلمة يونانية ليست لها ترجمة فى أية لغة، وهى تعنى الجماعة المتشاركة...

إنها مشتقة من كلمة تعنى القدسى...

وهى تعنى هنا المبدأ القدسى...

وباتصال الكلمتين صارت تعنى المشاركة حسب رتب مختلفة...

الـ " بيرارخية" عندما صورها ديونيسيوس الأريوباغى - راهب من القرن السادس، وهو على الأرجح، سورى - صوّر المائدة المقدسة وحولها الأسقف والكهنة والشعب المؤمن وتسع طغيمات منها المعمودية والميرون، وهذه الطغيمات صورها واقفة حول المذبح...

وفى السماء أيضاً تسع طغيمات ملائكية حول العرش الإلهى...

الرتب هنا على الأرض تناسب التى فى السماء...

هذا يعنى، بكلمة ثانية، أن عمل الله ينبثق من القرايين، من المذبح، وهكذا إلى هذه الحلقات الملحقة حول جسد ابن الله...

هذا ما يسمّى بالـ "بيرارخيا"...

الذى نال الميرون صار فى الـ "بيرارخيا" العامة فى الكنيسة...

فجسد ابن الله، إذًا، هو المصدر، ولكنه يأتى أيضًا بحلول الروح القدس على القربان والخمر...

وبالتالى فإن تناولنا لجسد ابن الله هو تناولنا لقوة الروح القدس...

بالنتيجة، إن جسد ابن الله يجمعنا بمعنى أن كلاً منا يزداد فى موهبته، وهكذا يرتفع مستوى الكنيسة...

ليست غاية المناولة، إذًا، أن يسر الواحد بها أو يشقاق إليها فقط، غاية المناولة أن تتشكل الكنيسة...

أن تصير موحدة لأننا بتناولنا الجسد والدم ننضم إلى ابن الله الجالس فى السماوات... ينمو جسده وينمو كل منا بموهبته الخاصة وتنتقل الكنيسة من جسم مبعثر غارق فى الدنيويات والشهوات إلى جسم مُرَوَّحَن أكثر فأكثر أى معبأ بقوة الروح...

* القداسة هى الهدف :

المسيحى، إذًا، هو من يسلك درب القداسة فى شركة الأخوة...

ليس من أحد يفهم إلا على قدر ما يتقدس...

ليس الفهم بالدماغ، إنه بالروح القدس إذا حلّ عليك...

دماغك لا يقدّم فى هذا ولا يؤخّر، هو يفسّر لك بعض الأمور ويوضحها، والتوضيح والتفسير هما فقط لتنظيم الأشياء وترتيبها ولا يخلقان فاعلية إلهية...

كما أنه إذا شرحت أمامكم لوحة فنية فمجرد الشرح لا يخلق عندكم شعورًا بالجمال ما لم يكن فيكم حس الجمال...

ليست القضية بالشرح، والحياة المسيحية ليست بالمحاضرات ولكنها أن ينزل الله عليك أو لا ينزل...

القضية قضية نعمة إلهية تأتى على الإنسان وعلى قدر قداسته بفهم...

ولكون الإنسان لا يستطيع أن يتقدّس لوحده وجب عليه أن يحب لى يتقدس - فالذى لا يحب ليس عنده شئ - وعليه أن يعيش مع الجماعة فى خدمة عملية...

وعلى قدر ما يتساند والجماعة هذه، كلهم بعضهم مع بعض، يصبحون إنسانًا واحدًا فى المسيح يسوع...

إذا أحببت هذه الجماعة الموجودة هنا بعضها بعضاً حقيقة وفي الأعماق، وإذا تطهّر كل واحد فيها من شهواته، تصبح قادرة على الفهم والحياة في المسيح يسوع... العملية الأرثوذكسية هكذا تكون:

{ لنحب بعضنا بعضاً لكي، بعزم متفق (بقلب صادق) نعتترف مقرين بآب وابن وروح قدس...{...

المحبة شرط المعرفة ومفتاح المعرفة...

ولذلك أن أتعاطى شهواتي المختلفة، والبغض والحقد والحسد والإغراء وما إلى ذلك وأن أذهب بعد ذلك لأقوم بإجتماع ديني فهذا غير ممكن، ذلك أن الناس الذين هم على شئ من البصيرة يدركون أن كلامي مكرر، مجتر وأنه مجرد نقل عن الكتب ولم يصدر من داخلي أو يمر في عظامي كلها لأنني ما زلت محافظاً على شهواتي وبالتالي لا يمكنني أن أتكلّم ولا أن أخدم...

ولذلك السؤال:

لماذا المسيحيون متقاعسون ومتكاسلون؟...

جوابه:

لأنهم لا يحبون الله أو لأن خطاياهم تمنعهم من النشاط...

لا يوجد تفسير ثان...

وليس في الأرثوذكسية غير هذا التفسير الوجودي...

إذا فهذه الشركة وهذه المعية تقويان بالمحبة اليومية العملية...

***معية القديسين:**

إن المشاركة بين المؤمنين، بالروح القدس الواحد فيهم، لا يقطعها الموت...

المحبة أقوى من الموت...

وما سمى شركة القديسين، ونترجمه هنا معية القديسين - والمعية كلمة عربية جميلة جداً

لا ترادفها كلمة في أية لغة أخرى - وهي تعنى هنا القديسين الذين على الأرض

والقديسين الذين في السماء، بحيث أن الرسول بولس يسمي المسيحيين، هنا على الأرض،

قديسين، وحيث أن القديس هو الذ خُصّص لمسيح وكُرّس له، والقديس ليس هو البطل،

فالمسيحية ليس فيها ما يسمّى بطولة - هذه المعية تعنى أن ثمة عرى لا تتفصم بين الذين

هم على الأرض والذين إنتقلوا إلى الله...

إن البروستانتية، حين ألغت ذكر القديسين الممجدين، حرمت نفسها من كنز لا يثمن...

حرمت نفسها من أن تبقى واحدة مع المواكب، مع هذه الأجيال البارة التي سبقتنا...

لأنه إذا كان المسيح واحداً، إذا كان المسيح غالباً الموت فغلبته تفعل الآن وإلا فليست شيئاً...

إذا قلنا أننا كلنا أموات ونفنى فى القبور وأن المسيح سوف يعيدنا إليه فقط فى اليوم الأخير فهذا القول يعنى أن ثمة فجوة بين قيامة المخلص واليوم الأخير وأن هذه الفجوة لا يسدها أحد...

خطأ البروستانتية الأساسى أنها لا تعرف الشركة...

هى تعرف أن الإنسان مع ربه فقط...

ولكن حقيقة الإنسان أنه مع الإنسان الآخر والله بينهما جامع...

ليس صحيحاً أنى أنا مع الله لوحدى...

أنا معكم وكلنا، بعضنا البعض، مع الله...

هذه هى الإنسانية، هذا هو جسد المسيح...

المسيح هو فى الذين يحيونه، هؤلاء أعضاء لا ينفصل بعضها عن البعض الآخر...

والله الآب هو أبو هذه العائلة والمسيح يشكلها والروح القدس مبثوث فيها...

هذه حقيقة الإنجيل...

وحيث أن إيماننا أن المسيح قد قام حقاً فهو، من الآن، مهيمن على هذه الجماعة، أى أن

قيامته، إنقاذه الإنسان من الخطيئة والفساد، هذه القيامة فاعلة وإلا فمعنى هذا أن اليوم

الأخير موصول عتن القيامة وكأن المسيح ذكرى نلهج بها...

أى أن ثمة هوة هائلة بين المجئ الأول والمجئ الثانى إذا لم يكن هناك قديسون، إذا لم

يوجد أناس موصولون بعضهم مع بعض...

الكنيسة، بالتالى، فى جانب من جوانبها، وهى هذه الموصولية بين كنيسة الأرض وكنيسة

الأبكار المكتوبين فى السماء...

وهذه الموصولية تمثلها الكاس المقدسة عندما نضع فيها أجزاء الأحياء والأموات، بعد

مناولة المؤمنين، فتمتزج الأعضاء الحية، أى الأحياء العائشون هنا، والأعضاء الذين

انتقلوا إلى الله، الذين ذكروا، والقديسون ممثلين بتسع طغيمات عن يسار الحمل، والدة

الإله التى هى عن يمين الجوهرة فى الصينية...

يتحد هؤلاء بالدم الإلهى...

هذا يعنى أن دم المسيح الذى سكب انبث فى الدنيا ويجمع الأحياء والأموات، يجمع الذين

مُجدوا فى قداسة معلنة والذين انتقلوا ولم يُمجدوا فى قداسة معلنة ولكنهم يساهمون فى

حياة الله والذين، هم على الأرض، يسعون سعيًا...

هؤلاء كلهم مربوطون بعضهم مع بعض بدم الحمل الإلهي وهم معيَّة...

ولذا فالإنسان ليس هو، فقط، ابن اليوم...

الإنسان مسنود...

أنا موصول، منذ ألفى سنة، بأناش سبقوني، بهذه المواكب التي تتعاقب بالشهادة والدم والأسقفية والذبيحة المستمرة...

* شفاعة القديسين :

من أجل هذا فالدعاء للقديسين - وهو ما يسمّونه الشفاعة - هو نتيجة منطقية لكونهم:

[وَلَيْسَ هُوَ إِلَهٌ أَمْوَاتٍ بَلْ إِلَهُ أَحْيَاءٍ لِأَنَّ الْجَمِيعَ عِنْدَهُ أَحْيَاءٌ] [لوقا ٢٠ : ٣٨]...

ويقول صاحب نشيد الأنشاد:

[أَنَا نَائِمَةٌ وَقَلْبِي مُسْتَيْقِظٌ] [نشيد الأنشاد ٥ : ٢]...

إِذَا نَ فَهؤلاء النائمون في القبور ليسوا أمواتاً، قلوبهم يقظة...

وإذا أردتم تمييزاً فلسفياً بين النفس والجسد، فنفس هؤلاء، منذ الآن، قائمة من الموت...

نفوسهم قائمة بفعل المسيح وأجسادهم منحلة وهذه المقبرة ختمناها بالماء المقدس فأشرنا

بهذه الطريقة الرمزية إلى أنها استهلال للقيامة، إنها بدء، إنتظار...

هذا الانتظار هو تطلع على ما سوف يكون...

ولكن عندنا، هنا، امران:

عندنا - وهذا رأى أورثوذكسى وليس عقيدة - أن بعض الأجساد لا تفنى ولكن تبقى طرية،

مثال على ذلك:

المطران صدقة الموضوع فى دير مار إلياس - شوبا، وقد توفى منذ ما يقرب من مئة

وخمسين سنة ولم يزل اللحم على جسده وكذلك شعره...

وكثيرين من أجساد القديسين لم تر فساداً محفوظة بالكاتدرائية بكلوت بك بالقاهرة...

عن هذه الحالات يقول سمعان اللاهوتى الحديث انها حالة وسط وأن ثمة إنتظار لملكوت

السموات بحيث أن الجسد لا ينحل ويبقى فى حالة وسطى للدلالة على أن هذه الأجساد

سوف تبعث...

وبصرف النظر عن هذا الرأى ، ثمة أمر آخر مهم هو بقايا رفات القديسين وبقايا الشهداء

المحفوظة فى الكنائس والأديرة...

المهم هنا اننا نؤكد هذه المعية بكل هذه الرموز والأعمال، تؤكد هذه المعية الواحدة بيننا

وبين الذين ذهبوا، نؤكد ان الروح القدس الواحد يجمع بينهم وبيننا...

ولهذا فالموقف الأرثوذكسى فى إستشفاع العذراء والقديسين، أى طلب دعائهم لنا،
الموقف الأرثوذكسى فى ذلك ليس أنهم جسر يوصلنا إلى الله - ذلك أن الله أقرب إلينا مما
هم إلينا، وهذا التصوير أن الله بعأيد وأنهم هم يقربوننا إليه تصوير خاطئ - إنما هو أنهم
هم معنا فى صلاة واحدة...

والقضية هى فقط قضية ناس مرتبين حول عرش الله...
ويمكننا القول أن الذين سبقونا إلى المجد الإلهى انتهى جهادهم، أكملوا الجهاد الحسن...
من هذه الناحية هم ثبتوا فى سكون الله...
نحسبهم كذلك بحيث أننا نعتبر أنفسنا خطأة وأنا ما زلنا فى الجهاد فيما هم أكملوا
الجهاد...

ولا يختلف موقف الإستشفاع هذا عن أى طلب شفاعاة...
فمثلاً، عندما يقدم أحدنا تقدمة للكنيسة فى عيد قديس ما يطلب إلى الكاهن أن يذكر له
اسمه فطلب الشفاعاة باسم هذا القديس أو ذاك يكون من باب أن طلبة البار تقتدر كثيراً
فى فعلها...

البار يصلى، طبعاً فى الكنيسة، ولست أتكلم عن الصلاة الطقسية التى يرأسها الكاهن
من حيث الوظيفة، ولكنى اتكلم عن الدعاء الخاص الذى نطلب فيه شفاعاة الأبرار...
من هذه الناحية نحن نطلب شفاعاة الأولين هؤلاء الذين ينتمون إلى الصف الأول من
هذه الصفوف التى، فى النهاية، تتحلق كلها حول السيد المسيح...

*** يسوع المسيح الشفيع الوحيد :**

من هنا أنه يصبح سطحياً هذا السؤال:
لماذا نصلى طلباً لشفاعة مريم العذراء عند الله فى حثتين أن الشفيع الوحيد عند الله هو
يسوع المسيح؟...
المسيح هو الشفيع الوحيد بين الله والناس ليس بمعنى أنه يقصينا ولكن بمعنى أنه يقصى
شفاعة العهد القديم...

أى أن موسى لا يمكن أن يكون شفيعاً بين الناس والله، فالناس فى اليهودية بقوا
مفصولين عن الله إلى حين أتى المسيح فاتحد بهم به...
إذاً، فالوسيط الوحيد الذى يجمع بين الله والناس هو يسوع المسيح، كما يقول الرسول
بولس...

أى هو الذى عُلق على الخشبة...
فلأنه رُفع على الخشبة ومات ثم قام ألصق الله بالناس...

هذا يعنى أنه لا يوجد إلتصاق بين الله والناس عن طريق اليهودية ولكن عن طريق العهد الجديد...

وهكذا عبارة الشفيع الوحيد هى ليست لإقصاء مريم أو بقية القديسين، كلمة وحيد هى لإقصاء الذين سبقوا أى لإقصاء شرعية اليهود... وبالتالي فالمسيح يبقى الشفيع الوحيد بين الله والناس ونحن فيه...
إدًا، فهذا الشفيع الوحيد بين الله والناس هو المسيح النامى العملاق الذى ينمو من الآن وإلى آخر الدهر...

والذى يتناول جسد المسيح ودمه يلتصق به ويصبح جزءًا من المسيح...
إدًا، فالذى أصبح فى المسيح قائمًا من بين الأموات، الذى يتغذى من القيامة ويصبح إنسانًا قياميًا، هذا الإنسان يصلى فى المسيح، من جوف المسيح يصلى ويبقى فى هذه الوحداية المتشفعة، يبقى فى هذا الكائن الوحيد المتشفع من أجل الناس...

الفصل التاسع

المعمودية

"..و اعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا..."

* الأسرار فى الكنيسة:

يبتدئ البحث فى الأسرار من البحث عن الإنسان المؤمن، بعد أن صعد الرب إلى السماء...

نعلم أن بولس الرسول تكلم على أن هناك سرًا إلهيًا كان فى الله منذ الأزل، وهو سرّ محبة الله للبشر...

هذا السر يشغل حياة الله ضمن الثالوث القدوس، أى أن الآب والابن والروح القدس متحدون بسرّ المحبة:

[الله مَحَبَّة] [١ يوحنا ٤ : ٨] ...

تتطلق المحبة من الآب وتعود إليه فى دورة دائمة، فى حركة بين الأقانيم الثلاثة دائمة...

هذا السر، سرّ أن الله محبة، كُشف فى المسيح وحققه المسيح...

حقق المسيح المحبة بالفداء ثم عاد المسيح إلى أحضان الآب وأعاد إليه هذا الجنس البشرى المتروك الذى كان قد أخطأ....

بعودة المسيح إلى الآب، الإنسان نفسه عاد إلى الله...
هذا فى الأساس...

ثم سكب الله الروح القدس على المؤمنين لكي يعطيهم كل ما حُقق فى المسيح، أى لكي يمنحهم سرّ محبته ويجعلهم يعيشون معه...

حياة الله التى تدور ضمن الثالوث القدوس وتغلى ضمنه، حياة الله هذه كان لله أن يمد البشر بها...

والروح القدس هو الموزّع لحياة الله، هو معطيها...

إدًا، كل الهدف من مجئ المخلص على الأرض وصعوده إلى السماء، هو توزيع المواهب الإلهية على الناس...

بكلمة أخرى، يجب أن يكون هناك قوم يعيشون بحياة الله، وهؤلاء القوم هم الكنيسة...

والكنيسة تعيش بحياة الله، بقوة الله، كما كانت هذه القوة ظاهرة فى المسيح...

أى هى القوة نفسها التى كانت فى المسيح أيام بشارته، عندما كان على الأرض...

قوة المسيح هذه التى خلصت وأحبت يجب أن تُنقل بالروح القدس...

حياة الكنيسة هى، إدًا، حياة المسيح منقولة إلينا بالعنصرة، بإنعطاف الروح القدس

على البشر وعلى الكون بواسطة الكنيسة...

الكنيسة هى المحيط الذى فيه الله فاعل...

الله يحرّك الكنيسة، يحييها وينعشها بالحياة نفسها التى فيها، هذه الحياة التى كانت

مسكوبة فى المسيح...

وتوزيع حياة المسيح والقوة التى فى المسيح يتممه الروح القدس عن طريق الأسرار...

السرّ فى الكنيسة - كأن نقول سرّ المعمودية، سرّ الميرون أو سرّ الشكر - السر فى

الكنيسة لا يعنى شيئاً آخر غير السرّ الإلهى القديم، الأزلى، الذى تكلم عنه الرسول

بولس، أعنى سرّ الحياة الإلهية، سرّ المحبة، سرّ محبة الآب والابن والروح القدس...

وبالتالى، كيف تظهر محبة الله لنا بالأسرار؟، هذا هو الموضوع...

أسرار الكنيسة ماهى إلا نفس السرّ الذى ينكشف الآن، الذى يتحقق الآن...

وهذا السرّ الذى تحدّث عنه الرسول بولس فى الرسالة إلى أهل أفسس عندما قال:

[أَنَّهُ بِإِعْلَانِ عَرَفْنِي بِالسَّرِّ. كَمَا سَبَقْتُ فَكُنْتُ بِالْإِيجَازِ.

الَّذِي بِحَسَبِهِ حِينَمَا تَقْرَأُونَهُ تَقْدِرُونَ أَنْ تَفْهَمُوا دِرَائَتِي بِسِرِّ الْمَسِيحِ.

الذي في أجيالٍ أُخرَ لم يُعرَفَ به بَنُو البَشَرِ، كَمَا قَدْ أُعْلِنَ الآنَ لِرُسُلِهِ الْقُدِّيسِينَ وَأَنْبِيَائِهِ
بالرُّوح:

أَنَّ الْأُمَّمَ شُرَكَاءُ فِي الْمِيرَاثِ وَالْجَسَدِ وَتَوَالٍ مَوْعِدِهِ فِي الْمَسِيحِ بِالْإِنْجِيلِ. [أفسس ٣ :
٦ - ٣] ...

ثم يكمل:

[وَأُنِيرَ الْجَمِيعَ فِي مَا هُوَ شَرَكُهُ السِّرِّ الْمَكْتُومِ مُنْذُ الدُّهُورِ فِي اللَّهِ خَالِقِ الْجَمِيعِ بِيَسُوعَ
الْمَسِيحِ] [أفسس ٣ : ٩] ...

وهذا السر الإلهي نحن شركاؤه، نحن شركاء هذا الشيء الخفي في أعماق الله وهو أن
الأمم محبوبة كاليهود، أن البشر جميعاً محبوبون ويدخلون في ميراث الله...
أسرار الكنيسة، إذًا، هذا الإخراج لسرّ الله، هذا النقل وهذه الترجمة لهذه المحبة...
ولكن لهذه الأسرار كلها، وبالتالي، علاقة بحياة المسيح في الجسد...

وهذا هو المهم جدًا في البحث في الأسرار...

هذه الحياة الإلهية الأزلية عاشها المسيح في الجسد، هنا...

والروح يعطينا حياة المسيح كما عاشها هنا...

وبالأخير، إذًا، عندما نتكلم عن أسرار الكنيسة السبعة فهذه كلها تكون إمدادات لحياة
المسيح في أيام تجسده، بحيث نعيش نحن في الجسد ما عاشه هو في الجسد...

*** سر المعمودية :**

١ - المعمودية موت وحياة:

سر المعمودية ماذا يُخرج إلينا من حياة المسيح، ماذا يُترجم لنا؟...

هنا يمكن القول، أن المعمودية تترجم لنا كل حياة المسيح إذا كانت هذه الحياة تلخص
بكلمتين: موت وحياة...

حياة المسيح في البشرية، من الميلاد إلى تمجيدها عند فجر الفصح، كلها موت وحياة،
لأن المسيح وُلد لكي يموت ويُبعث...

طبعًا، وضعه في أقمطة وهذا المولد المتواضع وهذه المعمودية التي نالها من يوحنا في
الأردن وهذه الآلام المعنوية التي ذاقها من اليهود وهذه الاضطهادات، كل هذا، قبل
صلبه من اليهود وبيلاطس، كان طريقًا على الموت وكان، في وقت واحد، إنبعاثًا من
موت...

معمودية يسوع في الأردن كانت نزولاً تحت المياه وكانت خروجًا من المياه وظهورًا
للآب والروح عليه...

كذلك، التجلى على الجبل كان تمجيداً له، ولكنه، فى آن واحد، حسب رواية لوقا الإنجيلي، كان حديثاً عن خروجه من أورشليم، أى كان إستعداداً لموته:

[وَفِيمَا هُوَ يُصَلِّي صَارَتْ هَيْئَتُهُ وَجْهَهُ مُتَغَيِّرَةً وَلِبَاسُهُ مَبْيَضاً لَامِعاً. وَإِذَا رَجُلَانِ يَنْكَلِمَانِ مَعَهُ وَهُمَا مُوسَى وَإِيلِيَّا. أَلَّذَانِ ظَهَرَا بِمَجْدٍ وَتَكَلَّمَا عَنْ خُرُوجِهِ الَّذِي كَانَ عَتِيداً أَنْ يُكْمَلَهُ فِي أُورُشَلِيمَ. وَأَمَّا بُطْرُسُ وَالَّذَانِ مَعَهُ فَكَانُوا قَدْ نَنَقَلُوا بِالنَّوْمِ. فَلَمَّا اسْتَيْقَظُوا رَأَوْا مَجْدَهُ وَالرَّجُلَيْنِ الْوَاقِفَيْنِ مَعَهُ.

وَفِيمَا هُمَا يُفَارِقَانِيهِ قَالَ بُطْرُسُ لِيَسُوعَ: يَا مُعَلِّمُ جَيِّدٌ أَنْ نَكُونَ هَهُنَا. فَلَنَصْنَعُ ثَلَاثَ مَظَالٍ: لَكَ وَاحِدَةً وَلِمُوسَى وَاحِدَةً وَإِلِيلِيَّا وَاحِدَةً. وَهُوَ لَا يَعْلَمُ مَا يَقُولُ. وَفِيمَا هُوَ يَقُولُ ذَلِكَ كَانَتْ سَحَابَةٌ فَظَلَّلَتْهُمْ. فَخَافُوا عِنْدَمَا دَخَلُوا فِي السَّحَابَةِ. وَصَارَ صَوْتُ مِنَ السَّحَابَةِ قَائِلاً: هَذَا هُوَ ابْنِي الْحَبِيبُ. لَهُ اِسْمَعُوا. وَلَمَّا كَانَ الصَّوْتُ وَجَدَ يَسُوعَ وَحْدَهُ وَأَمَّا هُمُ فَسَكَتُوا وَلَمْ يُخْبِرُوا أَحَدًا فِي تِلْكَ الْآيَامِ بِشَيْءٍ مِمَّا أَبْصَرُوهُ] [لوقا ٩ : ٢٨ - ٣٦] ...

كل فصول حياة السيد هي إنبعاث من موت، مرافقة الموت للحياة... من هذا القبيل المعمودية تعطينا كل المسيح ولهذا نقول أنها الميلاد الثاني... هي الميلاد الثاني إذا قيس هذا الميلاد بميلادنا من أمتنا... هذا هو المولود الأول في الجسد، ولكننا نولد الآن ليس من لحم ودم ولا من مشيئة رجل بل من الله...

المسيح أعطانا أن نصير أولاد الله:

[وَأَمَّا كُلُّ الَّذِينَ قَبِلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ سُلْطَانًا أَنْ يَصِيرُوا أَوْلَادَ اللَّهِ أَيِ الْمُؤْمِنُونَ بِاسْمِهِ. الَّذِينَ وَلِدُوا لَيْسَ مِنْ دَمٍ وَلَا مِنْ مَشِيئَةٍ جَسَدٍ وَلَا مِنْ مَشِيئَةِ رَجُلٍ بَلْ مِنَ اللَّهِ] [يوحنا ١ : ١٢، ١٣] ...

الإنسان كان في حالة الغضب، في حالة اللعنة... واللعنة تعني الإقصاء عن البركة... والبركة معناها إمداد الإنسان بحياة الله... الإنسان أقصى عن هذه البركات بالخطيئة... هو جعل نفسه في الظلمة وجعل نفسه في العزلة عن الله وفي التشتت وفي التفتت، في التجزئة، في التلاشي وفي الإضمحلال... هذه هي الخطيئة عمقاً وكيوناً...

فالإنسان من جديد يولد وكأنه لم يكن...

فى الواقع، لم نكن نحن شيئاً قبل المخلص وقبل أن يتنزل علينا بالمعمودية...

٢ - المعمودية فى الديانات :

ماذا جرى فى المعمودية؟...

ماذا كان يجرى سابقاً، قبل المسيح، بالمعموديات؟...

كان للناس فى كل الدنيا معموديات وفى كل الديرة...

والوضوء الإسلامى نوع من معمودية وهو يعنى إغتسالاً وتهيئة للصلاة...

رهبان قمران، على شواطئ البحر الميت، قبل مجئ المخلص، كانت لهم أحواض

يغتسلون فيها كل يوم أكثر من مرة...

عندنا، أيضاً معمودية يوحنا كتهيئة للتوبة...

والدخلاء الوثنيون الذين كانوا ينضمون للدين اليهودى على يد الفريسيين، هؤلاء،

أيضاً كانوا يُعمدون...

الحضارة البشرية، قبل المخلص، هنا وهناك، كانت تعتمد تشوقاً منها إلى طهارة

كانت تتوق إليها...

كانت تتوقع هذه البشرية أن تنال طهارة...

والبشرية أحست أنها، من أجل هذه الطهارة تستعمل ماء...

طبعاً، أن يُقال: هذا أمر طبيعى وبديهى جداً كون الماء يغسل الجسم...

ولكن الفكرة كانت أبعد من هذا...

فالماء ملتبس المعنى فى الحضارات القديمة، أى ان له معنى مزدوجاً وهو لا يعنى،

دائماً الطهارة...

الماء مخيف البحر مريع...

الماء يدل على الغرق، على الموت...

والماء، فى كل الحضارات، كان محيط الخطيئة، محيط الشر...

مثلاً، فى الفكر العبرى: " لويathan " التنين: هذا كان الوحش الأسطورى الذى فى

الماء...

ولذا، فخواض البحر يقتل التنين، وما إلى ذلك من هذه الصورة الأسطورية...

الماء مخيف ثم الماء محيى...

فى التوراة خلق الله الدنيا من ماء:

[فِي الْبَدْءِ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ. وَكَانَتْ الْأَرْضُ خَرِبَةً وَخَالِيَةً وَعَلَى وَجْهِ الْعَمْرِ ظُلْمَةٌ وَرُوحُ اللَّهِ يَرِفُ عَلَى وَجْهِ الْمِيَاهِ] [تكوين ١ : ١، ٢]...

فى بداية التكوين، فى الأساطير البابلية، وأيضاً فى القرآن: " وجعلنا من الماء كل شئ حى "...

الماء هو المحيط الذى يخرج منه الكائن الحى...

الجنين يخرج من ماء...

إدًا، الماء مزدوج المعنى ملتبسه...

ولهذا فإتخاذ الإديان للماء لم يكن سببه فقط، أنه غاسل ولكن سببه هو أنه يميت ويحيى...

وإدًا، فالغسل، هنا، ليس شيئاً سطحياً...

الغسل معناه أننا نموت بشكل ما...

عندما جاء المخلص لم يخترع رمز الماء ولم يخترع المعمودية...

وجدها قائمة عند أهل قمران ويوحنا المعمدان والفريسيين...

ولكن موقفه منها كان أنه عبأها، ملأها بمعنى جديد...

٣ - المعنى المسيحى للمعمودية:

نعم، نحن نموت بالماء، ولكن أى موت هو المقصود؟...

ونحيا بالماء، ولكن أى حياة هى المقصودة؟...

فى أواخر إنجيل متى:

[فَأَذْهَبُوا وَتَلْمِذُوا جَمِيعَ الْأُمَمِ وَعَمِّدُوهُمْ بِاسْمِ الْآبِ وَالْإِبْنِ وَالرُّوحِ الْقُدُسِ] [متى ٢٨ :

١٩]...

أى إجعلوا من جميع الأمم لكم تلاميذ و عمدوهم...

إدًا، فالمعمودية مرتبطة عند المسيح بأن الناس يصيرون بها تلاميذ له...

أدًا، يتعلمون الإنجيل ويأخذون من الإنجيل الإيمان:

[مَنْ آمَنَ وَعِثَمَدَ خَلَصَ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ يُدْنِ] [مرقس ١٦ : ١٦]...

الإيمان هو الخروج من أى وضع نحن فيه إلى الله...

يقول الله لإبراهيم:

[اذْهَبْ مِنْ أَرْضِكَ وَمِنْ عَشِيرَتِكَ وَمِنْ بَيْتِ أَبِيكَ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أُرِيكَ] [تكوين ١٢ :

١]...

الإيمان هو، أيضاً، مجازفة مع الله...

هو أن يطرح الإنسان نفسه في كائن لا يعرفه، ويعرفه على قدر ما يطرح نفسه فيه...

يذوقه بعد أن يرمى نفسه هناك...

إذًا، هناك موت بالنسبة إلى الحياة القديمة التي كان فيها، هناك إنسلاخ عنها...
شئ منا يموت...

تُغرق في الماء...

وإذا متنا تأتي حياة جديدة ليست منّا...

هنا كل الحديث عند يسوع عن الماء الذي هو يعطيه، في ما قال للمرأة السامرية التي كانت تستقي من بئر يعقوب:

[كُلُّ مَنْ يَشْرَبُ مِنْ هَذَا الْمَاءِ يَعْطَشُ أَيْضًا] [يوحنا ٤ : ١٣]...

إذًا، شئ من الدنيا القديمة نتركه، نترك هذا العالم القديم، ندخل في وضع جديد مع هذا العالم الجديد...

كلّ هذا ينكشف، فيما بعد، بصورة أوضح بعد أن قام المخلص وحدثنا الرسول بولس عن هذه الحياة التي جاءت إلينا بالمعمودية حيث يقول في الرسالة إلى أهل رومية:

[أَمْ تَجْهَلُونَ أَنَّنَا كُلٌّ مَنِ اعْتَمَدَ لِيَسُوعَ الْمَسِيحِ اعْتَمَدْنَا لِمَوْتِهِ
فَدُفِنَّا مَعَهُ بِالْمَعْمُودِيَّةِ لِلْمَوْتِ حَتَّى كَمَا أُقِيمَ الْمَسِيحُ مِنَ الْأَمْوَاتِ بِمَجْدِ الْآبِ هَكَذَا نَسْلُكُ نَحْنُ
أَيْضًا فِي جَذَّةِ الْحَيَاةِ.

لأنّهُ إِن كُنَّا قَدْ صِرْنَا مُتَّحِدِينَ مَعَهُ بِشِبْهِ مَوْتِهِ نَصِيرُ أَيْضًا بِقِيَامَتِهِ.

عَالَمِينَ هَذَا: أَنَّ إِنْسَانَنَا الْعَتِيقَ قَدْ صُلِبَ مَعَهُ لِيُبْتَطَلَ جَسَدُ الْخَطِيئَةِ كَيْ لَا نَعُودَ نُسْتَعْبَدُ أَيْضًا
لِلْخَطِيئَةِ] [رومية ٦ : ٣ - ٦]...

ما أود أن ألفتكم إليه، فقط، الآن، هو هذا أن اللفظة التي يستعملها الرسول باليونانية وقد تُرجمت : أعتد ، يعتمد ، معمودية... إلخ...

هذه اللفظة هي Vaptiso (أعمد) وهي تعنى ، فقط، أغطس...

هذه كلمة عادية جدًا صارت، بعدئذ، مصطلحًا مسيحيًا...

من إعتد ليسوع - اللام هنا هي، في اليونانية، حرف جر وهو يعنى الحركة، أى
انتقل إلى يسوع بهذا التغطيس - إنما إنتقل إلى موته فدفن مع المسيح بالمعمودية...

مع هنا هي Préfixe أى هي، في لغاتهم، أداة توضع قبل الفعل...

ودفنا معه تصبح، بهذا، فعلاً واحدًا عندهم ، أى تصبح لفظة واحدة...

وإذا قرأ الواحد اللفظة - الفعل هذا الذى رغبه الرسول بولس والذى ليس موجودًا فى اليونانية بلّ هو من إختراع بولس: دفن مع، فهذا يعنى أنه عندما دُفن المسيح كان معه الذين له، أى أن الذين له كانوا معه فى القبر...

إدًا، نحن عندما نعتمد فكأننا تخطينا الزمان وأبدناه وانتقلنا هذه السنين الألفين، وكأننا، أيضًا، نحن الذين متنا مع المخلص ودُفنا معه...

إدًا، ما حصل ليسوع المسيح ربطنا مع المسيح...

ما حصل له هو، بالفداء، حصل لنا أيضًا...

إن الحياة الإلهية التى كانت فى المسيح أبادت الموت، تفجّرت فى الموت فحولته إلى حياة وقامت هذه الحياة من القبر لأنه لا يمكن أن يُضبط أساس الحياة وخالقها فى القبر...

بعد أن مات، لا يموت ولا يتسلط عليه الموت...

يمكننا أن نقول، إدًا، أن المعمودية هى أن تتحقق فينا هذه الأشياء التى صارت، أن تُخرج...

فى الحقيقة، ليس هناك شئ جديد فى المعمودية...

المعمودية لم تبتدئ اليوم، هى إبتدأت آنذاك بموت السيد وقيامته...

إن موت المسيح وقيامته هما كحدث واحد من حيث الأصل والطاقة، لأن كل قيامة المسيح موجودة فى موته ولكنها تفجّرت بعدئذ...

أى أن كل حياة المسيح كانت مسكوبة فيه عندما مات...

وهذه الحياة التى فيه هى مسجلة فينا نحن منذ أن مات وقام، أى هى مسجلة فى المؤمنين...

ولذلك، فعندما يُعمّد إنسان تُخرج هذه الحياة، نُؤديها، ونُعبّر عنها...

هى بالحرى، خلقة جديدة بالماء والروح...

هى إنكشاف لحياة المسيح فينا...

لذلك، نقول: دُفنا - وهو فعل ماضٍ - معه للموت أى حتى الموت...

نحن نُدفن حتى نموت، حتى، كما أقيم المسيح من الأموات بمجد الآب، هكذا نسلك نحن أيضًا فى جدة الحياة، فى حياة جديدة...

إدًا، هذه مشاركة كانت موجودة وحُققَت الآن، وُزعت علينا هذه المشاركة، بالروح القدس، فى هذا السرّ...

القضية، إذًا، ليست قضية محو خطيئة...
هى ليست أن ثمة دَيْنًا مكتوبًا علينا يُمَحى فنصبح بلا دَيْن - هذا التصوّر العادى
للمعمودية وهو أننا بها نصبح بلا دين، بلا خطيئة جدّية...
فى الحقيقة، إن الخطيئة الجدّية لا تورث، أى لا تنتقل، ولكن الإنسان يولد ميتًا، يُولد
معرّضًا للموت، حاملًا فى طيّات نفسه وجسده قوة الموت...
الإنسان هو فى حالة موت دائم، بمعنى أنه مقهور، منحدر، مهترئ...
هذا وضع نلاحظه...
الموت لم يأت...
هو لا يأتى ولا يذهب...
هذا ما يُلاحظ: الموت فى الإنسان...
هذا وضعه...
هو إنسان فى حالة إنحطاط...
كلّ إنسان هو مولود فى الإنحطاط، فى التقهقر، فى الإهتراء، فى السقوط، فى
الظلمة...
إدًا، الموت طاقة فينا...
هذا ما سمّاه فرويد " غريزة الموت"...
فعندما ينزل المسيح إلينا ويتحد بنا فى المعمودية يضع شيئًا ليس فينا، يضع قوة
الحياة...
فقوة الحياة التى فيه تصارع قوة الموت التى فينا...
فإذا قبلنا الموت هو ، نكون ، فى نفس الوقت، قابلين إفناء موتنا نحن...
عندما نرتضى أن المسيح مات، أى عندما نسلّم إليه، إلى صليبه، إذ ذاك نكون غالبين
لقوة الموت التى فينا...
المهم هو أنه يجب أن ندرك هذا حتى ندرك كل العملية وإلا تبقى قضية سطحية...
وليس هناك كعمودية بدون إدراك ذلك...
كيف خلصنا يسوع المسيح؟...
خلصنا بأنه، وهو الذى لا يحتمل الموت ولا يُحكم عليه بالموت ولا يموت ولا
يستطيع أن يموت لأنه بار، والبار لا يموت، إرتضى الموت...
كل عملية الفداء متعلقة بهاتين الكلمتين...
المسيح الذى لا يستطيع أن يموت أراد أن يموت...

فإدًا، هو أدخل الموت طوعًا إلى ذاته...

فالموت الذى كان ضرورة على الجنس البشرى، إقتبله هو طوعًا...

أطاع الله بهذا...

لكونه خضع بإرادته للموت، كان فوق الموت...

لكونه أطاع الموت، صار فوق الموت وصار غالبًا له، هو سيد الموت...

لكونه أطاع الله حتى الموت، موت الصليب، رفعه الله إليه: " متوفيك ورافعك

إلى"...

رفع الله إليه وأعطاه إسم فوق كل إسم...

ترجمة هذا الكلام فى اللغة العصرية تعنى: أعطاه قوة فوق كل قوة وحضورًا فوق

كل حضور، ونفادًا فوق كل نفاذ...

وإدًا، حياة المسيح كانت فيه - وهى حياة الله فى المسيح فى هذا الجسد - منذ ان قبل

الموت...

بكلمة أخرى، كان المسيح منبعثًا منذ أن إرتضى الموت...

قوة الإنبعاث كانت فيه آنذاك...

هذا يعنى أنه، عندما كان المسيح على الصليب، بعد أن مات، لم تكن ثمة لحظة من

لحظات الزمان كان المسيح فيها مغلوبًا ولا يمكن أن يُغلب...

من المهم تأكيد أنه ليس هناك لحظة زمنية كان المسيح فيها ميتًا وعبدًا للموت...

إدًا، هذا يعنى أنه مات وقام فى نفس الوقت...

ليس هذا أنه رُئى حيًا، كلا، لم يُرَ حيًا ولكن فى حقيقة الأمر، كان حيًا...

رُئى حيًا بعد ثلاثة أيام، فى اليوم الثالث، فى القيامة التى هى كشف لهذه الحياة التى

فيه وإذاعة لها وبثًا لها على الكون وإشراكًا للمؤمنين فى قوة الفداء...

من هنا قول الرسول بولس: " دُفِنًا معه للموت" وهذا يعنى أنه ربانا فى الموت

بالمعمودية، حتى ، كما أقيم، نقوم نحن أيضًا فى جدة الحياة...

نحن أيضًا عندما إرتضينا المعمودية أو نرتضيها بعد أن تمت، أى نرتضيها طيلة

العمر - المعمودية تُرتضى أو تُرفض - فإرتضاؤنا لها يعنى أننا قبلنا هذا الموت...

قبلنا موت المسيح وقبلنا أن نموت عن الخطيئة...

وبلغة أخرى، أن نميت الخطيئة فينا، وبهذا نفصل كياننا الحقيقى الجوهرى عن

الخطيئة...

عندما يقول الرسول بولس: " أن نموت عن الخطيئة " ، فهذا لأن الإنسان، فى أصله، حرّ من الخطيئة...

والرسول إعتبر الخطيئة جسم غريب، دخيل نموت عنه...

إذا، فى اللحظة التى تُعمّد فيها، نموت ونقوم، نحصل على الحياة الجديدة بالمثل... وإذا كانت فىنا الحياة الجديدة فالخطيئة تزول...

إذا، فزوال الخطيئة فىنا أو زوال قوة الخطيئة فىنا هو نتيجة للحياة الجديدة... الحياة الجديدة تأتى مثل الطعم...

والطعم إذا أتى يحارب الجرثومة...

الحياة الجديدة التى تنسكب من المسيح علينا بالروح القدس فى الكنيسة هى التى تطارد قوة الموت...

فإذا، نحن فى مطاردة لقوة الموت عن طريق الحياة الجديدة...

وهذا ما نحياه بوجه عام، فى العمر كله...

حياتنا هى إفناء للموت، إماتة الموت، إماتة الخطيئة، إماتة كل قوة القهر والظلم والخنوع والذل وكل ما هو فساد...

وهى مطاردة الفساد بقوة الحياة التى إنكشفت وتفجّرت...

*** ملحق :**

معمودية الأطفال

للأب/ نقولا أفاناسييف

١- المسألة :

تتوجه البشارة المسيحية إلى الناس كافة حتى يقدر كل منهم أن يؤمن بآبى الله وأن يدخل فى الكنيسة إذا تاب...

والإيمان والمعمودية يتطلبان ذلك الرشد الذى يضمن العلاقة الواعية بسر المعمودية عند الداخل إلى الكنيسة...

والكنيسة تقبل فقط أولئك الذين ادركوا الغاية والمعنى من إنضمامهم إليها...

فهل يتبع هذا أن الأطفال والأولاد يجب أن ، ويقبلوا فقط إذا بلغوا ذلك الرشد أو يمكن تعميدهم وفق رغبة ذويهم؟...

ويبدو أن هناك ما يجعلنا ننظر أن مسألة المعمودية كانت مطروحة فى العصر

الرسولى وكانت تثار من وقت إلى آخر بصورة ماسة...

ولكن بلغت حدتها فى زمن المناظرات البيلاجيوسية...

وبنتيجة هذه المناظرات ثبتت ممارسة المعمودية للأطفال...

ولكن المسألة لم تطرح جانباً بصورة نهائية...

وفي الأزمنة الحديثة ظهرت ظهرت بصدد هذ المسألة تيارات متشعبة...

٢ - المعمودية الأطفال فى العصر الرسولى:

ليس لدينا من العصر الرسولى معطيات إيجابية تجعلنا نؤكد الصورة التى حلت فيها

قضية المعمودية الأطفال فى الكنيسة الأولى...

أن الشهادات التى لدينا لا تخولنا الحق فى أن نؤكد أن المعمودية الأطفال كانت تُكْمَل فى

العصر الرسولى الأول أو لا تُكْمَل...

لقد ذكرت فى أسفار العهد الجديد المعمودية بعض العائلات:

عماد بطرس لكرنيليوس [أعمال الرسل ١٠]...

معمودية ليديا وأهل بيتها [أعمال ١٦ : ١٥]...

معمودية السجان وأهل بيته [أعمال الرسل ١٦ : ٣٣]...

معمودية كريسبوس رئيس المجمع وكل أهل بيته [أعمال الرسل ١٨ : ٨]...

ومعمودية بيت إسطفانوس [١ كورونثوس ١ : ١٦]...

ومن العسير أن نذهب إلى أن هذه البيوت المعمدة كلها كانت خالية من الصغار...

كذلك لا نستطيع الجزم بأنهم كانوا موجودين...

فلو كنا عارفين أن الرسل عمدوا أولادًا لقلنا بتأكيد أن الصغار، فى حال وجودهم،

عمدوا ولكن من كون بيوت كرنيليوس وليديا والسجان تعمدت لا نستطيع إطلاقًا أن

نستنتج أن الرسل عمدوا أولادًا...

٣ - المعمودية الأطفال فى العصور الأولى:

أما فى العصر اللاحق للعصر الرسولى فممارسة المعمودية الصغار مشهودًا لها

كثيرًا...

فإن أوريجانوس يشهد بأن:

" الكنيسة تقلدت من الرسل أن تمنح المعمودية أيضًا للأطفال " [فى الرسالة إلى

الرومانيين ٥ : ٩]...

ونعلم أن الأطفال فى القرن الثانى عُمِدوا شرقًا وغربًا...

بذا يشهد إيريناوس [ضد الهرطقات ٢، ٣٣ : ٢]، وترتليانوس [فى المعمودية ، ١٨

[...

وفى القرن الثالث، فى كنيسة روما، كانت المعمودية الأطفال ظاهرة مألوفة...

وفى " التقليد الرسولى " إشارة إلى أنه يجب تعميد الأطفال قبل البالغين...
وقد كان يؤتى بالأولاد إلى المعمودية فى سن مبكرة جداً...
ويتضح هذا مما أشار إليه هيبوليتوس الرومانى بأن الوالدين أو الأقارب يستطيعون أن يعطوا جواباً أثناء المعمودية [التقليد الرسولى ٢١: ٤]...
وإذا أتاح " التقليد الرسولى " مجالاً للشك فى السن التى فيها يؤتى بالأولاد إلى المعمودية ففى أيام كبريانوس القرطاجى كانوا يقولون بأنه لا يجوز إرجاء المعمودية إلى ما بعد اليوم الثامن [الرسالة الـ ٦٤]...
فى القرن الرابع لم يتغير الموقف من معمودية الأطفال...
وكما يتضح من شهادة يوحنا ذهبى الفم [الموعظة ١١ ، ١٧ : ٢٨] ، وأمبروسىوس [فى إبراهيم ٢ ، ٨١] ، كانت معمودية الأطفال نظاماً شائعاً...
وفى القرن الخامس ثبتت المناظرات البلاجوسية نظام معمودية الأطفال ، " إنه من حماقة أن نعلم أن الأولاد يستطيعون أن يرثوا الحياة الأبدية دون المعمودية " ، هكذا قال البابا أينوكنديوس الأول عن نتيجة هذه المناظرة...
وفى الغرب ثبت رأى كبريانوس القرطاجى بمجمعه فى أن المعمودية يمكن أن تكمل مباشرة بعد الولادة...
أما فى الشرق ففى القرن التاسع كانوا أيضاً يذهبون إلى أنها تكمل فى اليوم الأربعين...
ثم زال الفرق بين العرف الغربى والعرف الشرقى تدريجياً...
ولكن ثبت فرق آخر ، فى الشرق رافق معمودية الأطفال والأولاد إتمام سرّ مسحة الميرون وبعده يعلن الطفل مستحقاً للإشتراك بسر الشكر " الفائق القداسة والكمال"...
أما فى الغرب ، ففى القرون الوسطى فصل التثبيت عن المعمودية وأخذ الأسقف يكمله على الأولاد فى سن الحادية أو الثانية عشرة وكانت المناولة الأولى تتبعه...
ولكن فى الكنيسة الأرثوذكسية يتم قبول الأطفال فى الكنيسة قبولاً كاملاً بالمعمودية والميرون...

٤ - الأساس التاريخى واللاهوتى لمعمودية الأطفال:

وإن كانت معمودية الأطفال نظاماً شائعاً فى القرن الثانى فمن الطبيعى الظن بأنه لم ينشأ فى العصر اللاحق للرسول ولكنه كان تكميلاً للنظام العصر الرسولى...
فنحن نعود هكذا ثانية إلى هذا السؤال:
هل كان الرسل يتممون معمودية الأطفال أم لا؟

وإذا كنا بدون أدلة تشير إلى ذلك فى أسفار العهد الجديد فهل ينبغى أن نزهد بحلّ مسألة جوهريّة كهذه؟...

أن خلاء الأدلة الواحدة فى أسفار العهد الجديد طبيعى بالكلية لأن العدد العديد من المتعمدين كانوا من البالغين...

أن مسألة تعميد الأولاد يمكن أن تُطرح فقط فى الجيل المسيحى الثانى ولكن عندما طُرحت فى ذاك الزمن كان التقليد الكنسى فى هذا الموضوع متراكماً...

من خلاء الأدلة المباشرة عن معمودية الأطفال فى العهد الجديد ينبغى أن نخرج بالتعليم عن المعمودية من جهة وبنظام معمودية الدخلاء عند اليهود ونظام الختان من جهة أخرى...

وبكلمة أخرى، المسألة فى هل يتوافق نظام معمودية الأطفال مع التعليم عن سرّ المعمودية؟...

وهل ينسجم مع نظام الختان وقبول الدخلاء؟...

[لَأَنَّا جَمِيعُنَا بَرْوَحٍ وَاحِدٍ أَيْضاً اعْتَمَدْنَا إِلَى جَسَدٍ وَاحِدٍ يَهُوداً كُنَّا أَمْ يُونَانِيّينَ عبيداً أَمْ أَحْرَاراً. وَجَمِيعُنَا سُقِينَا رُوحاً وَاحِداً] [١ كورونثوس ١٢: ١٣]...

إن الدخول فى الكنيسة لهُو الدخول فى جسد المسيح، وأعضاءه صرنا فى المعمودية... هذا الدخول يجب أن يسبقه الإيمان والتوبة أو التوبة والإيمان، وعليهما يُبنى الاختيار الروحى لمن يرغب فى الدخول إلى الكنيسة...

ومع هذا لا الإيمان وحده ولا التوبة وحدها ولا الاختيار الحرّ قادر أن يجعل من الراغب فى الإنضمام على الكنيسة عضواً فى جسد المسيح...

إن الكنيسة لا تسجّل الراغبين فى الدخول إليها إن وَجَدَتْ فيهم الإيمان والتوبة ولكنها تكمل سرّ المعمودية عليهم ، الإنضمام إلى الكنيسة يكمله الروح القدس الذى يرسله الله فى سرّ المعمودية...

الكنيسة هى مكان فعل الروح القدس ولذا تُجرى المعمودية فى الكنيسة وهى التى تجربها بالإستقلال عن المعتمد ولو بناء على إختياره الحرّ...

المعمودية هى جواب الكنيسة عن إيمان الراغب فى الدخول إليها ولكن المعمودية نفسها تقتضى أن يتبعها إيمان المعتمد جواباً منه عن معموديته...

الدخول فى الكنيسة ممكن فقط بالإيمان بابن الله الذى أحب المعمد واسلم نفسه من أجله...

الإيمان السابق للمعمودية يفرض الإيمان اللاحق إنفتاحاً كاملاً له...

الحياة فى الكنيسة تبتدى بوقت المعمودية بواسطة الإشتراك فى سرّ الشكر...

بدون هذا الإشتراك تظل المعمودية غير ومحقة...

وبدورها الحياة فى الكنيسة غير ممكنة بدون المعمودية...

هكذا نصل إلى العبارة " الإيمان - المعمودية - الإيمان " وتبدو هذه العبارة إلزامية إطلاقاً لكل الداخلين فى الكنيسة...

إن الشطر الأول والشطر الثالث من هذه العبارة يتعلّقان بالإنسان، أمّا الشطر الثانى وهو الرئيسى فلا يتعلّق به، بلّ يكمله الروح القدس بالكنيسة...

[لَأَنَّنَا جَمِيعًا بِرُوحٍ وَاحِدٍ أَيْضًا اعْتَمَدْنَا إِلَى جَسَدٍ وَاحِدٍ ...]...

الإيمان السابق يفتح إمكانية تكميل المعمودية...

أمّا الإيمان اللاحق فهو الشرط لإمكانية الإشتراك فى الإفخارستيا...

إن الولادة الطبيعية من والدين يهوديين تعين إنتساب الأولاد إلى شعب العهد القديم المختار إلا أن الولادة الطبيعية وحدها لم تكن بكافية لتجعلهم أعضاء فى الشعب الذى اقام الله معه عهداً...

فكان ختم الختان وحده يجعل المولود من أبوين يهوديين عضواً حقيقياً فى شعب الله...

وفى اليهودية كان الختان يُنظر إليه كولادة جديدة ترافق الولادة القديمة...

وأن معنى الختان كعلامة إنتساب للشعب المختار ينطلق من هذا أن الوثنيين كانوا قادرين أن يصبحوا أعضاء فى شعب الله عن طريق الختان...

وكان يتمّ عليهم على أساس إيمانهم وحرية إختيارهم...

[وَأَخَذَ عَلَامَةَ الْخَتَانِ خَتْمًا لِبِرِّ الْإِيمَانِ الَّذِي كَانَ فِي الْعُرْلَةِ لِيَكُونَ أَبًا لِّجَمِيعِ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ وَهُمْ فِي الْعُرْلَةِ كَيْ يُحْسَبَ لَهُمْ أَيْضًا الْبِرُّ] [رومية ٤ : ١١] ...

ولابد هنا ان نلاحظ أن ختان الأمميين كان يرافق " غسل التطهير " الذى كان يجرى للرجال والنساء...

وأثناء ختن الدخلاء كان صبيانهم يختنون...

وأمّا " غسل التطهير " فكان يجرى للبالغين والأولاد المولودين قبل ختانة الأب...

أمّا الأولاد الدخلاء المولودين بعد الختانة فما كانوا خاضعين لـ " غسل التطهير "...

أن عصر الولادة الطبيعية لم يكن له معنى فى العصر الرسولى للدخول إلى الكنيسة...

فكان الأمم واليهود يتنصرون " بختم " سرّ المعمودية...

فكما كان الختان، كانت المعمودية ختم الإنتساب إلى شعب الله...

إن المقارنة بين المعمودية والختان ظاهرة عند الرسول بولس:

[وَبِهِ أَيْضًا خُتِنْتُمْ خِتَانًا غَيْرَ مَصْنُوعٍ بِيَدٍ، بِخَلْعِ جِسْمِ خَطَايَا الْبَشَرِيَّةِ، بِخِتَانِ الْمَسِيحِ] [

كولوسي ٢: ١١]...

بقوة هذه المقارنة استبدل الختان المصنوع بيد البشر بختان غير مصنوع بيد...

لقد أعوز الأمم و اليهود " غسل التطهير " ليصبحوا يفعل الروح القدس أعضاء في

جسد المسيح...

عليهم ان يولدوا من فوق، من الروح القدس لينتسبوا للعهد الجديد...

إن المعمودية ولادة روحية وبدونها لا حياة في الكنيسة...

وقد حسم الرب يسوع سرّ المعمودية في مقابلته مع نيقوديموس قائلاً:

[فَقَالَ يَسُوعُ: الْحَقَّ أَقُولُ لَكَ: إِنْ كَانَ أَحَدٌ لَا يُوَلَدُ مِنْ فَوْقُ لَا يَقْدِرُ أَنْ يَرَى مَلَكُوتَ

اللَّهِ .

قَالَ لَهُ نِيقُودِيمُوسُ: كَيْفَ يُمَكِّنُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُوَلَدَ وَهُوَ شَيْخٌ؟ أَلَعَلَّهُ يَقْدِرُ أَنْ يَدْخُلَ بَطْنِ أُمِّهِ

ثَانِيَةً وَيُولَدَ؟

أَجَابَ يَسُوعُ: الْحَقَّ أَقُولُ لَكَ: إِنْ كَانَ أَحَدٌ لَا يُوَلَدُ مِنَ الْمَاءِ وَالرُّوحِ لَا يَقْدِرُ أَنْ يَدْخُلَ

مَلَكُوتَ اللَّهِ.

الْمَوْلُودُ مِنَ الْجَسَدِ جَسَدٌ هُوَ وَالْمَوْلُودُ مِنَ الرُّوحِ هُوَ رُوحٌ.

لَا تَتَعَجَّبْ أَنِّي قُلْتُ لَكَ: يَنْبَغِي أَنْ تُوَلَدُوا مِنْ فَوْقُ.

الرِّيحُ تَهْبُ حَيْثُ تَشَاءُ وَتَسْمَعُ صَوْتَهَا لَكِنَّكَ لَا تَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ تَأْتِي وَلَا إِلَى أَيْنَ تَذْهَبُ. هَكَذَا

كُلُّ مَنْ وُلِدَ مِنَ الرُّوحِ] [يوحنا ٣: ٨ - ١٠]...

٥ - الولادة الطبيعية من أبوين مسيحيين دعوة إلى العماد:

كان لا بد لعنصر الولادة الطبيعية أن يدخل في حيّز الوجود في الجيل المسيحي

الثاني فيما يتعلق بمعمودية الأولاد المولودين من أبوين مسيحيين...

إن النظام المسيحي، آنئذ، كان يوجهه نظام الرسل الأول عندما شرعوا يعمدون العيل

(العائلات)...

إن حالات التعميد لعائلات كاملة كما هي موصوفة في سفر الأعمال ما كانت نادرة...

إن المقارنة بين المعمودية والختان أوحى إلى الرسل وصحبهم أن يكملوا في آن واحد

معمودية البالغين والأولاد...

وإنّا لو اجدون في بولس الرسول ما يثبت ذلك عندما يقول:

[لَأَنَّ الرَّجُلَ غَيْرَ الْمُؤْمِنِ مُقَدَّسٌ فِي الْمَرْأَةِ وَالْمَرْأَةُ غَيْرُ الْمُؤْمِنَةِ مُقَدَّسَةٌ فِي الرَّجُلِ -
وَالْأَقُولُ لَكُمْ تَجْسُون. وَأَمَّا الْآنَ فَهُمْ مُقَدَّسُونَ (Aghia)] [١ كورونثوس ٧ : ١٤]...
فمن كلام بولس الرسول يتضح أن لعنصر الولادة الطبيعية علاقة مباشرة بالإنساب
إلى الكنيسة ولفظة " أجيوس " التى يضعها بولس الرسول للأولاد من أب مؤمن أو أم
مؤمنة تعنى أنهم ينتسبون لشعب الله. أى أنه يفتح لهم أبواب المعمودية : إنهم مقدسون
فإذا قد إعتمدوا...

إن اللاهوت العقائدى يؤكد أن المعمودية الأطفال تكمل بناء على إيمان الوالدين :
{ أما ما يختص بالأطفال فهم غير قادرين أن يكون عندهم إيمان وتوبة ولا أن يشهدوا
لهما قبل المعمودية فإنهم يتعمدون بناء على إيمان والديهم وإشبينهم الذين يتلون عوضاً
عنتهم قانون الإيمان وجدد الشيطان وكل أعماله متعهدين أمام الكنيسة بتنشئة الأولاد فى
الإيمان وحسن العبادة إذا ما بلغوا السن { ...

إن إيمان الوالدين هو حقيقة شرط إمكانية تكميل المعمودية الأولاد...
فى العبارة " الإيمان - المعمودية - الإيمان " الإيمان السابق عند المعتمد يقوم مقامه
عند الولد كونه ابنًا لوالدين مؤمنين...

الكنيسة تنتمى إلى الدهر الآتى ولكنها قائمة فى الدهر الحاضر...
والولادة الطبيعية عنصر طبيعى متعلق بالدهر الحاضر ولكن من أجل العائشين فى
الكنيسة فإنها عنصر كنسى...

الولادة الطبيعية تجر إليها الولادة الروحية للدهر الآتى...
الولادة من أبوين مسيحيين شهادة تعطى للكنيسة أن نقول أن الله يدعو أولاد هذين
الأبوين إلى الكنيسة...

ولذلك لا نستطيع أن نقول أن المعمودية الأطفال تخرق حرية إرادتهم لأن الإرادة الحرة
غير موجودة إطلاقاً عندهم ونحن لا نقول ان الولادة الطبيعية تخرق الإرادة الحرة
عندهم...

ومن هنا تنبثق نتيجة أساسية تتعلق بمعمودية الأطفال والأولاد...
إنها تكمل فقط لأولاد الأشخاص القائمين فى الكنيسة لأن قيام الوالدين فى الكنيسة يمكن
أن يقوم مقام إيمان الطفل المعتمد...

ففى حالة المعمودية الأطفال المولودين لأبوين غير مسيحيين ليس من إيمان سابق لأن
إيمان الإشبين لا يستطيع أن يملأ فراغ الإيمان عند الأولاد

المولود لأبوين مسيحيين يدخل إلى العالم والله يدعو إلى الكنيسة...
بالمعمودية المكملّة في الكنيسة يصبح عضوًا في شعب الله...
إن حياته العاملة في الكنيسة تتعلق بإيمانه اللاحق...
وهذا هو جواب من تعمد في الطفولة عن نداء الله...
وبآن واحد هذا الإيمان هو جوابه للكنيسة التي عمدته على أساس نداء الله إليه...
وهذا الجواب يمكن أن يكون إيجابيًا أو سلبياً...
ولكن في هذه الحالة وتلك يظل عضوًا في الكنيسة...
وكما يستحيل محو الولادة الطبيعية هكذا يستحيل محو الولادة الروحية...
وبقوة ولادته الروحية يعترف أنه مقيم في الدهر الحاضر وأنه ينتمي بآن واحد إلى
الدهر الآتي...
على المعتمد نفسه أن يحقق إنتسابه إلى الكنيسة وأن مسؤولية هذا التحقيق ملقاة ليس
فقط عليه ولكن على الكنيسة التي على أساس إيمان والديه كملت معمديته، ثم تقع
هذه المسؤولية على والديه...

الفصل العاشر

المَجَى الثَّانِي وَالْحَيَاةُ الْأَبَدِيَّةُ

".. وأيضًا يأتي في مجده ليدين الأحياء والأموات... الذى ليس لملكه إنتضاء... وننتظر قيامة
الأموات وحياة الدهر الآتى . آمين..."

تمهيد

عندما يفكر المرء بآخر الأزمنة، تراوده فورًا مشكلة مصيره الشخصى، ويطرح على
نفسه السؤال:

ماذا سيحدث بى بعد الموت؟...

هذا التساؤل ناتج عن جعل الإنسان نفسه محورًا للعالم...

غير أن الإعلان الإلهى والتقليد الكنسى يعلمان أن " الأنا " ليست محور العالم، وأن
محور العالم هو ذاك الذى قال :

" أنا الألف والياء، البداية والنهاية "...

لذلك فالسؤال الصحيح الذى يجب أن يُطرح هو:

ماذا سيحدث عند مجئ المسيح الثانى؟...
الكنيسة تعيش على إنتظار هذا المجئ، إذ حينئذ فقط يصير المسيح " الكلّ فى الكلّ"
وتتم عملية الخلاص وإفتقاد الله للبشر...
فى هذا الفصل سنبحث كل جوانب هذا السر محاولين، قدر المستطاع بنعمة الرب
يسوع، الولوج فى أعماقه...

١ - المجئ الثانى للمسيح

أ - يسوع نفسه :

أثناء بشرته على الأرض، أعلن عن مجيئه الثانى فقال:
[وَحِينَئِذٍ تَظْهَرُ عَلَامَةُ ابْنِ الْإِنْسَانِ فِي السَّمَاءِ. وَحِينَئِذٍ تَنُوحُ جَمِيعُ قَبَائِلِ الْأَرْضِ
وَيُبْصِرُونَ ابْنَ الْإِنْسَانِ آتِيًا عَلَى سَحَابِ السَّمَاءِ بِقُوَّةٍ وَمَجْدٍ كَثِيرٍ. فَيُرْسِلُ مَلَائِكَتَهُ بِبُوقِ
عَظِيمِ الصَّوْتِ فَيَجْمَعُونَ مُخْتَارِيهِ مِنَ الْأَرْبَعِ الرِّيَّاحِ مِنْ أَقْصَاءِ السَّمَاوَاتِ إِلَى أَقْصَائِهَا] [متى ٢٤ : ٣٠ ، ٣١]...
و [وَحِينَئِذٍ يُبْصِرُونَ ابْنَ الْإِنْسَانِ آتِيًا فِي سَحَابٍ بِقُوَّةٍ كَثِيرَةٍ وَمَجْدٍ فَيُرْسِلُ حِينَئِذٍ مَلَائِكَتَهُ
وَيَجْمَعُ مُخْتَارِيهِ مِنَ الْأَرْبَعِ الرِّيَّاحِ مِنْ أَقْصَاءِ الْأَرْضِ إِلَى أَقْصَاءِ السَّمَاءِ] [مرقس ١٣ :
٢٦ ، ٢٧]...
و [وَحِينَئِذٍ يُبْصِرُونَ ابْنَ الْإِنْسَانِ آتِيًا فِي سَحَابَةٍ بِقُوَّةٍ وَمَجْدٍ كَثِيرٍ] [لوقا ٢١ : ٢٧]...

وقد ذكرنا الرسول بولس بأقوال السيد هذه فى أول رسالة كتبها من كورونثوس إلى
أهل تسالونيكي:

[فَإِنَّا نَقُولُ لَكُمْ هَذَا بِكَلِمَةِ الرَّبِّ: إِنَّمَا نَحْنُ الْأَحْيَاءُ الْبَاقِينَ إِلَى مَجِيءِ الرَّبِّ لَا نَسْبِقُ
الرَّاقِدِينَ. لِأَنَّ الرَّبَّ نَفْسَهُ سَوْفَ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ بَهْئَافٍ، بِصَوْتِ رَئِيسِ مَلَائِكَةٍ وَبُوقِ اللَّهِ،
وَالْأَمْوَاتُ فِي الْمَسِيحِ سَيَقُومُونَ أَوَّلًا] [١ تسالونيكي ٤ : ١٥ ، ١٦]...

ب - الأحداث التى تشير إلى المجئ الثانى:

لم يُعلن يسوع موعد مجيئه الثانى، لا بل أكد على أن ذلك الموعد لا يعرفه أحد سوى
الله، ولكنه أشار إلى أحداث تسبق ذلك الموعد...

١ - دمار الهيكل ومدينة أورشليم:

[فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: أَمَّا نَنْظُرُونَ جَمِيعَ هَذِهِ؟ الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ إِنَّهُ لَا يَثْرَكُ هَهُنَا حَجَرٌ عَلَى
حَجَرٍ لَا يُبْقِضُ!] [متى ٢٤ : ٢]...

و [وَمَتَى رَأَيْتُمْ أُورُشَلِيمَ مُحَاطَةً بِجُيُوشٍ فَحِينَئِذٍ اَعْلَمُوا أَنَّهُ قَدْ اقْتَرَبَ خَرَابُهَا. حِينَئِذٍ لِيَهْرُبَ
الَّذِينَ فِي الْيَهُودِيَّةِ إِلَى الْجِبَالِ وَالَّذِينَ فِي وَسْطِهَا فَلْيَفْرُوا خَارِجًا وَالَّذِينَ فِي الْكُورِ فَلَا
يَدْخُلُوهَا لِأَنَّ هَذِهِ أَيَّامُ انْتِقَامٍ لِيَتِمَّ كُلُّ مَا هُوَ مَكْتُوبٌ. وَوَيْلٌ لِلْحَبَالَى وَالْمُرْضِعَاتِ فِي تِلْكَ
الْأَيَّامِ لِأَنَّهُ يَكُونُ ضَيْقٌ عَظِيمٌ عَلَى الْأَرْضِ وَسُخْطٌ عَلَى هَذَا الشَّعْبِ. وَيَقْعُونَ بِالسَّيْفِ
وَيَسْبُونَ إِلَى جَمِيعِ الْأُمَمِ وَتَكُونُ أُورُشَلِيمُ مَدُوسَةً مِنَ الْأُمَمِ حَتَّى تُكَمَّلَ أَزْمِنَةُ الْأُمَمِ] [لوقا
٢١: ٢٠ - ٢٤] ...

٢ - ظهور الأنبياء الكذبة:

[فَإِنَّ كَثِيرِينَ سَيَأْتُونَ بِاسْمِي قَائِلِينَ: أَنَا هُوَ الْمَسِيحُ وَيُضِلُّونَ كَثِيرِينَ... وَيَقُومُ أَنْبِيَاءُ كَذِبُهُ
كَثِيرُونَ وَيُضِلُّونَ كَثِيرِينَ] [متى ٢٤: ٥ ، ١١] ...
و [فَإِنَّ كَثِيرِينَ سَيَأْتُونَ بِاسْمِي قَائِلِينَ: إِنِّي أَنَا هُوَ. وَيُضِلُّونَ كَثِيرِينَ] [مرقس ١٣: ٦] ...
و [اَنْظُرُوا! لَا تَضِلُّوا. فَإِنَّ كَثِيرِينَ سَيَأْتُونَ بِاسْمِي قَائِلِينَ: إِنِّي أَنَا هُوَ وَالزَّمَانُ قَدْ قَرُبَ. فَلَا
تَذْهَبُوا وَرَاءَهُمْ] [لوقا ٢١: ٨] ...

٣ - الحروب والمجاعات والكوارث الطبيعية:

[وَسَوْفَ تَسْمَعُونَ بِحُرُوبٍ وَأَخْبَارِ حُرُوبٍ. اَنْظُرُوا لَا تَرْتَاعُوا. لِأَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ
كُلُّهَا. وَلَكِنْ لَيْسَ الْمُنْتَهَى بَعْدُ. لِأَنَّهُ تَقُومُ أُمَّةٌ عَلَى أُمَّةٍ وَمَمْلَكَةٌ عَلَى مَمْلَكَةٍ وَتَكُونُ مَجَاعَاتٌ
وَأُوبِيَّةٌ وَزَلَزَلٌ فِي أَمَاكِنَ. وَلَكِنْ هَذِهِ كُلُّهَا مُبْتَدَأُ الْأَوْجَاعِ] [متى ٢٤: ٦ - ٨] ...
و [فَإِذَا سَمِعْتُمْ بِحُرُوبٍ وَأَخْبَارِ حُرُوبٍ فَلَا تَرْتَاعُوا لِأَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ وَلَكِنْ لَيْسَ
الْمُنْتَهَى بَعْدُ. لِأَنَّهُ تَقُومُ أُمَّةٌ عَلَى أُمَّةٍ وَمَمْلَكَةٌ عَلَى مَمْلَكَةٍ وَتَكُونُ زَلَزَلٌ فِي أَمَاكِنَ وَتَكُونُ
مَجَاعَاتٌ وَاضْطِرَابَاتٌ. هَذِهِ مُبْتَدَأُ الْأَوْجَاعِ] [مرقس ١٣: ٧ ، ٨] ...
و [فَإِذَا سَمِعْتُمْ بِحُرُوبٍ وَقَلَاقِلٍ فَلَا تَجْزَعُوا لِأَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ هَذَا أَوَّلًا وَلَكِنْ لَا يَكُونُ
الْمُنْتَهَى سَرِيعًا } . ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: { تَقُومُ أُمَّةٌ عَلَى أُمَّةٍ وَمَمْلَكَةٌ عَلَى مَمْلَكَةٍ وَتَكُونُ زَلَزَلٌ
عَظِيمَةٌ فِي أَمَاكِنَ وَمَجَاعَاتٌ وَأُوبِيَّةٌ. وَتَكُونُ مَخَافٌ وَعَلَامَاتٌ عَظِيمَةٌ مِنَ السَّمَاءِ] [لوقا
٢١: ٩ - ١١] ...

٤ - اضطهاد المسيحيين من أجل المسيح:

[حِينَئِذٍ يُسَلَّمُونَكُمْ إِلَى ضَيْقٍ وَيَقْتُلُونَكُمْ وَتَكُونُونَ مُبْغَضِينَ مِنْ جَمِيعِ الْأُمَمِ لِأَجْلِ اسْمِي.
وَحِينَئِذٍ يَعْتَرُ كَثِيرُونَ وَيُسَلَّمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَيُبْغِضُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا] [متى ٢٤: ٩ ،
١٠] ...
و [فَانْظُرُوا إِلَى نُفُوسِكُمْ. لِأَنَّهُمْ سَيُسَلَّمُونَكُمْ إِلَى مَجَالِسَ وَتُجْلَدُونَ فِي مَجَامِعَ وَتُوقَفُونَ أَمَامَ
وُلاَةٍ وَمُلُوكٍ مِنْ أَجْلِ شَهَادَةٍ] [مرقس ١٣: ٩] ...

و [فَضَعُوا فِي قُلُوبِكُمْ أَنْ لَا تَهْتَمُّوا مِنْ قَبْلُ لِكَيْ تَحْتَجُّوا لِأَنِّي أَنَا أُعْطِيكُمْ فَمَا وَحِكْمَةٌ لَا يَقْدِرُ جَمِيعُ مُعَانِدِيكُمْ أَنْ يُقَاوِمُوهَا أَوْ يُنَاقِضُوهَا. وَسَوْفَ تُسَلِّمُونَ مِنَ الْوَالِدِينَ وَالْإِخْوَةِ وَالْأَقْرَبَاءِ وَالْأَصْدِقَاءِ وَيَقْتُلُونَ مِنْكُمْ. وَتَكُونُونَ مُبْغَضِينَ مِنَ الْجَمِيعِ مِنْ أَجْلِ اسْمِي. وَلَكِنْ شَعْرَةٌ مِنْ رُؤُوسِكُمْ لَا تَهْلِكُ. بِصَبْرِكُمْ أَقْتِنُوا أَنْفُسَكُمْ] [لوقا ١٤ : ١٩ - ...]

٥ - فقدان المحبة والإيمان وطغيان الإثم:

[وَلِكثَرَةِ الْإِثْمِ تَبْرُدُ مَحَبَّةُ الْكَثِيرِينَ] [متى ٢٤ : ١٢] ...
[وَسَيَسْلُمُ الْأَخُ أَخَاهُ إِلَى الْمَوْتِ وَالْأَبُ وَلَدَهُ وَيَقُومُ الْأَوْلَادُ عَلَى وَالِدِيهِمْ وَيَقْتُلُونَهُمْ] [مرقس ١٣ : ١٢] ...

و [وَلَكِنْ اعْلَمْ هَذَا أَنَّهُ فِي الْأَيَّامِ الْآخِرَةِ سَنَأْتِي أَرْمَنَةً صَعْبَةً، لِأَنَّ النَّاسَ يَكُونُونَ مُحِبِّينَ لَأَنْفُسِهِمْ، مُحِبِّينَ لِلْمَالِ، مُتَعَظِّمِينَ، مُسْتَكْبِرِينَ، مُجَدِّفِينَ، غَيْرَ طَائِعِينَ لِوَالِدِيهِمْ، غَيْرَ شَاكِرِينَ، دَنِيسِينَ، بِلَا حُؤُوءٍ، بِلَا رِضَى، ثَالِبِينَ، عَدِيمِي النَّزَاهَةِ، شَرَسِينَ، غَيْرَ مُحِبِّينَ لِلصَّلَاحِ، خَائِنِينَ، مُفْتَحِمِينَ، مُتَصَلِّفِينَ، مُحِبِّينَ لِلذَّاتِ دُونَ مَحَبَّةِ اللَّهِ، لَهُمْ صُورَةُ النَّفَاقِ وَلَكِنَّهُمْ مُنْكَرُونَ قُوَّتَهَا. فَأَعْرَضَ عَنْ هَؤُلَاءِ] [٢ تيموثاوس ٣ : ١ - ٥] ...

٦ - إنتشار الإنجيل في كل العالم:

[وَيُكْرَزُ بِبِشَارَةِ الْمَلَكُوتِ هَذِهِ فِي كُلِّ الْمَسْكُونَةِ شَهَادَةً لِكُلِّ لَجَمِيعِ الْأُمَمِ. ثُمَّ يَأْتِي الْمُنْتَهَى] [متى ٢٤ : ١٤] ...
و [فَادْهَبُوا وَتَلْمِذُوا جَمِيعَ الْأُمَمِ وَعَمِّدُوهُمْ بِاسْمِ الْآبِ وَالابْنِ وَالرُّوحِ الْقُدُسِ. وَعَلِّمُوهُمْ أَنْ يَحْفَظُوا جَمِيعَ مَا أَوْصَيْتُكُمْ بِهِ. وَهَا أَنَا مَعَكُمْ كُلَّ الْأَيَّامِ إِلَى انْقِضَاءِ الدَّهْرِ] [متى ٢٨ : ١٩ ، ٢٠] ...

و [وَيَبْنِغِي أَنْ يُكْرَزَ أَوَّلًا بِالْإِنْجِيلِ فِي جَمِيعِ الْأُمَمِ] [مرقس ١٣ : ١٠] ...

٧ - ظهور المسيح الدجال:

[فَمَتَى نَظَرْتُمْ (رَجْسَةَ الْخَرَابِ) الَّتِي قَالَ عَنْهَا دَانِيَالُ النَّبِيُّ قَائِمَةً فِي الْمَكَانِ الْمُقَدَّسِ - لِيَفْهَمَ الْقَارِئُ - فَحِينَئِذٍ لِيَهْرُبِ الَّذِينَ فِي الْيَهُودِيَّةِ إِلَى الْجِبَالِ] [متى ٢٤ : ١٥ ، ١٦] ...
و [فَمَتَى نَظَرْتُمْ (رَجْسَةَ الْخَرَابِ) الَّتِي قَالَ عَنْهَا دَانِيَالُ النَّبِيُّ قَائِمَةً حَيْثُ لَا يَنْبَغِي - لِيَفْهَمَ الْقَارِئُ - فَحِينَئِذٍ لِيَهْرُبِ الَّذِينَ فِي الْيَهُودِيَّةِ إِلَى الْجِبَالِ. وَلَوْ لَمْ يُقَصِّرِ الرَّبُّ تِلْكَ الْأَيَّامَ لَمْ يَخْلُصْ جَسَدٌ. وَلَكِنْ لِأَجْلِ الْمُخْتَارِينَ الَّذِينَ اخْتَارَهُمْ قَصَرَ الْأَيَّامُ] [مرقس ١٣ : ١٤ ، ٢٠] ...
و [وَلَكِنَّ الرُّوحَ يَقُولُ صَرِيحًا: إِنَّهُ فِي الْأَرْمَنَةِ الْآخِرَةِ يَرْتَدُّ قَوْمٌ عَنِ الْإِيمَانِ، تَابِعِينَ أَرْوَاحًا مُضِلَّةً وَتَعَالِيمَ شَيْطَانِينَ، فِي رِيَاءِ أَقْوَالٍ كَاذِبَةٍ، مَوْسُومَةً ضَمَائِرُهُمْ] [١ تيموثاوس ٤ : ١ ، ٢] ...

و [لا يَخَذُ عَنْكُمْ أَحَدٌ عَلَى طَرِيقَةٍ مَا، لِأَنَّهُ لَا يَأْتِي إِنْ لَمْ يَأْتِ الْارْتِدَادُ أَوَّلًا، وَيُسْتَعْلَنَ إِنْسَانُ
الْخَطِيئَةِ، ابْنُ الْهَلَاكِ، الْمُقَاوِمُ وَالْمُرْتَفِعُ عَلَى كُلِّ مَا يُدْعَى إِلَيْهَا أَوْ مَعْبُودًا، حَتَّى إِنَّهُ يَجْلِسُ
فِي هَيْكَلِ اللَّهِ كَالِهٍ مُظْهِرًا نَفْسَهُ أَنَّهُ إِلَهٌ. أَمَّا تَذَكُّرُونَ أَنِّي وَأَنَا بَعْدُ عِنْدَكُمْ كُنْتُ أَقُولُ لَكُمْ هَذَا؟
وَالآنَ تَعْلَمُونَ مَا يَحْجِزُ حَتَّى يُسْتَعْلَنَ فِي وَقْتِهِ. لِأَنَّ سِرَّ الْإِثْمِ الْآنَ يَعْمَلُ فَقَطُّ، إِلَى أَنْ يُرْفَعَ
مِنَ الْوَسْطِ الَّذِي يَحْجِزُ الْآنَ، وَحِينَئِذٍ سَيُسْتَعْلَنُ الْإِثْمُ، الَّذِي الرَّبُّ يُبِيدُهُ بِنَفْخَةِ فَمِهِ، وَيُبْطِلُهُ
بظُهُورِ مَجِيئِهِ. الَّذِي مَجِيئُهُ يَعْمَلُ الشَّيْطَانُ، بِكُلِّ قُوَّةٍ، وَبِآيَاتٍ وَعَجَائِبَ كَاذِبَةٍ، وَبِكُلِّ خَدِيعَةٍ
الْإِثْمِ، فِي الْهَالِكِينَ، لِأَنَّهُمْ لَمْ يَقْبَلُوا مَحَبَّةَ الْحَقِّ حَتَّى يَخْلُصُوا] [٢ تسالونيكي ٢: ٣ - ١٠
و [أَيُّهَا الْأَوْلَادُ، اعْلَمُوا أَنَّنَا نَعِيشُ الْآنَ فِي الزَّمَنِ الْآخِرِ. وَكَمَا سَمِعْتُمْ أَنَّهُ سَوْفَ يَأْتِي
أَخِيرًا «مَسِيحُ دَجَالٍ»، فَقَدْ ظَهَرَ حَتَّى الْآنَ كَثِيرُونَ مِنَ الدَّجَالِينَ الْمُقَاوِمِينَ لِلْمَسِيحِ. مِنْ هُنَا
نَتَأَكَّدُ أَنَّنَا نَعِيشُ فِي الزَّمَنِ الْآخِرِ ... وَكُلُّ مَنْ يُنْكِرُ الْإِثْمَ، لَا يَكُونُ الْآبُ أَيْضًا مِنْ نَصِيبِهِ.
وَمَنْ يَعْتَرِفُ بِالْإِثْمِ، فَلَهُ الْآبُ أَيْضًا] [١ يوحنا ٢: ١٨، ٢٢] ...
و [وَإِنْ كَانَ يُنْكِرُ ذَلِكَ لَا يَكُونُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، بَلْ مِنْ عِنْدِ ضِدِّ الْمَسِيحِ الَّذِي سَمِعْتُمْ أَنَّهُ سَوْفَ
يَأْتِي، وَهُوَ الْآنَ مَوْجُودٌ فِي الْعَالَمِ]

[١ يوحنا ٤: ٣] ...

و [لِأَنَّهُ قَدْ دَخَلَ إِلَى الْعَالَمِ مُضِلُّونَ كَثِيرُونَ، لَا يَعْتَرِفُونَ بِيَسُوعَ الْمَسِيحِ آتِيًا فِي
الْجَسَدِ. هَذَا هُوَ الْمُضِلُّ، وَالضَّدُّ لِلْمَسِيحِ]
[٢ يوحنا ٧] ...

ج - اليقظة والسهر:

العديد من الأحداث التي ذكرناها حصل بالفعل، ومنها ما يحصل الآن...
وهذا ما يحدو بالمؤمن أن يأخذ القضية بكثير من الجدية وأن يعتبر ما حصل
ويحصل إشارات لإقتراب موعد الملكوت، وأن يستعد لذلك...
كيف يستعد؟...

بالسهر والصلاة...

هكذا أراد يسوع:

[لِذَلِكَ كُونُوا أَنْتُمْ أَيْضًا مُسْتَعِدِّينَ لِأَنَّهُ فِي سَاعَةٍ لَا تَطُنُّونَ يَأْتِي ابْنُ الْإِنْسَانِ. فَمَنْ هُوَ الْعَبْدُ
الْأَمِينُ الْحَكِيمُ الَّذِي أَقَامَهُ سَيِّدُهُ عَلَى خَدَمِهِ لِيُعْطِيَهُمُ الطَّعَامَ فِي حِينِهِ؟] [متى ٢٤: ٤٤،
٤٥] ...

و [وَلَكِنْ سَيَأْتِي كُلُّصٌّ فِي اللَّيْلِ، يَوْمَ الرَّبِّ، الَّذِي فِيهِ تَزُولُ السَّمَاوَاتُ بِضَجِيجٍ، وَتَنْحَلُّ
الْعَنَاصِرُ مُحْتَرِقَةً، وَتَحْتَرِقُ الْأَرْضُ وَالْمَصْنُوعَاتُ الَّتِي فِيهَا] [٢ بطرس ٣: ١٠] ..

وما مثل العذارى العاقلات [متى ٢٥: ١ - ١٣] إلا ليعلمنا يسوع بكل وضوح ضرورة السهر المستمر واليقظة الدائمة فى كل حياة روحية تُنهْدُ إلى الأصالة... وأكّد على ذلك فى مثل الخادم الأمين الذى عاد سيده فوجده ساهراً... كلّ منّا مدعو لأن يكون إحدى العذارى العاقلات أو ذلك الخادم الأمين... فبدون حياة روحية واعية تفتش عن المسيح فى كلّ مواضع سكّناه وتسعى إلى العيش باستمرار فى ذكرى الله، وتعى أننا موجودون دوماً فى حضرة الله تعالى، لا توجد أية حياة مسيحية حقيقية...

د - صلاة يسوع:

يقول الرسول بولس:

[صَلُّوا بِلَا انْقِطَاع] [١ تسالونيكي ٥: ١٧]...

وكأنه بذلك يدلّنا على الطريق لإستجابة طلب السيد: " إسهروا"...

والتقليد الأرثوذكسى يربط بين اليقظة والصلاة المستديمة...

هذا التقليد، الذى لا يزال حيّاً فى عالمنا اليوم، يدعو على تلاوة مستمرة لما يُسمّى بـ " صلاة يسوع" فى شكلها التالى:

[يا يسوع ابن الله الحى إرحمنى أنا الخاطئ]

هذه الصلاة يمكن أن يمارسها المؤمن فى كل مكان...

وبإشراف أب روحى ذى خبرة تتقلب الصلاة من حركات الشفاه إلى صلاة قلبية

يرردها القلب دون إنقطاع وأثناء أى عمل يقوم به الإنسان...

ونرى فى كتاب " سائح روسى على دروب الرب" كيف أن أبسط الناس يمكنهم التدرّب

على هذه الصلاة والدخول فى حضرة الله فيزداد شوقهم إلى لقاءه ويترقّبون بفرح

مجيئه الثانى:

[آمين. تَعَالَ أَيُّهَا الرَّبُّ يَسُوعُ] [رؤيا ٢٢: ٢٠]...

٢ - نهاية العالم " الأرض الجديدة"

يعلمنا الكتاب المقدس، فى عهديه القديم والجديد، أن للعالم بداية ونهاية...

وها هى بعض النصوص الأكثر أهمية المتعلقة بذلك:

أ - فى العهد القديم:

[مِنْ قَدَمِ أَسَسَتْ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ هِيَ عَمَلُ يَدَيْكَ. هِيَ تَبِيدُ وَأَنْتَ تَبْقَى وَكُلُّهَا كَتُوبٌ
تُبْلَى كَرْدَاءٍ تُغَيِّرُهُنَّ فَتَتَغَيَّرُ. وَأَنْتَ هُوَ وَسَيُوكَ لَنْ تَنْتَهِيَ. أَبْنَاءُ عِبِيدِكَ يَسْكُنُونَ وَدَرِيَّتُهُمْ
تُتَبِّتُ أَمَامَكَ] [مزمو ١٠٢: ٢٥ - ٢٨] ...

[اِرْفَعُوا إِلَى السَّمَاوَاتِ غُيُوكُمْ وَأَنْظُرُوا إِلَى الْأَرْضِ مِنْ تَحْتِ. فَإِنَّ السَّمَاوَاتِ كَالدُّخَانِ
تُضْمَلُ وَالْأَرْضُ كَالثُّوبِ تُبْلَى وَسُكَّانُهَا كَالْبَعُوضِ يَمُوتُونَ. أَمَّا خَلَاصِي فَإِلَى الْأَبَدِ يَكُونُ
وَبِرِّي لَا يُفْقَضُ] [أشعيا ٥١: ٦] ...

[اِسْحَقَتِ الْأَرْضُ اِسْحَاقًا. تَشَقَّقَتِ الْأَرْضُ تَشَقُّقًا. تَرَعَزَتِ الْأَرْضُ تَرَعُزًا. تَرَحَّتِ
الْأَرْضُ تَرْتُّحًا كَالسَّكْرَانِ وَتَدَلَّدَتِ كَالْعِرْزَالِ وَثَقُلَ عَلَيْهَا ذَنْبُهَا فَسَقَطَتْ وَلَا تُعُودُ تَقُومُ.
وَيَكُونُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ أَنَّ الرَّبَّ يُطَالِبُ جُنْدَ الْعَلَاءِ فِي الْعَلَاءِ وَمُلُوكَ الْأَرْضِ عَلَى الْأَرْضِ.
وَيَجْمَعُونَ جَمْعًا كَأَسَارَى فِي سِجْنٍ وَيَعْلَقُ عَلَيْهِمْ فِي حَبْسٍ. ثُمَّ بَعْدَ أَيَّامٍ كَثِيرَةٍ يَتَعَهَّدُونَ.
وَيَخْجَلُ الْقَمَرُ وَتُخْزَى الشَّمْسُ لِأَنَّ رَبَّ الْجُنُودِ قَدْ مَلَكَ فِي جَبَلٍ صِهْيُونَ وَفِي أُورُشَلِيمَ.
وَقُدَّامَ شَبُوحِهِ مَجْدٌ] [أشعيا ٢٤: ١٩ - ٢٣] ...

[قُدَّامَهُ تَرْتَعِدُ الْأَرْضُ وَتَرْجُفُ السَّمَاءُ. الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ يُظْلِمَانِ وَالنُّجُومُ تُحْجِزُ
لِمَعَانِهَا] [يونس ٢: ١٠، ٣: ١٥] ...

ب - في العهد الجديد:

[وَلِلْوَقْتِ بَعْدَ ضَيْقِ تِلْكَ الْأَيَّامِ تُظْلِمُ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا يُعْطِي ضَوْءَهُ وَالنُّجُومُ تَسْقُطُ مِنَ
السَّمَاءِ وَقَوَاتِ السَّمَاوَاتِ تَتَزَعَزَعُ] [متى ٢٤: ٢٩] ...
[وَأَمَّا فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ بَعْدَ ذَلِكَ الضَّيْقِ فَالْشَّمْسُ تُظْلِمُ وَالْقَمَرُ لَا يُعْطِي ضَوْءَهُ وَالنُّجُومُ
السَّمَاءِ تَتَسَاقُطُ وَالْقَوَاتِ الَّتِي فِي السَّمَاوَاتِ تَتَزَعَزَعُ. وَحِينَئِذٍ يُبْصِرُونَ ابْنَ الْإِنْسَانِ آتِيًا
فِي سَحَابٍ بِقُوَّةٍ كَثِيرَةٍ وَمَجْدٍ فَيُرْسِلُ حِينَئِذٍ مَلَائِكَتَهُ وَيَجْمَعُ مُحْتَارِيهِ مِنَ الْأَرْبَعِ الرِّيَاحِ
مِنْ أَقْصَاءِ الْأَرْضِ إِلَى أَقْصَاءِ السَّمَاءِ] [مرقس ١٣: ٢٤ - ٢٧] ...

[وَتَكُونُ عَلَامَاتٌ فِي الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالنُّجُومِ وَعَلَى الْأَرْضِ كَرْبُ أُمَمٍ بِحَيْرَةٍ. الْبَحْرُ
وَالْأَمْوَاجُ تُضِجُ وَالنَّاسُ يُغْشَى عَلَيْهِمْ مِنْ خَوْفٍ وَانْتِظَارٍ مَا يَأْتِي عَلَى الْمَسْكُونَةِ لِأَنَّ قَوَاتِ
السَّمَاوَاتِ تَتَزَعَزَعُ. وَحِينَئِذٍ يُبْصِرُونَ ابْنَ الْإِنْسَانِ آتِيًا فِي سَحَابَةٍ بِقُوَّةٍ وَمَجْدٍ كَثِيرٍ. وَمَتَى
ابْتَدَأَتْ هَذِهِ تَكُونُ فَاَنْتَصِبُوا وَارْفَعُوا رُؤُوسَكُمْ لِأَنَّ نَجَاتَكُمْ تَقْتَرِبُ] [لوقا ٢١: ٢٥ - ٢٨]
[وَأَمَّا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ الْكَائِنَةُ الْآنَ فَهِيَ مَخْزُونَةٌ بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ عَيْنِهَا، مَحْفُوظَةٌ لِلنَّارِ
إِلَى يَوْمِ الدِّينِ وَهَلَاكِ النَّاسِ الْفَجَارِ... الَّذِي فِيهِ تَزُولُ السَّمَاوَاتُ بِضَحِيجٍ، وَتَنْحَلُّ
الْعَنَاصِرُ مُحْتَرِقَةً، وَتَحْتَرِقُ الْأَرْضُ وَالْمَصْنُوعَاتُ الَّتِي فِيهَا] [بطرس ٣: ٧، ١٠] .

[ثُمَّ رَأَيْتُ عَرْشًا عَظِيمًا أَبْيَضَ، وَالْجَالِسَ عَلَيْهِ الَّذِي مِنْ وَجْهِهِ هَرَبَتِ الْأَرْضُ
وَالسَّمَاءُ ، وَلَمْ يُوجَدْ لَهُمَا مَوْضِعٌ! ... ثُمَّ رَأَيْتُ سَمَاءً جَدِيدَةً وَأَرْضًا جَدِيدَةً، لِأَنَّ السَّمَاءَ
الْأُولَى وَالْأَرْضَ الْأُولَى مَضَتَا، وَالْبَحْرُ لَا يُوجَدُ فِي مَا بَعْدُ] [رؤيا ٢٠ : ١١ ، ٢١ :
١] ...

ج - الأرض الجديدة:

كل النصوص التي ذكرناها تعطينا صورة رهيبة لنهاية العالم...
وأما الحروب والكوارث الطبيعية، وإمكانات التدمير الحديثة، من أسلحة نووية على
أسلحة كيميائية وبيولوجية، فبإمكانها تقريب الصورة عن تلك النهاية وجعل تصورَها
سهلاً علينا...

ولكن علينا أن ننظر إلى الحدث بعيني الإيمان لا بالعين المجردة، لا سيما وأنه لا بدّ
من زوال العالم القديم ليحلّ عالم جديد دشنه المسيح في مجيئه الأول وسيكمّله في
مجيئه الثاني...

إن يوم نهاية العالم سيكون رهيباً للأشرار:

[فِيمَا أَنْ هَذِهِ كُلُّهَا تَنْحَلُّ، أَيَّ أَنْاسٍ يَحِبُّ أَنْ تَكُونُوا أَنْتُمْ فِي سِيرَةٍ مُقَدَّسَةٍ وَتَقْوَى؟
مُنْتَظِرِينَ وَطَالِبِينَ سُرْعَةَ مَجِيءِ يَوْمِ الرَّبِّ، الَّذِي بِهِ تَنْحَلُّ السَّمَاوَاتُ مُلْتَهَبَةً،
وَالْعَنَاصِرُ مُحْتَزَّةٌ تَذُوبُ] [٢ بطرس ٣ : ١١ ، ١٢] ...

ولكنه للمؤمنين يوم مجد...

هذا اليوم هو المنتظر لأن فيه:

[وَبَعْدَ ذَلِكَ النَّهَايَةِ مَتَى سَلَّمَ الْمُلْكُ لِلَّهِ الْآبِ مَتَى أَبْطَلَ كُلَّ رِيَاسَةٍ وَكُلَّ سُلْطَانٍ وَكُلَّ
قُوَّةٍ] [١ كورونثوس ١٥ : ٢٤] ...

وفيه يتحقق العالم الجديد الذي تنبأ عنه أشعيا، إذ قال:

[لِأَيَّ هَذَا خَالِقُ سَمَاوَاتٍ جَدِيدَةٍ وَأَرْضًا جَدِيدَةً فَلَا تُذَكِّرُ الْأُولَى وَلَا تَخْطُرُ عَلَى
بَالٍ] [أشعيا ٦٥ : ١٧] ...

ويقول لنا بطرس الرسول بشأن هذا اليوم في رسالته الثانية:

[وَلَكِنَّا بِحَسَبِ وَعْدِهِ نَنْتَظِرُ سَمَاوَاتٍ جَدِيدَةً وَأَرْضًا جَدِيدَةً، يَسْكُنُ فِيهَا الْبَرُّ] [
٢ بطرس ٣ : ١٣] ...

وأما يوحنا فيذكر في رؤياه " ثم رأيت سماء جديدة وأرض جديدة " ، ويروى لنا قول
السيد:

[وَقَالَ الْجَالِسُ عَلَى الْعَرْشِ: هَا أَنَا أَصْنَعُ كُلَّ شَيْءٍ جَدِيداً] [رؤيا ٢١ : ٥] ...

إذاً، آخر الأزمنة ليس مدعاة للخوف، فهو النهار الذى يلى الظلمة...

ونحن بالمعمودية دخلنا العالم الجديد الآتى:

[إِذَا إِنَّ كَانَ أَحَدٌ فِي الْمَسِيحِ فَهُوَ خَلِيقَةٌ جَدِيدَةٌ. الْأَشْيَاءُ الْعَتِيقَةُ قَدْ مَضَتْ. هُوَذَا الْكُلُّ

قَدْ صَارَ جَدِيداً] [٢ كورونثوس ٥: ١٧]...

وولدنا ثانية لله وأصبحنا خليقة جديدة...

وكما يقول الرسول بولس:

[لِأَنَّكُمْ قَدْ مِتُّمْ وَحَيَاتُكُمْ مُسْتَتْرَةٌ مَعَ الْمَسِيحِ فِي اللَّهِ. مَتَى أَظْهَرَ الْمَسِيحُ حَيَاتَنَا، فَحِينَئِذٍ

نُظْهِرُونَ أَنْتُمْ أَيْضاً مَعَهُ فِي الْمَجْدِ] [كولوسى ٣ : ٣ ، ٤]...

وكما سنرى فيما بعد، عند مجئ يسوع المسيح الثانى، يقوم الموتى بأجسادهم للحياة

الأبدية...

٣ - الموت

ما هو الموت ، وبالتالي من هم الأموات؟...

هذا السؤال أساسى جداً فى حياتنا ولا بدّ من طرحه الآن...

الجواب المباشر يعطينا إياه النبی داود:

[تَحْجُبُ وَجْهَكَ قَتَرًا غ. تَنْزِعُ أَرْوَاحَهَا فَنُتَمَوْتُ وَإِلَى ثَرَابِهَا نَعُودُ. تُرْسِلُ رُوحَكَ

فَتُخْلِقُ. وَتَجَدِّدُ وَجْهَ الْأَرْضِ] [المزمور ١٠٤ : ٢٩ ، ٣٠]...

الحياة هبة من الله...

وكما رأينا فى الفصل الثالث الخاص بخلق الإنسان وسقوطه، فالموت ضد الطبيعة

الإنسانية الأصلية:

[فَإِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ خَالِداً وَصَنَعَهُ عَلَى صُورَةِ ذَاتِهِ] [حكمة ٢ : ٢٣]...

وكذلك:

[إِذْ لَيْسَ الْمَوْتُ مِنْ صُنْعِ اللَّهِ وَ لَا هَلَاكُ الْأَحْيَاءِ يَسْرُهُ] [حكمة ١ : ١٣]...

فالموت، إذاً، نتيجة الخطيئة:

[لِأَنَّ أَجْرَةَ الْخَطِيئَةِ هِيَ مَوْتُ وَأَمَّا هِبَةُ اللَّهِ فَهِيَ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ بِالْمَسِيحِ يَسُوعَ رَبَّنَا... مِنْ أَجْلِ

ذَلِكَ كَأَنَّمَا بِإِنْسَانٍ وَاحِدٍ دَخَلَتِ الْخَطِيئَةُ إِلَى الْعَالَمِ وَبِالْخَطِيئَةِ الْمَوْتُ وَهَكَذَا اجْتَنَزَ الْمَوْتُ إِلَى

جَمِيعِ النَّاسِ إِذْ أَخْطَأَ الْجَمِيعُ] [رومية ٦ : ٢٣ و ٥ : ١٢]...

دخل العالم بواسطة الإنسان يوم لبى دعوة الشيطان الذى لديه قدرة الموت [عبرانيين

٢ : ١٤] ، من أجل الابتعاد عن مصدر الحياة...

والآن حرى بنا أن نطرح سؤالاً ثانياً:

ما هو مصيرنا بعد الموت ودفن الجسد على رجاء القيامة العامة؟...

لنمعن النظر جيداً بالنصوص الكتابية لعلنا نلقى بعض النور على هذه المشكلة...

أ - فى المزامير وعند الأنبياء:

الموت، فى المزامير وعند الأنبياء، يوصف بأنه " أرض سكوت " ، " عدم ذكر الله "

، " أرض النسيان " ، " التراب " ، " الحفرة " ، " الجب " وكذلك " الهاوية "...

[لَأَنَّهُ لَيْسَ فِي الْمَوْتِ ذِكْرُكَ. فِي الْهَآوِيَةِ مَنْ يَحْمَدُكَ؟] [مزمور ٦ : ٥] ...

[مَا الْفَائِدَةُ مِنْ دَمِي إِذَا نَزَلْتُ إِلَى الْحُفْرَةِ؟ هَلْ يَحْمَدُكَ الثَّرَابُ؟ هَلْ يُخْبِرُ بِحَقِّكَ؟] [

مزمور ٣٠ : ٩] ...

[أَفَلَعَلَّكَ لِلْأَمْوَاتِ تَصْنَعُ عَجَائِبَ أَمْ الْأَخْيَلَةُ تَقُومُ تُمَجِّدُكَ؟ سِلَاهُ. هَلْ يُحَدِّثُ فِي الْقَبْرِ

بِرَحْمَتِكَ أَوْ بِحَقِّكَ فِي الْهَلَاكِ؟ هَلْ تُعْرِفُ فِي الظُّلْمَةِ عَجَائِبِكَ وَبِرُّكَ فِي أَرْضِ النَّسْيَانِ؟] [

مزمور ٨٨ : ١٠ - ١٢] ...

[لَيْسَ الْأَمْوَاتُ يُسَبِّحُونَ الرَّبَّ وَلَا مَنْ يَنْحَدِرُ إِلَى أَرْضِ السُّكُوتِ] [مزمور ١١٥ : ١٧]

...

[لِأَنَّ الْهَآوِيَةَ لَا تَحْمَدُكَ. الْمَوْتُ لَا يُسَبِّحُكَ. لَا يَرْجُو الْهَابِطُونَ إِلَى الْجُبِّ أَمَانَتَكَ] [

أشعيا ٣٨ : ١٨] ...

معظم النصوص تُظهر الموت وكأنه مكان الهلاك، مكان السكوت والنسيان، وبالتالي،

وكان الأموات " ينامون " ...

بيد أن بعض النصوص تلقى على هذا النوم بصيصاً من الأمل كالمزمور الذى

استشهد به بطرس الرسول فى سفر الأعمال:

[لِذَلِكَ سَرَّ قَلْبِي وَتَهَلَّلَ لِسَانِي. حَتَّى جَسَدِي أَيْضاً سَيَسْكُنُ عَلَى رَجَاءٍ. لِأَنَّكَ لَنْ تَتْرَكَ نَفْسِي

فِي الْهَآوِيَةِ وَلَا تَدَعُ فُؤُوسَكَ يَرَى فُسَاداً. عَرَفْتَنِي سُبُلَ الْحَيَاةِ وَسَتَمْلَأُنِي سُرُوراً مَعَ وَجْهِكَ]

[أعمل الرسل ٢ : ٢٦ - ٢٨] ...

ونجد ذلك أيضاً فى سفر أشعيا:

[تَحْيَا أَمْوَاتُكَ. تَقُومُ الْجُنُتُ. اسْتَيْقِظُوا. تَرْتَمُوا يَا سُكَّانَ الثَّرَابِ. لِأَنَّ طَلْكَ طُلَّ أَغْشَابٍ

وَالْأَرْضُ تُسْقِطُ الْأَخْيَلَةَ] [أشعيا ٢٦ : ١٩] ...

و سفر أيوب:

[أَمَا أَنَا فَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ وَلِيِّي حَيٌّ وَالْآخِرَ عَلَى الْأَرْضِ يَقُومُ . وَبَعْدَ أَنْ يُفْنَى جُلْدِي هَذَا
وَيَذُونَ جَسَدِي أَرَى اللَّهَ] [أيوب ١٩ : ٢٥ ، ٢٦] ...

وبصورة خاصة في سفر حزقيال:

[فَقَالَ لِي: تَنَبَّأْ لِلرُّوحِ، تَنَبَّأْ يَا ابْنَ آدَمَ، وَقُلْ لِلرُّوحِ: هَكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ: هَلَمْ يَا رُوحُ مِنْ
الرِّيَّاحِ الْأَرْبَعِ وَهَبْ عَلَى هَؤُلَاءِ الْقَتْلَى لِيَحْيُوا. فَتَنَبَّأْتُ كَمَا أَمَرَنِي، فَخَلَّ فِيهِمُ الرُّوحُ،
فَحْيُوا وَقَامُوا عَلَى أَقْدَامِهِمْ جَيْشٌ عَظِيمٌ جِدًّا جِدًّا. ثُمَّ قَالَ لِي: يَا ابْنَ آدَمَ، هَذِهِ الْعِظَامُ هِيَ كُلُّ
بَيْتِ إِسْرَائِيلَ. هَا هُمْ يَقُولُونَ: يَبْسُتْ عِظَامُنَا وَهَلَكَ رَجَاؤُنَا. قَدْ انْقَطَعْنَا. لِذَلِكَ تَنَبَّأْ وَقُلْ لَهُمْ:
هَكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ: هَنَذَا أَفْتَحُ قُبُورَكُمْ وَأُصْعِدُكُمْ مِنْ قُبُورِكُمْ يَا سَعْبِي وَآتِي بِكُمْ إِلَى
أَرْضِ إِسْرَائِيلَ. فَتَعْلَمُونَ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ عِنْدَ فَتْحِي قُبُورَكُمْ وَإِصْعَادِي إِيَّاكُمْ مِنْ قُبُورِكُمْ يَا
سَعْبِي. وَأَجْعَلُ رُوحِي فِيكُمْ فَتَحْيَوْنَ، وَأَجْعَلُكُمْ فِي أَرْضِكُمْ، فَتَعْلَمُونَ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ
تَكَلَّمْتُ وَأَفْعَلُ، يَقُولُ الرَّبُّ] [حزقيال ٣٧ : ٩ - ١٤] ...

وفي سفر دانيال:

[وَكَثِيرُونَ مِنَ الرَّاقِدِينَ فِي ثَرَابِ الْأَرْضِ يَسْتَيْقِظُونَ هَؤُلَاءِ إِلَى الْحَيَاةِ الْأَبَدِيَّةِ وَهَؤُلَاءِ إِلَى
الْعَارِ لِلْإِزْدِرَاءِ الْأَبَدِيِّ] [دانيال ١٢ : ٢] ...

حيث يبرز نوع من المقارنة بين " نوم " الموت و " صحو " القيامة المرتقبة...

ب - موت الأبرار في سفر الحكمة:

في أسفار العهد القديم المتأخرة التي كتبت باليونانية في مصر خلال الـ ١٥٠ سنة
السابقة لميلاد المسيح، خاصة في سفر الحكمة والمكابيين الثاني، يُبرز مظهر جديد
لما سيحدث بعد الموت...

فيدخل سفر الحكمة في التفاصيل إذ يبدأ مرحلة التفريق بين نوعين من الأموات،
ويؤكد أن الأبرار منهم لا يموتون إلا " ظاهرياً" ...

ولأن حياتهم هي في يد الله فإنهم يعيشون إلى الأبد...

[أَمَا الصِّدِّيقُ فَإِنَّهُ وَإِنْ تَعَجَّلَهُ الْمَوْتُ يَسْتَقِرَّ فِي الرَّاحَةِ] [حكمة ٤ : ٧] ...

[أَمَا نَفُوسَ الصِّدِّيقِينَ فَهِيَ بِيَدِ اللَّهِ فَلَا يَمُسُّهَا الْعَذَابُ . وَفِي ظَنِّ الْجُهَالِ أَنَّهُمْ مَاتُوا وَقَدْ
حَسِبَ خُرُوجُهُمْ شَقَاءً . وَذَهَابُهُمْ عَنَّا عَطْبًا أَمَّا هُمْ فَفِي السَّلَامِ . وَمَعَ أَنَّهُمْ قَدْ عُوِقِبُوا فِي
عُيُونِ النَّاسِ فَرَجَاؤُهُمْ مَمْلُوءٌ خُلُودًا . وَبَعْدَ تَأْدِيبٍ يَسِيرٍ لَهُمْ ثَوَابٌ عَظِيمٌ لِأَنَّ اللَّهَ
إِمْتَحَنَهُمْ فَوَجَدَهُمْ أَهْلًا لَهُ . مَحَصَّهُمْ كَالذَّهَبِ فِي النَّوْتَقَةِ وَقَبِلَهُمْ كَذَبِيحَةٍ مُحْرِقَةٍ . فَهُمْ فِي
وَقْتِ إِفْتِقَادِهِمْ يَبْتَالُونَ وَيَسْعُونَ سَعْيَ الشَّرَارِ بَيْنَ الْقَصَبِ . وَيَذِيئُونَ الْأَمَمَ وَيَسْلُطُونَ

عَلَى الشَّعُوبِ وَ يَمْلِكُ رَبُّهُمْ إِلَى الْأَبَدِ. الْمُتَوَكِّلُونَ عَلَيْهِ سَيَفْهَمُونَ الْحَقَّ وَالْأَمْنَاءَ فِي
الْمَحَبَّةِ سَيَلْزَمُونَهُ لِأَنَّ النِّعْمَةَ وَالرَّحْمَةَ لِمُخْتَارِيهِ [حكمة ٣: ١ - ٩]...

ويضيف:

[لِأَنَّ رَجَاءَ الْمُنَافِقِ كَغُبَارٍ تَذْهَبُ بِهِ الرِّيحُ وَكَزَيْدٍ رَفِيقٍ تُطَارِدُهُ الزَّوْبَعَةُ وَكَدُخَّانٍ تُبَدِّدُهُ
الرِّيحُ وَكَذَكَرٍ ضَيْفٍ نَزَلَ يَوْمًا ثُمَّ إِرْتَحَلَ. أَمَّا الصِّدِّيقُونَ فَسَيَحْيُونَ إِلَى الْأَبَدِ وَعِنْدَ الرَّبِّ
ثَوَابُهُمْ وَ لَهُمْ عِنايَةٌ مِنْ لَدُنِ الْعَلِيِّ] [حكمة ٥: ١٥ ، ١٦]...

ج - الحياة الأبدية في العهد الجديد:

هذا الرجاء بالحياة الأبدية، الذي بدأ بالظهور في العهد القديم، توطد وغدا أكيداً
عند مجيئ السيد المسيح الذي هو أيضاً حياة العالم...

في إنجيل [يوحنا ١٠: ٢٧ ، ٢٨] ، يقول يسوع مستخدماً عبارة " يد الله " الكتابية:

[خَرَّافِي تَسْمَعُ صَوْتِي وَأَنَا أَعْرِفُهَا فَتَتَّبَعُنِي. وَأَنَا أُعْطِيهَا حَيَاةً أَبَدِيَّةً وَلَنْ تَهْلِكَ إِلَى الْأَبَدِ وَلَا
يَخْطِفُهَا أَحَدٌ مِنْ يَدِي]

ويؤكد قيامة المؤمنين حين يقول:

[لِأَنَّ هَذِهِ هِيَ مَسِيحَةُ الَّذِي أَرْسَلَنِي: أَنْ كُلَّ مَنْ يَرَى الْابْنَ وَيُؤْمِنُ بِهِ تَكُونُ لَهُ حَيَاةٌ
أَبَدِيَّةً وَأَنَا أَقِيمُهُ فِي الْيَوْمِ الْآخِرِ] [يوحنا ٦: ٤٠]...

و [الْحَقُّ الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ: مَنْ يُؤْمِنُ بِي فَلَهُ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ] [يوحنا ٦: ٤٧]...

و [الْحَقُّ الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَحْفَظُ كَلَامِي فَلَنْ يَرَى الْمَوْتَ إِلَى الْأَبَدِ] [يوحنا
٨: ٥١]...

ويلفتنا بشكل خاص قوله:

[قَالَ لَهَا يَسُوعُ: أَنَا هُوَ الْقِيَامَةُ وَالْحَيَاةُ. مَنْ آمَنَ بِي وَلَوْ مَاتَ فَسَيَحْيَا وَكُلُّ مَنْ كَانَ
حَيًّا وَآمَنَ بِي فَلَنْ يَمُوتَ إِلَى الْأَبَدِ. أَتُؤْمِنِينَ بِهِذَا؟] [يوحنا ١١: ٢٥ ، ٢٦]...

هذه النصوص كلها تؤكد ما يلي:

- أن حياة الإنسان تستمر بعد الموت بقدر ما هي مرتبطة بالله. لذلك يقول لنا السيد في
الإنجيل:

[وَلَا تَخَافُوا مِنَ الَّذِينَ يَقْتُلُونَ الْجَسَدَ وَلَكِنَّ النَّفْسَ لَا يَغْنَرُونَ أَنْ يَقْتُلُوهَا بَلْ خَافُوا بِالْحَرِيِّ
مَنْ الَّذِي يَقْدِرُ أَنْ يُهْلِكَ النَّفْسَ وَالْجَسَدَ كِلَاهِمَا فِي جَهَنَّمَ.] [متى ١٠: ٢٨]...

- الموت يحدث من جرّاء غياب الله. وحيث يوجد الله لا يوجد الموت. لذلك، فالنفس العطشى إلى الله تسعى دائماً إلى العيش في حضرته لا تموت لأن توقّها إلى الله يحفظها حية...

- الذي يعيش على هذه الأرض في المسيح يستمر على هذه الحياة بعد موته. هذا ما يؤكدّه بقوة الرسول بولس إذ يقول:

[لَأَنَّا نَعْلَمُ أَنَّهُ إِنْ نُقِضَ بَيْتُ خَيْمَتِنَا الْأَرْضِيَّةِ، فَلَنَّا فِي السَّمَاوَاتِ بِنَاءً مِنَ اللَّهِ، بَيْتٌ غَيْرُ مَصْنُوعٍ بِيَدٍ، أَبَدِيٌّ. فَإِنَّا فِي هَذِهِ أَيْضاً نَحْنُ مُسْتَأَقِقِينَ إِلَى أَنْ نَلْبَسَ فَوْقَهَا مَسْكَنَنَا الَّذِي مِنَ السَّمَاءِ. وَإِنْ كُنَّا لَا بَسِينَا لَا نُوجَدُ عُرَاءً. فَإِنَّا نَحْنُ الَّذِينَ فِي الْخَيْمَةِ نَحْنُ مُثْقَلِينَ، إِذْ لَسْنَا نُرِيدُ أَنْ نَخْلَعَهَا بَلْ أَنْ نَلْبَسَ فَوْقَهَا، لِكَيْ نُبْتَلَعَ الْمَائِتَةَ مِنَ الْحَيَاةِ. وَلَكِنَّ الَّذِي صَنَعَنَا لِهَذَا عَيْنَهُ هُوَ اللَّهُ، الَّذِي أَعْطَانَا أَيْضاً عَرْبُونَ الرُّوحِ. فَإِذَا نَحْنُ وَانْفُوسُ كُلِّ حِينٍ وَعَالِمُونَ أَنَّنَا وَنَحْنُ مُسْتَوْطِنُونَ فِي الْجَسَدِ فَتَحْنُ مُتَعَرِّبُونَ عَنِ الرَّبِّ. لَأَنَّا بِالْإِيمَانِ نَسْأَلُكَ لَا بِالْعَيَانِ. فَتَنَقُّ وَتُسَرُّ بِالْأُولَى أَنْ نَتَغَرَّبَ عَنِ الْجَسَدِ وَنَسْتَوْطِنَ عِنْدَ الرَّبِّ] [٢ كورونثوس ٥ : ١ - ٨] ...

وجاء أيضاً قوله:

[حَسَبَ إِنْتِظَارِي وَرَجَائِي أَنِّي لَا أَخْزَى فِي شَيْءٍ، بَلْ بِكُلِّ مُجَاهَرَةٍ كَمَا فِي كُلِّ حِينٍ، كَذَلِكَ الْآنَ، يَتَعَزَّمُ الْمَسِيحُ فِي جَسَدِي، سَوَاءً كَانَ بِحَيَاةٍ أَمْ بِمَوْتٍ. لِأَنَّ لِي الْحَيَاةَ هِيَ الْمَسِيحُ وَالْمَوْتُ هُوَ رَيْحٌ. وَلَكِنْ إِنْ كَانَتِ الْحَيَاةُ فِي الْجَسَدِ هِيَ لِي ثَمَرُ عَمَلِي، فَمَاذَا أُخْتَارُ؟ لَسْتُ أَدْرِي! فَإِنِّي مُحْصُورٌ مِنَ الْإِثْنَيْنِ: لِي اسْتِهَاءٌ أَنْ أَنْطَلِقَ وَأَكُونَ مَعَ الْمَسِيحِ. ذَلِكَ أَفْضَلُ جِدًّا] [فيلبي ١ : ٢٠ - ٢٣] ...

- المسيح هو الحياة وواهبها. فالذي يعيش في المسيح و [حَيَاتُكُمْ مُسْتَبْرَهَةٌ مَعَ الْمَسِيحِ فِي اللَّهِ] [كولوسي ٣ : ٣] ، هذا يكون [مَتَى أَظْهَرَ الْمَسِيحُ حَيَاتُنَا، فَحِينَئِذٍ نُظْهِرُونَ أَنْتُمْ أَيْضاً مَعَهُ فِي الْمَجْدِ] [كولوسي ٣ : ٤] ...

د - ماذا عن الذين لم يعرفوا يسوع أو لم يقبلوه؟

يجيب بطرس الرسول قائلاً:

[الَّذِي فِيهِ أَيْضاً ذَهَبَ فَكَّرَزَ لِلْأُرُوحِ الَّتِي فِي السَّجُنِ، إِذْ عَصَتْ قَدِيمًا، حِينَ كَانَتْ أَنَّهَا اللَّهُ تَنْتَظِرُ مَرَّةً فِي أَيَّامِ نُوحٍ، إِذْ كَانَ الْفُلُكُ يُبْنَى، الَّذِي فِيهِ خَلَصَ قَلِيلُونَ، أَيُّ تَمَانِي أَنْفُسٍ بِالْمَاءِ.] [١ بطرس ٣ : ١٩ ، ٢٠] ...

إن الذين " تمردوا " على السيد والذين سوف يتمردون عليه هم، بعد الموت " أرواح
سجينة " ، ويسكنون الهاوية " ، " مكان الهلاك " و " أرض النسيان " ...
هذا ما تكلمت عنه المزامير وأشعيا النبي ...

وفى مثل لعازر يشير يسوع نفسه وبعبارات رمزية إلى وضع هؤلاء المتمردين
الحزين.

فيقول بأن الغنى قد مات ودفن، بينما هو فى " الجحيم يقاسى العذاب " ، رفع عينيه
ورأى من بعيد غبراهيم ولعازر فى أحضانه، فصرخ قائلاً:

[فَرَفَعَ عَيْنَيْهِ فِي الْهَآوِيَةِ وَهُوَ فِي الْعَذَابِ وَرَأَى إِبْرَاهِيمَ مِنْ بَعِيدٍ وَلِعَازَرَ فِي حِضْنِهِ فَقَادَى:
يَا أَبِي إِبْرَاهِيمُ ارْحَمْنِي وَأَرْسِلْ لِعَازَرَ لِيَبْلُ طَرْفَ إِصْبَعِهِ بِمَاءٍ وَيُبْرِدَ لِسَانِي لِأَنِّي مُعَذَّبٌ
فِي هَذَا اللَّهْيَبِ.] [لوقا ١٦ : ٢٣ ، ٢٤] ...

ثم يضيف السيد :

[وَقَوْقَ هَذَا كُلِّهِ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ هُوَ عَظِيمَةٌ قَدْ أَثْبَتَتْ حَتَّى إِنَّ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْعُبُورَ مِنْ هَهُنَا
إِلَيْكُمْ لَا يَقْدِرُونَ وَلَا الَّذِينَ مِنْ هُنَاكَ يَجْتَازُونَ إِلَيْنَا] [لوقا ١٦ : ٢٦] ...
ولكننا نعلم أن السيد نفسه قال أن:

[غَيْرُ الْمُسْتَطَاعِ عِنْدَ النَّاسِ مُسْتَطَاعٌ عِنْدَ اللَّهِ] [لوقا ١٨ : ٢٧] ...

ونعلم أن المسيح - الله المتجسد - لم ينزل من السماء إلى الأرض فقط بل نزل أيضاً إلى
الجحيم وإلى الهاوية:

[أَوْ { مَنْ يَهْبِطُ إِلَى الْهَآوِيَةِ؟ } (أَيْ لِيُصْعِدَ الْمَسِيحَ مِنَ الْأَمْوَاتِ)] [رومية ١٠ : ٧] ...
لكى يفنق الإنسان وهو فى أقصى درجات تعاسته، ويسكر " القيود الدهرية"
ويحرر الذين يتجاوبون مع محبته...

إدًا، بالقيامة تفقد المسيح الذين هم فى الجحيم لأنه " وطئ الموت بالموت ووهب الحياة
للذين فى القبور " ...

وكل من يلقى بمصيره بين يدي المسيح " أذكرنى يا رب متى أتيت فى ملكوتك " ،
يدخل فى لحظة مماته مع السيد إلى الفردوس:

[الْحَقُّ أَقُولُ لَكَ: إِنَّكَ الْيَوْمَ تَكُونُ مَعِيَ فِي الْفِرْدَوْسِ] [لوقا ٢٣ : ٤٣] ...

والفردوس هذا هو:

[لِأَنَّنَا نَعْلَمُ أَنَّهُ إِنْ نُقِضَ بَيْتُ خَيْمَتِنَا الْأَرْضِيَّةِ، فَلَنَأْ فِي السَّمَاوَاتِ بِنَاءً مِنَ اللَّهِ، بَيْتٌ
غَيْرُ مَصْنُوعٍ بِيَدٍ، أَبَدِيٌّ] [٢ كورونثوس ٥ : ١] ...

وهناك يبقى بانتظار فرح القيامة...

هـ - صلاة:

ونتهى هذا الفصل عن الموت بذكر الصلوات التى تدعونا الكنيسة إلى تلاوتها، وهى
توجز ببلاغة تعليم الكنيسة عن غلبة السيد النهائية على الموت:

[لقد قام المسيح من بين الأموات ،

الذى هو مقدمة الراقدين وبكر الخليقة ومبدع كل المخلوقات.

وقد جدّد بذاته طبيعة جنسنا المنفسدة.

فلست تتسلط فيما بعد أيها الموت لأن سيد الكلّ قد أبطل قوتك وحلّها].

٤ - قيامة الموتى والحياة الأبدية

هل سيقوم الأموات بأجسادهم؟...

وهل القيامة هذه حقيقة واقعية أم هى ضرب من الخيال والوهم عفا الزمان على

القول بها؟...

بادئ ذى بدء نورد بعض النصوص الكتابية التى تلقى الضوء على موضوعنا

هذا...

وسنجدّها تدعّم فكرة القيامة الفعلية للأموات...

وتجب الملاحظة فى هذا المجال أن آراءنا الشخصية وتأويلاتنا لا قيمة حقيقية لها...

فالقيمة كلّ القيمة لما أعلنه الله عن هذا السرّ...

والروح القدس هو دون سائر الأرواح قائدنا إلى الحقيقة...

والكتاب المقدس يؤكد على ذلك ويحذرنّا من محاولة الإتصال بالأرواح كائنة ما

كانت:

[لا تَلْتَقُوا إِلَى الْجَانِّ وَلَا تَطْلُبُوا النَّوَاعِ فَتَنْتَجَسُّوا بِهِمْ. أَنَا الرَّبُّ إِلَهُكُمْ] [لاويين ١٩ : ٣١

...]

ونجد أيضًا فى:

[مَتَى دَخَلْتَ الْأَرْضَ الَّتِي يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلَهُكَ لَا تَتَعَلَّمْ أَنْ تَفْعَلَ مِثْلَ رَجُلٍ أُولَئِكَ الْأُمَمَ. لَا

يُوجَدُ فِيكَ مَنْ يُحْيِزُ ابْنَهُ أَوْ ابْنَتَهُ فِي النَّارِ وَلَا مَنْ يَعْرِفُ عِرَاقَهُ وَلَا عَائِفٌ وَلَا مُتَقَانِلٌ وَلَا

سَاحِرٌ. وَلَا مَنْ يَرْقِي رُقِيَّةً وَلَا مَنْ يَسْأَلُ جَانًّا أَوْ تَابِعَةً وَلَا مَنْ يَسْتَشِيرُ الْمَوْتَى. لِأَنَّ كُلَّ مَنْ

يَفْعَلُ ذَلِكَ مَكْرُوهٌ عِنْدَ الرَّبِّ. وَبِسَبَبِ هَذِهِ الْأَرْجَاسِ الرَّبُّ إِلَهُكَ طَارَدَهُمْ مِنْ أَمَامِكَ] [

تنثية ١٨ : ٩ - ١٢]...

أ - فى العهد القديم :

- عندما أعلن الرسول بطرس قيامة المسيح [أعمال ٢: ٢٦ - ٢٨] ، استشهد بنص المزمور قائلا:

[لِذَلِكَ فَرَحَ قَلْبِي وَابْتَهِجَتْ رُوحِي. جَسَدِي أَيْضًا يَسْكُنُ مُطْمَئِنًّا. لِأَنَّكَ لَنْ تَتْرَكَ نَفْسِي فِي الْهَلاوِيَةِ. لَنْ تَدَعَ نَفْسَكَ يَرَى فُسَادًا. تُعَرِّفُنِي سَبِيلَ الْحَيَاةِ. أَمَامَكَ شَبَعُ سُرُورٍ. فِي يَمِينِكَ نِعَمٌ إِلَى الْأَبَدِ] [مزمور ١٦: ٩ - ١١]...

بطرس ، إذا ، يترجى القيامة ، قيامة الأجساد بالفعل ، وليس نوعًا من قيامة الأرواح فقط ، كما كانت تعلم في المدارس الفلسفية...

- أشعيا سبق وتكلم عن نفسه قائلا:

[نَحْنُ أَمْوَالُكَ. نَقُومُ الْجُنُثُ. إِسْتَيْقِظُوا. تَرْتَمُوا يَا سُكَّانَ الثَّرَابِ. لِأَنَّ طَلْكَ طُلُّ أَعْشَابٍ وَالْأَرْضُ تُسْقِطُ الْأَخِيلَةَ] [أشعيا ٢٦: ١٩]...

- وفي سفر أيوب نجد الإيمان نفسه بالقيامة بالجسد إذ يؤكد أنه سوف يرى الله بأعين الجسد:

[أَمَّا أَنَا فَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ وَلِيِّي حَيٌّ وَالْآخِرَ عَلَى الْأَرْضِ يَقُومُ وَبَعْدَ أَنْ يُقْنَى جِلْدِي هَذَا وَبِدُونِ جَسَدِي أَرَى اللَّهَ. الَّذِي أَرَاهُ أَنَا لِنَفْسِي وَعَيْنَايَ تَنْظُرَانِ وَلَيْسَ آخَرُ. إِلَى ذَلِكَ تَتَوَقَّعُ كُلِّيَّتَايَ فِي جَوْفِي] [أيوب ١٩: ٢٥ - ٢٧]...

- وهنا لا بد من إثبات نبوءة حزقيال التي تتلى في خدمة صلاة السحر للسبت العظيم المقدس وهي ما يسمى بجنائز المسيح وتقام عادة مساء يوم الجمعة . هذه النبوءة تعطى صورة واضحة ومؤثرة لقيامة الأجساد:

[كَانَتْ عَلَيَّ يَدُ الرَّبِّ فَأَخْرَجَنِي بِرُوحِ الرَّبِّ وَأَنْزَلَنِي فِي وَسْطِ الْبُقْعَةِ، وَهِيَ مَلَأَةٌ عِظَامًا. وَأَمَرَنِي عَلَيْهَا مِنْ حَوْلِهَا وَإِذَا هِيَ كَثِيرَةٌ جِدًّا عَلَى وَجْهِ الْبُقْعَةِ، وَإِذَا هِيَ يَابِسَةٌ جِدًّا. فَقَالَ لِي: [يَا ابْنَ آدَمَ، أَتَحْيَا هَذِهِ الْعِظَامُ؟ فَقُلْتُ: [يَا سَيِّدُ الرَّبِّ أَنْتَ تَعْلَمُ. فَقَالَ لِي: [تَنْبَأْ عَلَى هَذِهِ الْعِظَامِ وَقُلْ لَهَا: أَيُّهَا الْعِظَامُ الْيَابِسَةُ، اِسْمَعِي كَلِمَةَ الرَّبِّ. هَكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ لِهَذِهِ الْعِظَامِ: هَنَذَا أُدْخِلُ فِيكُمْ رُوحًا فَتَحْيَوْنَ. وَأَضَعُ عَلَيْكُمْ عَصَبًا وَأَكْسِيكُمْ لَحْمًا وَأُبْسِطُ عَلَيْكُمْ جِلْدًا وَأَجْعَلُ فِيكُمْ رُوحًا فَتَحْيَوْنَ وَتَعْلَمُونَ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ]]. فَتَنْبَأْتُ كَمَا أَمَرْتُ. وَبَيْنَمَا أَنَا أُنْتَبَأُ كَانَ صَوْتُ وَإِذَا رَعَشٌ فَتَقَارَبَتِ الْعِظَامُ كُلُّ عَظْمٍ إِلَى عَظْمِهِ. وَنَظَرْتُ وَإِذَا بِالْعَصَبِ وَاللَّحْمِ كَسَاهَا، وَبُسِطَ الْجِلْدُ عَلَيْهَا مِنْ فَوْقُ، وَلَيْسَ فِيهَا رُوحٌ. فَقَالَ لِي: [تَنْبَأْ لِلرُّوحِ، تَنْبَأْ يَا ابْنَ آدَمَ، وَقُلْ لِلرُّوحِ: هَكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ: هَلَمْ يَا رُوحُ مِنَ الرِّيحِ الْأَرْبَعِ وَهَبْ عَلَى هَؤُلَاءِ الْقَتْلَى لِيَحْيُوا. فَتَنْبَأْتُ كَمَا أَمَرَنِي، فَدَخَلَ فِيهِمُ الرُّوحُ، فَحَيُّوا وَقَامُوا عَلَى أَقْدَامِهِمْ جَائِسٌ عَظِيمٌ جِدًّا. ثُمَّ قَالَ لِي: [يَا ابْنَ آدَمَ، هَذِهِ الْعِظَامُ هِيَ كُلُّ بَيْتِ إِسْرَائِيلَ. هَا هُمْ

يَقُولُونَ: يَبْسُتْ عِظَامُنَا وَهَلَكَ رَجَاؤُنَا. قَدْ انْقَطَعْنَا. لِذَلِكَ تَنَبَّأَ وَقُلَ لَهُمْ: هَكَذَا قَالَ السَيِّدُ الرَّبُّ: هَنَذَا أَفْتَحُ قُبُورَكُمْ وَأُصْعِدُكُمْ مِنْ قُبُورِكُمْ يَا شَعْبِي وَأَتِي بِكُمْ إِلَى أَرْضِ إِسْرَائِيلَ. فَتَعْلَمُونَ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ عِنْدَ فَتْحِي قُبُورَكُمْ وَإِصْعَادِي إِيَّاكُمْ مِنْ قُبُورِكُمْ يَا شَعْبِي. وَأَجْعَلُ رُوحِي فِيكُمْ فَتَحْيَوْنَ، وَأَجْعَلُكُمْ فِي أَرْضِكُمْ، فَتَعْلَمُونَ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ تَكَلَّمْتُ وَأَفْعَلُ، يَقُولُ الرَّبُّ] [حزقيال ٣٧: ١ - ١٤]...

ب - في العهد الجديد:

ولنأت الآن إلى العهد الجديد. نجد أن شهادة بطرس الرسول التي ذكرناها تعتمد أيضاً كلام يسوع نفسه إذ أكد رجاء القيامة فقال:

[الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُ تَأْتِي سَاعَةٌ وَهِيَ الْآنَ حِينَ يَسْمَعُ الْأَمْوَاتُ صَوْتَ ابْنِ اللَّهِ وَالسَّامِعُونَ يَحْيَوْنَ. لِأَنَّهُ كَمَا أَنَّ الْآبَ لَهُ حَيَاةٌ فِي ذَاتِهِ كَذَلِكَ أُعْطِيَ الْابْنُ أَيْضاً أَنْ تَكُونَ لَهُ حَيَاةٌ فِي ذَاتِهِ وَأَعْطَاهُ سُلْطَاناً أَنْ يَدِينَ أَيْضاً لِأَنَّهُ ابْنُ الْإِنْسَانِ. لَا تَتَعَجَّبُوا مِنْ هَذَا فَإِنَّهُ تَأْتِي سَاعَةٌ فِيهَا يَسْمَعُ جَمِيعُ الَّذِينَ فِي الْقُبُورِ صَوْتَهُ فَيَخْرُجُ الَّذِينَ فَعَلُوا الصَّالِحَاتِ إِلَى قِيَامَةِ الْحَيَاةِ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَى قِيَامَةِ الدَّيْثُونَةِ] [يوحنا ٥: ٢٥ - ٢٩]...

هذا هو النص الإنجيلي الذي يُقرأ في صلاة الجناز...

وَأَمَّا نَصُّ الرِّسَالَةِ فَهُوَ لِلْقَدِيسِ بُولُسَ:

[لِأَنَّهُ إِنْ كُنَّا نُؤْمِنُ أَنَّ يَسُوعَ مَاتَ وَقَامَ، فَكَذَلِكَ الرَّاقِدُونَ بِيَسُوعَ سَيُحْضِرُهُمُ اللَّهُ أَيْضاً مَعَهُ. فَإِنَّا نَقُولُ لَكُمْ هَذَا بِكَلِمَةِ الرَّبِّ: إِنَّمَا نَحْنُ الْأَحْيَاءُ الْبَاقِينَ إِلَى مَجِيءِ الرَّبِّ لَا نَسْتَقِ الرَّاقِدِينَ. لِأَنَّ الرَّبَّ نَفْسَهُ سَوْفَ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ بَهْئَافٍ، بِصَوْتِ رَئِيسٍ مَلَائِكَةٍ وَبُوقِ اللَّهِ، وَالْأَمْوَاتُ فِي الْمَسِيحِ سَيَقُومُونَ أَوَّلًا. ثُمَّ نَحْنُ الْأَحْيَاءُ الْبَاقِينَ سَنُخْطَفُ جَمِيعاً مَعَهُمْ فِي السَّحَابِ لِمُلَاقَاةِ الرَّبِّ فِي الْهَوَاءِ، وَهَكَذَا نَكُونُ كُلَّ حِينٍ مَعَ الرَّبِّ. لِذَلِكَ عَزُّوا بَعْضُكُمْ بَعْضاً بِهَذَا الْكَلَامِ.] [١ تسالونيكي ٤: ١٣ - ١٨]...

كلّ النصوص التي ذكرناها، الواضحة والموافقة فيما بينها، تبين أن الإعلان الإلهي تكلم عن قيامة للموتى في أجسادهم وقد علّق على ذلك القديس إيريناوس، اسقف ليون ١٧٠ م، مجيباً عن تساؤلات المشككين:

{ إن لم يخلص المسيح الجسد بالقيامة فذلك يعنى أنه لم يخلص الإنسان أبداً. فهل رأى أحد إنساناً بدون جسد؟... }

التمييز بين روح الإنسان وجسده تمييز مصطنع...

والله إفتقد الإنسان كما هو روحاً وجسداً...

ومن أجل هذا الإنسان تجسّد المسيح وأخذ جسداً، ثم مات وقام وجلس مع الطبيعة الإنسانية التي تبنى إلى يمين الآب داعياً إليه الذين آمنوا به، والذين يسلمون أمورهم وحياتهم للروح القدس ليسكن في هياكل أجسادهم ويحوّلها إلى أنية صالحة لإقتبال الحياة الأبدية...

والحياة الأبدية هي " أن يعرفوك أيها الآب القدوس " ...
وتعطى لمن يؤمن بالآب ويتقبّل الروح القدس [يوحنا ٦: ٤٠، ٤٧ و ٨: ٥١ و ١١: ٢٥، ٢٦] ...

وبهذا الصدد يقول الرسول بولس:

[وَإِنْ كَانَ الْمَسِيحُ فِيكُمْ فَالْجَسَدُ مَيِّتٌ بِسَبَبِ الْخَطِيئَةِ وَأَمَّا الرُّوحُ فَحَيَاةٌ بِسَبَبِ الْبِرِّ] [رومية ٨: ١٠] ...
وكذلك:

[وَمَتَى لَيْسَ هَذَا الْفَاسِدُ عَدَمَ فَسَادٍ وَلَيْسَ هَذَا الْمَائِتُ عَدَمَ مَوْتٍ فَحِينَئِذٍ تَصِيرُ الْكَلِمَةُ الْمَكْتُوبَةُ: { ابْتُلِعِ الْمَوْتَ إِلَى غَلْبَةٍ } . أَتَيْنَ شَوْكُوكَ يَا مَوْتُ؟ أَتَيْنَ غَلْبَتُكَ يَا هَاوِيَّةُ؟ أَمَّا شَوْكَةُ الْمَوْتِ فَهِيَ الْخَطِيئَةُ وَقُوَّةُ الْخَطِيئَةِ هِيَ النَّامُوسُ . وَلَكِنْ شُكْرًا لِلَّهِ الَّذِي يُعْطِينَا الْغَلْبَةَ بِرَبَّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ . إِذَا يَا إِخْوَتِي الْأَحْبَاءَ كُونُوا رَاسِخِينَ غَيْرَ مُتَزَعِرِينَ مُكْثِرِينَ فِي عَمَلِ الرَّبِّ كُلَّ حِينٍ عَالِمِينَ أَنَّ تَعَبَكُمْ لَيْسَ بَاطِلًا فِي الرَّبِّ] [١ كورونثوس ١٥: ٥٤ - ٥٧] ...
والآن لا بدّ من طرح السؤال:

هل يتمكن الإنسان منذ الآن - أى فى حياته الأرضية - أن ينعم بسكنى الله فيه وأن يذوق حلاوة عشرة الله؟ ...

للإجابة عن هذا السؤال رأينا أن ننطلق من سرد حادثة واقعية حصلت للقديس الروسى سيرافيم ساروفسكى (١٧٥٩ - ١٨٣٣) مع صديق له باسم موتوفيلوف، ثم نتبعها بدراسة أعدّها الأب كاليستوس وير الإنجليزى والأستاذ فى جامعة أكسفورد وهو من أصل أنجليكانى إهتدى إلى الأرثوذكسية...

٥ - تجلّى الجسد

أ - الحوار مع موتوفيلوف:

فى إحدى ليالى الشتاء كان القديس سيرافيم ونقولا موتوفيلوف يتحدثان فى الغابة. كانا يتكلمان عن هدف الحياة المسيحية الحقيقية. قال سيرافيم جازماً:
" إنه إمتلاك الروح القدس " ...

فسأل موتوفيلوف:

" وكيف يمكن أن أتأكد أنى فى الروح القدس؟"...

وقد جرى عندئذ بينهما الحوار التالى كما جاء على لسان موتوفيلوف"

" عندئذ شدّ سيرافيم كتفى بيديه وقال: يا بنى! كلا فى هذه اللحظة فى روح الله. لماذا لا تتطلع إلى وجهى؟..."

- لا أستطيع. عينك تلمعان بأشعة البرق الخاطف ووجهك يوج بنور أقوى من نور الشمس. تؤلمنى عيناي إذا حدقتا فى عينيك...

- لا تخف ! فى هذه اللحظة بالذات يغمرك شعاع كالذى يغمرنى. إنك مثلى الآن. إنك ممتلى أيضاً من روح الله...

ثم أدار رأسه وقربه من أذنى وتمتم فيها كلمات فيها نعومة السحر: أشكر الرب الإله على صلاحه معنا. إن صلاحه لا نهاية له. لكن لماذا لا تنظر إلىّ؟ حدّق ! لا تخف فאלله معنا...

بعد هذه الكلمات ، إرتمت أنظارى فوق وجهه. شعرت خشية عظيمة قد تملكتنى. تصوّروا وجهاً ، تصوّروا الشمس، تصوّروا قلب الشمس، تصوّروا الأشعة الخاطفة، تجدون أنفسكم أمام هذا الإنسان. تصوّروا هذا الوجه وهو يخاطبكم. إنك ترى حركات شفّتيه وتلحظ تعابير عينيه المتتابة كأنها الموج، وتشعر بأن هناك من يشد كتفك بيديه. إلا أنك، لن ترى، لا يديه، ولا جسمه. إنك لا ترى إلا نوراً يكتنفك ويمتد بعيداً عنك ويغمر بضياءه الثلوج المبسوطة فوق أشجار الغابة، فينعكس ضياء على الرشوحات الثلجية المتساقطة باستمرار..."

الحوار يستمر. يسأل سيرافيم موتوفيلوف عن الشعور الذى يعاينيه فى داخله، فيجيبه ، ويعلق أن حالة الذهول كانت بعد بعيدة عنهما. كلاهما كانا بعد على إرتباط بالعالم الخارجى. ما فتئ موتوفيلوف يشعر بوجود الثلج ويشعر بالغاب، وحديثهما كان مترابطاً. حتى هذه اللحظة كان يلفهما نور يخطف الأبصار.... ماذا حصل لهما؟...

ب - مغزى الحادثة:

" نور يخطف الأبصار"...

إن لاهوت الكنيسة الأورثوذكسية الصوفى أوضح أن الضياء الذى ينبعث من وجه سيرافيم وموتوفيلوف ما هو إلا قوى الله غير المخلوقة. النور الذى يلفهما هو النور الإلهى نفسه الذى غمر السيد لمّا تجلّى على جبل ثابور...

" فى عينيك خطف البرق، وفى وجهك ضياء أين منه ضياء الشمس". كلمات موتوفيلوف هذه تحمل إلى ذاكرتنا الآية الإنجيلية:

[وَأَمَّا هَذَا الْجِسُّ فَلَا يَخْرُجُ إِلَّا بِالصَّلَاةِ وَالصَّوْمِ] [متى ١٧ : ٢١]...

كما تجلّى المسيح فوق جبل ثابور كذلك تجلّى عبد المسيح سيرافيم فى غاب ساروف...

سيرافيم و موتوفيلوف تجلّيا من مجد إلى مجد حسب تعبير الرسول:

[وَكُلُّ مَا عَمِلْتُمْ بِقَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ، فَاعْمَلُوا الْكُلَّ بِاسْمِ الرَّبِّ يَسُوعَ، شَاكِرِينَ اللَّهَ وَالْآبَ بِهِ. أَيْتُهَا النِّسَاءُ، إِخْضَعْنَ لِرَجَالِكُنَّ كَمَا يَلِيْقُ فِي الرَّبِّ] [كولوسى ٣ : ١٧، ١٨]...

إن " الهادئين" (Hésychastes) - وهم أتباع مدلاسة روحية واسعة الإنتشار فى

الشرق المسيحى تشدّد على الصلاة المستديمة كأداة للعيش الدائم فى حضرة الله -

وخاصة القديسين سمعان اللاهوتى (٩١٧ - ١٠٢٢) و غريغوريوس بالماس (

١٢٩٦ - ١٣٥٩) يكررون الكلام عن نور إلهى واقعى ويعتبرونه ذروة وقمة الحياة

فى الصلاة. لا توجد فى حالة سيرافيم رؤيا منظورة بأعين الروح الداخلية. إنه نور

طبيعى يُنظر بعينى الجسد خارجياً...

أيمكن أن تعتبر حالة سيرافيم شيئاً عارضاً فريداً يمكن تنحيته ووضعها جانبا؟...

أيمكن أن يكون حدثاً وحدثاً غير عادى خارقاً وعجيباً؟...

هذا النوع من التفسير يحمل كثيراً من الأخطاء ويُعتبر معامرة...

يُروى عن قديس روسى آخر سرجيوس رادونيچ (١٣١٤ - ١٣٩٢) أن العطر كان

يفوح من جسده بعد موته وأن النور كان يغمر وجهه وأن وجهه لم يكن يشبه وجه

الأموات بل وجه الأحياء، وقد برهنت الحياة المائجة فوق وجهه على عالم نفسه

النقى...

مثل هذه الأمثلة تنقلنا دائماً إلى حقيقة التجلّى كحدث وقع فى الزمان والمكان: "

وصارت ثيابه بيضاء كالثلج"...

عودة إلى الورا، عودة إلى آباء الصحراء، نجد أن هناك حالات كثيرة مشابهة...

فى كتاب أقوال الرهبان وصف لموت الأنبا سيسويس. يقول الكتاب:

" عندما كان تلاميذه يحيطون به، وهو على فراش الموت، كان وجهه يشع كالشمس

وكان الضياء يزداد تألقاً ويغمر جسده حتى فارق الحياة، إذ ذاك، صار النور برقاً

خاطفاً وإمتلاً البيت من رائحة الطيب"...

فى بعض الأحيان يتكلم كتاب الأقوال عن النار أكثر مما يتكلم عن النور. إقترب أحد تلاميذ البار أرسانيوس الكبير منه بصورة عفوية فوجده قائماً يصلى وقد ظهر له الشيخ وكأنه وسط نار. ويُروى مثل هذا عن كثيرين من الآباء...
إن فكرة التجلى مع أنها غير واضحة ويكتنفها شئ من الغموض إلا أن حقيقتها تبقى قائمة. فى بعض الأحيان تظهر القوى الإلهية غير المخلوقة بشكل السنة نارية كما فى يوم الخمسين وبشكل نور كما حصل على جبل ثابور أو فى طريق دمشق مع الرسول بولس...

إن تكلمنا عن النار أو النور فالحقيقة هى لا تتغير...
لم يُحصر هذا التمجيد الجسدى فى الكنيسة الأرثوذكسية...
لقد عرفته الكنيسة الغربية قديماً وفى حالات كثيرة مماثلة...
إنه نتيجة لحرارة الشركة مع الله، لحرارة الصلاة العميقة لله..
هذا النوع من الصلاة الحارة يعطى إشعاعاً للجسد فائق الطبيعة ويكون سبيلاً إلى التجلى الجسدى...

نرى هذا التجلى الجسدى فى حياة القديسة تيريزا، والقديسة كاترينا بولونيا وكاترينا جنوا...

كما أن جراحات القديس فرنسيس الأسيزى فوق جبل المبارنو هى إمتداد لصليب المسيح فى أحد أعضاء جسده السرى:
[الَّذِي الْآنَ أَفْرَحُ فِي الْآمِي لِأَجْلِكُمْ، وَأَكْمَلُ نَفَائِصَ شِدَائِدِ الْمَسِيحِ فِي جِسْمِي لِأَجْلِ جَسَدِهِ:
الَّذِي هُوَ الْكَنِيسَةُ] [كولوسى ١ : ٢٤]...

ماهو المعنى اللاهوتى لهذا التمجيد الجسدى الذى ظهر فى قديسين من الشرق والغرب؟...

وراء هذه الأمثلة توجد نقطتان لهما معنى أساسى...

أولاً: التجلى فى كلتا الحالتين، حالة تجلى الرب وحالة تجلى قديسيه، يؤكّد أهمية الجسد الإنسانى فى اللاهوت المسيحى. عندما تجلى المسيح على جبل ثابور ظهر مجده فى جسده وعن طريق هذا الجسد. رأى التلاميذ بأعينهم الجسدية:
[فَإِنَّهُ فِيهِ يَجَلُّ كُلُّ مَلَأِ اللَّاهُوتِ جَسَدِيًّا] [كولوسى ٢ : ٩]...

كما أن مجد المسيح لم يكن داخلياً فقط بل مادياً وجسدياً كذلك كان مجد قديسيه...
إن تجليهم يؤكد أن تقديس الإنسان ليس أمراً يستهدف الروح فقط بل أمراً يشمل الجسد أيضاً، أى الإنسان روحاً وجسداً...

ثانيًا: التجلى فى كلتا الحالتين ، فى تجلى المسيح وفى تجلى قديسيه، حدث أخرى. إنه سبق مذاق وعربون الحضور الثانى. وتمجيد جسد القديسين يرمز بطريقة حية إلى منزلة المسيح ، ويشير كيف أن المسيحى هو فى " العالم وأنه ليس من العالم". وأنه قائم فى نقطة الفصل بين الجيل الحاضر والمستقبل ويعيش فى الجيلين معًا. الأزمنة الأخيرة ليست حدثًا إستقباليًا فقط. لقد إبتدأت بالفعل...

ج - الجسد واسطة لتمجيد الله :

إن بلاديوس (٣٦٣ - ٤٣٠)، فى رحلته الأولى إلى مصر عاش مع شيخ ناسك اسمه دوروثيوس وكان هذا ينقل الحجارة طول النهار تحت أشعة الشمس المحرقة، لبناء القلالى. إحتج بلاديوس على عمل الشيخ وقال له: " ما هذا الذى تفعله طول النهار تحت أشعة الشمس الكاوية وأنت فى هذه السن؟ إنك تقتل نفسك"... فأجابه دورثيوس ساخرًا: " يا بنى يجب أن أقتل هذا الجسد قبل أن يقتلنى"... هذا القول يتعارض تمامًا مع قول بيمين أحد أباء الصحراء: " نحن لم نتعلم قتل الجسد بل قتل الأهواء"...

وراء هذين القولين الموجزين توجد، بعد التدقيق، طريقتان مختلفتان فى النظرة إلى الإنسان...

الطريقة الأولى طريقة أفلاطونية أكثر مما هى مسيحية...

والثانية مسيحية حقيقية تركز على الكتاب المقدس...

وراء هاتين الطريقتين المختلفتين فى النظرة إلى الإنسان نظرتان مختلفتان عن الخليقة...

النظرة الأفلاطونية عن الخليقة تقول بأزلية المادة. ليست المادة شيئًا خلقه الله من العدم بل شيئًا سبق وأن كان موجودًا، ومع أن الله يستطيع أن يعطى للمادة شكلًا وترتيبًا إلا أنها تبقى فى نهاية المطاف شيئًا خارج الله ، مبدأ مستقلًا عن الله...

أمّا الكتاب المقدس فلا يقبل بأية فكرة تقول بمبدأين...

المادة حسب التفكير الكتابى ليست مستقلة عن الله ولا مساوية له فى البدء، إنها ككل الكائنات الهيولية خلقة من خلقته إذ:

[فِي الْبَدْءِ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ... وَرَأَى اللَّهُ كُلَّ مَا عَمِلَهُ فَإِذَا هُوَ حَسَنٌ جَدًّا] [

تكوين ١ : ١، ٣١]...

مقابل هاتين الفكرتين عن الخليقة نجد نظرتين مختلفتين فى علم الإنسان (الأنثروبولوجيا). ينظر أفلاطون (ومثله أكثر الفلاسفة اليونانيين) إلى الإنسان نظرة ثنائية ويعالجه على هذا الأساس. يعتبر النفس إلهية أما الجسد فينظر إليه كسجن وكنع للمآثم. الإنسان عقل سجين فى جسد ترابى يخفق إلى الحرية. الجسد قبر. وهدف الفيلسوف هو أن يبقى بعيداً عن كل ما هو مادي... هناك من ينظر إلى الجسد نظرة معتدلة فيعتبرونه وشاحاً لا بد للإنسان إلا وأن ينعثق (فيثاغورث)...

وهناك من ينظر إليه نظرة صارمة قاسية: " أنك يا نفس فقيرة تحملين جثة " (مرقس أوريليوس)...

إن الكتاب المقدس يدعو إلى نظرة إلى الإنسان تقوم على الوجدانية لا الثنائية كما هو الحال فى الفلسفة اليونانية...

ليس الإنسان سجيناً فى الجسد إنه وحدة جسد وروح...

إنه كل روح جسد...

قال أفلاطون " الروح هى الإنسان "...

أما الكنيسة فتترد قائلة الروح ليست كل الإنسان. روحى ليست أنا...

عندما خلق الله، عندما خلق الثالوث الأقدس الإنسان على صورته خلق كياناً كاملاً، خلق الروح والجسد معاً...

وعندما أتى الله إلى الأرض ليخلص الإنسان لم يأخذ نفساً بشرية فقط بل جسداً بشرياً أيضاً لأن إرادته كانت، وهى، تخلص كل الإنسان، جسده وروحه...

فى الواقع أن الجسد كما نعرفه ثقل...

إنه شئ يسبب لنا التعب والشقاء وعذاب الولادة...

إنه كما نعرفه فعلاً نبع لكل الأهواء الخاطئة وهذه كلها نتيجة للسقطة...

بعد السقطة لم يبق الجسد البشرى على حالته الطبيعية بل صار إلى حالة مضادة للطبيعة...

لا شك أن الجسد والروح سينفصلان وهذا الانفصال إنفصال مؤقت ما دام المسيحيون يترجون قيامة الجسد وفى القيامة سيعود الإتحاد مرة أخرى...

ليس الجسد قبراً ولا سجنًا بل قسم جوهرى من الإنسان...

إن الجسد فى نظر الرسول بولس ليس عدوًّا تجب محاربته وسحقه بلّ سبيلاً يمكن الإنسان أن يمجد به خالقه:

[أم لستُم تعلمون أن جسدكم هو هيكَل للروح القدس الذي فيكم الذي لكم من الله وأنكم لستُم لأنفسكم؟] [١ كورونثوس ٦ : ١٩]...

[فأطلب إليكم أيها الإخوة برأفة الله أن تقدّموا أجسادكم ذبيحة حيّة مقدّسة مرضيّة عند الله عبادتكم العقلية] [رومية ١٢ : ١]...

الإرتباط الجوهرى بين النفس والجسد، خلاصهما المشترك هو فكر واضح جدًّا عند القديس إيريناوس:

" بيدى الله أى بالابن والروح القدس خُلِق الإنسان على شبه الله. أقول الإنسان كله لا قسمًا منه فقط خُلِق على صورة الله. النفس والجسد معًا يشكّلان الإنسان بقسميه، لا الإنسان بحد ذاته. لأن الإنسان ككل هو مزج ووحدة النفس بالجسد..."

إن صورة الله، حسب قول إيريناوس، ليس ينحصر بالعقل بلّ شيئًا يتناول الجسد الإنسانى. يعالج هذه الناحية يوستينوس الفيلسوف فى بحثه عن القيامة فيقول:

" من الواضح ، إذًا، أن الإنسان المخلوق على صورة الله هو جسدى. أليس القول: إن لا قيمة للجسد المخلوق على صورة الله ولا شرف له قول غير صحيح ومشين؟... فهل الإنسان روحًا فقط؟. كلا! إنها روح الإنسان..."

أيمكن أن يكون الإنسان جسدًا فقط؟ . كلا! إنه جسد الإنسان... الإنسان هو وحدة من الإثنين...

لو أخذ الإنسان بقسمه الواحد دون الآخر ، لكان حياديًّا..."

فى عبارته " نثبت إستنادًا إلى طبيعة الإنسان الكتابية أن الإنسان سمّى إنسانًا لا لأنه ذو نفس فقط أو جسد فقط ، بل لأنه وحدة من النفس والجسد ومن الناحيتين خُلِق على صورة الله ومثاله..."

بدلًا من أن يستغل الكتبة المسيحيون النتائج التى يكتسبها الجسد والمادة من خلقه الإنسان على صورة الله وقعوا فى نوع من الملائكية وإعتبروا الجسد كعائق ومانع، كشئ لا علاقة له بالحياة الروحية، كشئ خارجى عن طبيعة الإنسان الحقيقية وأوحوا أن هدف حياة الإنسان هو أن يتحرّر من ربط المادة و أن يحيا حياة روح بدون جسد...

هذه النظرة لا تأخذ بعين الإعتبار الفرق الجوهرى بين الإنسان والملائكة.

خلق الله الملائكة أرواحًا خالصة ، أما الإنسان فقد أعطاه جسداً تماماً كما أعطاه روحاً وهذان يشكلان وحدة جوهرية...
خلق الله الإنسان بجسد ومن الكبرياء والجنون الفاضح أن يحاول الإنسان أن يخلع عنه جسده ويصبح ملاكاً...
كما يقول باسكال:

" ليس الإنسان ملاكاً ولا حيواناً. من يريد أن يكون الملاك يكون الحيوان "...
لا يجوز أن يتجاهل الإنسان، ولا أن يحاول أن يتجاوز الطبيعة المادية بل عليه أن يفخر بجسده وأن يستعمله كأشرف هدية من الله...
يعتقد الكثيرون أن الإنسان دون الملاك لأنه يملك جسداً...
الملاك لا يملك إلا روحاً والإنسان يملك روحاً وجسداً...
يقول غريغوريوس بالماس: " إن الإنسان هو فوق الملاك لأنه يملك جسداً"...
الإنسان حد وسط بين المادى واللامادى، إنه يشترك فى العالمين ، لذلك يشكل جسراً ونقطة تماس لكل الخليقة الإلهية...
كل هذا وأمور أخرى كثيرة تقوم وراء سرّ التجلى، وراء إتساع هذا السرّ فى أعضاء الكنيسة...

يقول أسقف فاستكوت: " إن التجلى هو مقياس إمكانات الإنسان، هو كشف قدرة الحياة الأرضية الروحية فى أسمى أشكالها الخارجية. إن تجلى المسيح وتجلّى قديسيه يبرهن لنا عن مقياس إمكانات الإنسان ويظهر لنا الجسد الإنسانى كما خلقه الله فى البدء وما هو مؤهل ليصبحه بنعمته وإرادتنا. التجلى يكشف روحانية طبيعتنا المادية الخاطئة، نرى الجسد الإنسانى فى حالته النهائية عندما يصبح جسداً روحياً. إن تجلى الأجساد مظهر مدرك فقط ضمن إطار أنتربولوجيا تقبل بإمكانات الجسد الإنسانى الروحية وترفض بقوة كل شكل من أشكال الثنائية الأفلاطونية"...

فلنا أن نرى فى التجلى الجسد البشرى كما خلقه الله فى البدء...
مجد يسوع المسيح فوق جبل ثابور ليس مجداً آخرياً فحسب بل حدثاً يشير إلى طبيعة الإنسان فى البدء قبل أن تدمرها الخطيئة...
ولذلك نرتل فى عيد التجلى:
أيها المسيح المخلص لقد جعلت طبيعة آدم المظلمة تزهو بتجليك معيذاً عنصرها إلى مجد وبهاء لاهوتك...

إن تجلّى جسد يسوع المجيد على جبل ثابور يكشف " جمال الصورة الإلهية " ويُظهر لنا كيف كانت طبيعتنا الإنسانية لو لم تتلوّث بخطيئة آدم ويوضح لنا ما تستطيعه وما يجب أن تصيره طبيعتنا البشرية...

فى حياة القديسين الذين لم يتمجدوا جسدياً كما تمجد سيرا فيم، يمكننا أن نلاحظ بطريقة معدلة التعليم نفسه عن الجسد البشرى...

سنعرض بعض الأمثلة من المتحدين القدامى ...

بين النساك القدماء فى الصحراء قد نجد ثنائية خاطئة بسبب صرامة الحياة الفائقة القياس وقد نصادف فى أكثر الأحيان العكس...

عندما خرج القديس أنطونيوس (٢٥١ - ٣٥٦) من برجه الصحراوى حيث عاش متوحداً مدة عشرين عاماً (كما ذكر أثناسيوس الرسولى) تعجّب الناس عندما رأوا جسده على حاله، ما أرهقته الصيامات ولا هدته صراعاته مع الشياطين. كان منتصب القامة كمسير بالمنطق وكعائش حسب الطبيعة، لا أثر لأى ثنائية فيه... كان أنطونيوس فى حالة طبيعية، إنه فى حياة حسب الطبيعة، لم يغيّر جسده الحياة الصارمة...

يظهر ان الناسك الذى ينشد الحياة التى قبل الخطيئة يستهدفها نفساً وجسداً... فى كتابه " حياة أنطونيوس " يُبرز أثناسيوس الرسولى حفاظ الناسك أنطونيوس على جسده بصورة تثير الإنتباه:

" ومع إنه عاش مئة وخمس سنين فقد بقى محافظاً على نظره وأسنانه كاملة وبقيت يده ورجله قويتين"...

هناك فى مصر رعية من النساك معروفة عندنا، كانت أجساد متوحيديها فى حالة صحية جيدة كالقديس أنطونيوس ولم يمرض أحد منهم قبل موته... عندما كانت تحضرهم ساعة المنية كان المتوحد منهم يستعد ويخبر إخوته ثم يضطجع وينام نومته الأخيرة...

لم يكن مرض قبل الخطيئة...

هذا ما يحدث أيضاً فى بعض الأحيان مع أولئك الذين حصلوا بقداستهم على الحالة الفردوسية...

إنهم يتحررون من الأمراض...

يكتب يوحنا السلمى (٥٧٩ - ٦٤٩) عن هذا الموضوع فى سلمه المشهور ويشرح فى آخر الدرجة الثلاثين من السلم موضوع التجلى...

يتكلم عن تجلى الجسد فيقول: " عندما يتهيج القلب بمحبة الله يتهيج وجهه ويُشرق. إذا، عندما يندمج الإنسان كلياً بالمحبة الإلهية يكتسب الوجه نقاوة ونوراً ويصبح مرآة مشعة تعبر عن الأنوار الداخلية القائمة فى أعماق النفس. بهذا البهاء شعّ موسى ولمع لونه"...

ثم يتابع: " أولئك الذين يصلون إلى عمل المحبة الملائكى كثيراً ما يسهون عن تذوق لذة الطعام. إنى أعتقد أن الذين حازوا على هذه المحبة الإلهية شابهوا الملائكة فكأنهم خالدون لا تمرض أجسامهم بسهولة، وصارت غير فانية وخالدة نقتها لهب المحبة الإلهية النقية"...

يمكن للجسد الإنسانى حتى فى الحياة الحاضرة وفى حالات معيّنة أن يحقق ضمن حدود معيّنة عدم الفساد الذى كان لآدم قبل السقطة والذى هو نصيب كل الأبرار بعد قيامة الجسد...

هذا يساعدنا لفهم كيف تبقى أجساد القديسين غير فانية بعد الموت فى بعض الأحيان...

د - مجد القيامة الأخير:

إن تجلى ربنا وإلهنا يجيبنا على السؤال التالى:

كيف أن كثيراً من القديسين لا يرى جسداهم فساداً؟...

مرة، ومرة واحدة فقط ، أثناء حياة المسيح على الأرض، ظهر المسيح لتلاميذه متجلياً بالنور الإلهى وللحظة...

هذا لا يعنى أن طبيعة الرب البشرية قبلت شيئاً لم يكن فيها من قبل ثم فقدته. بالعكس لم يكن المجد الذى شعّ فى يسوع على جبل ثابور مجداً فوق العادة بل شيئاً كان يملكه دائماً إلا أنه بحركة إخلاء ذات إرادية أخفى هذا المجد لظروف أخرى...

فى حضوره الثانى سيأتى الرب بمجدٍ وقوة ، والبشر سينظرون جسده كما هو فى الواقع بكل جماله وعظمته. وأيضاً قديسيه ، عندما يقوم الأموات فى اليوم الأخير، سيظهرون ممجدين جسدياً وروحياً...

التجلى هو، إذا، حقيقة أخروية، أى رجاء مجئ المسيح الثانى، عندما يظهر أيضاً بمجده كما ظهر فى ثابور ويرمز إلى قيامة الموتى، عندما يخترق النور الإلهى ذاته الذى شعّ فى جسد يسوع فوق جبل ثابور أجساد القديسين الناهضين من القبر.

يقول غريغوريوس الناطق بالإلهيات:

" أعلن بالتجلى غير مجد القيامة الأخيرة ؟، إن مجد ثابور هو عربون ووعد وظهور مجد الفردوس"...

فى مواظ مكارىوس الكبىر (فى بداية القرن الخامس) يجرى الكلام بصورة مفصلة عن تجلى الإنسان العتيد بعد قيامة الجسد:

" يتمجد جسد الإنسان على قدر ما يكون مالكا للروح القدس. ما يخرنه الإنسان فى أعماق نفسه سينكشف وسيظهر خارج الجسد وسيأتى يوم القيامة. وبقوة شمس العدل، يخرج من الداخل إلى الخارج مجد روح القدس ويغمر أجساد القديسين الذين إختبأ مجدهم داخل نفوسهم. ما فيهم الآن يخرج خارج الجسد فتتمجد إذاك أجسامهم بالنور الذى لا يدرك والذى كان فيهم بقوة الروح "...

بعد القيامة ستلمع أجساد القديسين بالنور كما يقول الكتاب...

هذا البهاء مدين لمجد الروح الذى سينسكب فى الجسد ويجعله شفافا...

الجسد يقبل أن يكشف البهاء الذى هو داخل النفس روحيا وغير مادي...

سيرى مجد الروح فى الجسد المتجلى كما ترى تماما لون الأشياء وسط الأوعية الزجاجية...

هذا ما يحاول أن يفعله المصور الكنسى ويمثله سريا...

يحاول أن يبرز جسد القيامة المتجلى المشع بنور الروح القدس...

هـ - بدء جيل المستقبل:

إن ما يسميه القديس توما الأكوينى " إنسكاب الروح فى الجسد" ليس شيئا معدا فقط للمستقبل...

يتمتع البعض (كما رأينا) بمجد جسدى من الآن (حتى لو كان التمتع لحظة)...

إن حقيقة اليوم الأخير هى القيامة الشاملة وتجلى الجسد...

ألا نعيش كمسيحيين دُفنا وقمنا مع المسيح بالمعمودية فى الجيل الآتى منذ الآن بدرجة ما؟...

أليس ملكوت الله حقيقة حاضرة وفى الوقت نفسه مستقبلة؟...

إن القيامة كما يؤكد الإنجيلى يوحنا فى سرده لقيامة أليعازر شئ يشترك فيه المؤمن من الآن...

إن مرثا عندما تقول " أنا أعرف أنه سيقوم فى اليوم الأخير " تقصد القيامة فى

المستقبل...

أما المسيح فيؤكد حقيقة القيامة الحاضرة بجوابه لها:

[قَالَتْ لَهُ مَرَّتًا: { أَنَا أَعْلَمُ أَنَّهُ سَيَقُومُ فِي الْقِيَامَةِ فِي الْيَوْمِ الْآخِرِ } . قَالَ لَهَا يَسُوعُ: { أَنَا هُوَ الْقِيَامَةُ وَالْحَيَاةُ. مَنْ آمَنَ بِي وَلَوْ مَاتَ فَسَيَحْيَا وَكُلُّ مَنْ كَانَ حَيًّا وَآمَنَ بِي فَلَنْ يَمُوتَ إِلَى الْأَبَدِ. أَتُؤْمِنِينَ بِهِذَا؟ }] [يوحنا ١١: ٢٤ - ٢٦] ...

كل الأمثلة عن التمجيد الجسدى وعن المذاق المسبق لقيامة الأموات الأخيرة تؤكد أن التعليم المسيحى عن الآخرة ليس شيئاً إستقبالياً فقط بل شيئاً محققاً من الآن وقد كُرِّس...

يقول القديس غريغوريوس بالماس:

" إذا كان الجسد يشترك آنذاك مع الروح بالخيريات السريّة فإنه الآن يشترك بخيرات الروح الذى يقطنه" ...

هذا هو المعنى اللاهوتى لحوار: سيرا فيم وموتوفيلوف...

إنه يعرض بوضوح الأهمية التى للجسد البشرى فى مخطط الله الخلاصى، ويدعونا لتوجيه أنظارنا إلى قيامتنا العتيدة وفى الوقت نفسه يرينا كيف يمكن أن نتمتع بالثمار الأولى، ثمار القيامة هنا ومن الآن...

و - تجلى العالم :

ليس الجسد الإنسانى مدعواً ليتجلى، ليصير " متشحاً بالروح " وحسب، بلّ الخليقة المادية كلها...

عندما يبرز اليوم الأخير لن ينسلخ الإنسان المُعتق عن باقى الخليقة إذ أن الخليقة كلها ستخلص وستتمجد معه...

يقول الإنجيلى يوحنا:

[ثُمَّ رَأَيْتُ سَمَاءَ جَدِيدَةٍ وَأَرْضًا جَدِيدَةً، لِأَنَّ السَّمَاءَ الْأُولَى وَالْأَرْضَ الْأُولَى مَضَتَا، وَالْبَحْرُ لَا يُوجَدُ فِي مَا بَعْدُ] [رؤيا ٢١: ١] ...

ويقول الرسول بولس:

[لِأَنَّ إِنْتِظَارَ الْخَلِيقَةِ يَتَوَقَّعُ اسْتِعْلَانَ أَبْنَاءِ اللَّهِ. إِذْ أُخْضِعَتِ الْخَلِيقَةُ لِلْبُطْل - لَيْسَ طَوْعاً بَلْ مِنْ أَجْلِ الَّذِي أُخْضِعَهَا - عَلَى الرَّجَاءِ. لِأَنَّ الْخَلِيقَةَ نَفْسَهَا أَيْضاً سَتُعْتَقُ مِنْ عُيُوبِئَةِ الْفَسَادِ إِلَى حُرِّيَّةِ مَجْدِ أَوْلَادِ اللَّهِ. فَإِنَّمَا نَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ الْخَلِيقَةِ تَتَنَحَّضُ مَعاً إِلَى الْآن] [رومية ٨: ١٩ - ٢٢] ...

يمكن أن تؤول هذه الفكرة عن خلاص العالم تأويلاً خاطئاً إلا أنها عندما تُفسّر تُفسّيراً صحيحاً تُشكّل عنصراً أساسياً من عناصر العقيدة الأرثوذكسية عن الأمور المتعلقة بالآخرة...

يستطيع الآن أن ينظر الإنسان إلى الأيقونات المقدسة كثمار أولى لهذا الخلاص الجماعى الذى يشمل حتى المادة...

فيها نرى بوضوح ما للخشب واللون كمادة من إمكانات التقديس ...

الأيقونات هى كشوفات قوية للقوة الروحية التى يملكها الإنسان وبها يستطيع أن يخلص العالم بالجمال والفن...

إنه عربون الظفر العتيد عندما يتوطد الخلاص الذى حمله المسيح لكل الخليقة لمحو نتائج السقطة...

الأيقونة مثال ماضى إيجابى أعيد وضعه فى تناسقه وجماله الأولى يستعمل الآن كمتشع للروح القدس...

الأيقونة تؤلف قسماً من العالم المتجلى...

كما أن تجلى يسوع يرمز إلى قيامة الجسد الأخيرة ، كذلك يشير مسبقاً إلى تحوّل كلّ العالم...

إن شخص السيد المسيح لم يتجلّى وحده فوق جبل ثابور بلّ ولباسه أيضاً... يقول ف. دى موريس:

" إن حدث التجلى عاش خلال العصور وأثار جميع الأجيال. لقد حازت كلّ الوجوه، بسبب ذلك النور وتلك الهيئة التى شعّت بمجد الله، بسبب تلك الأوشحة التى لمعت بيضاء كالثلج، على هذا الإشعاع وكل الأشياء العامة تجلّت. تجلى الرب يسوع يعنى تجلى كل المخلوقات تجلياً كماله فى المستقبل ومقدماته لنا من الآن ويمكن أن يتذوقها الإنسان. يكفى أن تكون له الأعين ليرى..."

يقول القديس إيريناوس فى وصفه اليوم الأخير:

" لا أفنوم ولا جوهر الخليقة يندثران، بل حجم هذا العالم يعبر، أى ما كان سبباً للمعصية وصار به الإنسان عتيقاً. بعبور هذا الشكل وتجدد الإنسان وبنموه فى عدم الفساد لا يستطيع أن يصير عتيقاً وتكون سماء جديدة وأرض جديدة ويبقى الإنسان فى الجديد جديداً يحدث الله ويكلمه..."

٦ - الدينونة

أ - عدل الله وحكمه :

الله طويل الأناة ومتحزن ومحب للبشر وهو بالمقدار نفسه عادل...

وكما أن محبته للبشر وتحننه لا متناهيان، كذلك عدله...

ومع التأكيد على أن الله رحيم غفّور يفتح صدره للذي يأتى إليه تائباً ، كالابن الشاطر، فيعفو عنه ويخلصه، فهو كذلك ديان يدين بالقوة نفسها من لا يتوب ويرفض الخلاص...

ولذا كان لا بدّ من الكلام عن العقاب الأبدى بعد أن تحدّثنا عن الحياة الأبدية...

ويذكرنا بذلك الرسول بولس حيث يقول:

[فَبَيْنَمَا نَعْرِفُ الَّذِي قَالَ: { لِيِ الْإِثْقَامُ، أَنَا أَجَازِي، يَقُولُ الرَّبُّ } . وَأَيْضاً: { الرَّبُّ يَدِينُ شَعْبَهُ } . مُخِيفٌ هُوَ الْوُفُوعُ فِي يَدَيِ اللَّهِ الْحَيِّ!] [عبرانيين ١٠ : ٣٠ ، ٣١]...

ب - المسيح هو الديان :

لنتأمل ملياً فى هذا النصّ الذى أعطانا يوحنا الرسول:

[قَالَتْ لَهُ: { نَعَمْ يَا سَيِّدُ. أَنَا قَدْ آمَنْتُ أَنَّكَ أَنْتَ الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ الْآتِي إِلَى الْعَالَمِ } . وَلَمَّا قَالَتْ هَذَا مَضَتْ وَدَعَتْ مَرْيَمَ أُخْتَهَا سِرّاً قَائِلةً: { الْمُعَلِّمُ قَدْ حَضَرَ وَهُوَ يَدْعُوكَ } . أَمَّا تِلْكَ فَلَمَّا سَمِعَتْ قَامَتْ سَرِيعاً وَجَاءَتْ إِلَيْهِ. وَلَمْ يَكُنْ يَسْوَغُ قَدْ جَاءَ إِلَى الْقَرْيَةِ بَلْ كَانَ فِي الْمَكَانِ الَّذِي لاقَتْهُ فِيهِ مَرَّةً] [يوحنا ٥ : ٢٧ - ٣٠]...

ولنعد إلى ما أورده القديس متى عن لسان السيد فى يوم الدينونة:

[ثُمَّ يَقُولُ الْمَلِكُ لِلَّذِينَ عَنْ يَمِينِهِ: تَعَالَوْا يَا مُبَارَكِي أَبِي رَثُوا الْمُلُكُوتَ الْمُعَدَّ لَكُمْ مِنْذُ تَأْسِيسِ الْعَالَمِ. لِأَنِّي جُعْتُ فَأَطْعَمْتُمُونِي. عَطِشْتُ فَسَقَيْتُمُونِي. كُنْتُ غَرِيباً فَأَوَيْتُمُونِي. غُرِياناً فَكَسَوْتُمُونِي. مَرِيضاً فَرَزَّيْتُمُونِي. مَحْبُوساً فَأَتَيْتُمُ إِلَيَّ] [متى ٢٥ : ٣٤ - ٣٦]...

ج - شرط الدينونة:

نخلص مما سبق إلى ما يلى:

- الحاكم الديان سيكون المسيح نفسه..

- هذا الحاكم الديان يحبنا ومات من أجلنا:

[لِأَنَّ الْمَسِيحَ إِذْ كُنَّا بَعْدُ ضَعْفَاءَ مَاتَ فِي الْوَقْتِ الْمُعَيَّنِ لِأَجْلِ الْفَجَارِ. فَإِنَّهُ بِالْجَهْدِ يَمُوتُ أَحَدٌ لِأَجْلِ بَارٍّ. رُبَّمَا لِأَجْلِ الصَّالِحِ يَجْسُرُ أَحَدٌ أَيْضاً أَنْ يَمُوتَ. وَلَكِنَّ اللَّهَ بَيْنَ مَحَبَّتِهِ لَنَا لِأَنَّهُ وَنَحْنُ بَعْدُ خُطَاةٌ مَاتَ الْمَسِيحُ لِأَجْلِنَا.] [رومية ٥ : ٦ - ٨]...

- هذا الحاكم الديان نفسه قال على لسان نبيه:

[قُلْ لَهُمْ: حَيَّ أَنَا يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ، إِنِّي لَا أُسْرُ بِمَوْتِ الشَّرِيرِ، بَلْ بِأَنْ يَرْجِعَ الشَّرِيرُ عَنْ طَرِيقِهِ وَيَحْيَا. إِرْجِعُوا إِرْجِعُوا عَنْ طَرَفِكُمُ الرَّدِيئَةِ. فَلِمَاذَا تَمُوتُونَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ؟] [حزقيال ٣٣: ١١]...

وقد أكد الرسول بولس هذا القول:

[الَّذِي يُرِيدُ أَنْ جَمِيعَ النَّاسِ يَخْلُصُونَ وَإِلَى مَعْرِفَةِ الْحَقِّ يَقْبَلُونَ] [١ تيموثاوس ٢: ٤]...

وذكرنا به بطرس الرسول:

[لَا يَنْبَاطُ الرَّبُّ عَنْ وَعْدِهِ كَمَا يَحْسِبُ قَوْمُ التَّبَاطُؤِ، لَكِنَّهُ يَنَاقِي عَلَيْنَا، وَهُوَ لَا يَشَاءُ أَنْ يَهْلِكَ أَنَا، بَلْ أَنْ يَقْبَلَ الْجَمِيعُ إِلَى التَّوْبَةِ] [٢ بطرس ٣: ٩]...

- وكما أن هذا الحاكم الديان محب ورحيم فهو عادل...

- وسوف يعاملنا السيد حسب أعمالنا ونيّاتنا في آن:

[لِأَنَّهُ بِأَعْمَالِ النَّامُوسِ كُلِّ ذِي جَسَدٍ لَا يَتَبَرَّرُ أَمَامَهُ. لِأَنَّ النَّامُوسَ مَعْرِفَةُ الْخَطِيئَةِ] [رومية ٣: ٢٠]...

إذ قال السيد:

[فَكُونُوا رُحَمَاءَ كَمَا أَنَّ أَبَاكُمْ أَيْضًا رَحِيمٌ. وَلَا تَدِينُوا فَلَا تَدَانُوا. لَا تَقْضُوا عَلَى أَحَدٍ فَلَا يُقْضَى عَلَيْكُمْ. إِغْفِرُوا يُغْفَرَ لَكُمْ] [لوقا ٦: ٣٦ ، ٣٧]...

- وبالتالي سيكون حسابنا عسيرًا ومرتبطينًا ارتباطًا وثيقًا بمواقف داخلية تنم عن محبة وعطاء يتجلىان في علاقتنا بالمرضى والغرباء والسجناء والمعتدين في الأرض لأن في هؤلاء يسكن السيد...

وهكذا، فالمحك، في النهاية، سيكون مقدار محبتنا وتكريس ذواتنا لخدمته وخدمة الذين خلّقوا على صورته ومثاله:

[إِنْ مَحَبَّتَنَا لِإِخْوَتِنَا تُبَيِّنُ لَنَا أَنَّنَا انْتَقَلْنَا مِنَ الْمَوْتِ إِلَى الْحَيَاةِ. فَالَّذِي لَا يُحِبُّ إِخْوَتَهُ، فَهُوَ بَاقٍ فِي الْمَوْتِ] [١ يوحنا ٣: ١٤]...

- ها هو الطريق الذي يجب أن نسلكه لنحظى بالحياة الأبدية...

وقد أصبح واضحًا كلّ الوضوح...

فما علينا إلا أن نعبّر من البغضاء إلى المحبة، لأن عبورًا كهذا يجعلنا نعبّر من الموت إلى الله أي الحياة...

وهكذا، نستبقي، بشكل من الأشكال، الدينونة...

وكما يقول ذهبي الفم:

" السماء على الأرض نجدها فى الإفخارستيا وفى محبة القريب"...

- المعرفة والإيمان وليدًا المحبة:

[أَيُّهَا الْأَحْبَاءُ، لِيُحِبَّ بَعْضُنَا بَعْضًا: لِأَنَّ الْمَحَبَّةَ تَصْدُرُ مِنَ اللَّهِ. إِذَنْ، كُلُّ مَنْ يُحِبُّ، يَكُونُ

مَوْلُودًا مِنَ اللَّهِ وَيَعْرِفُ اللَّهَ. أَمَّا مَنْ لَا يُحِبُّ، فَهُوَ لَمْ يَتَعَرَفْ بِاللَّهِ قَطُّ لِأَنَّ اللَّهَ مَحَبَّةٌ! وَقَدْ

أَظْهَرَ اللَّهُ مَحَبَّتَهُ لَنَا إِذْ أَرْسَلَ ابْنَهُ الْأَوْحَدَ إِلَى الْعَالَمِ لِكَيْ نَحْيَا بِهِ.] [١ يوحنا ٤: ٧ - ٩]...

- الله محبة، فمن لا يحب لا شركة له مع الله، وبالتالي لا صلة له بالحياة التى هى

من لدن الله...

ومآله الموت والزوال...

ومصيره جهنم حيث " لا يوجد الله" ولا يسمع له صوت...

أو ليس العذاب الأبدى هو أن يعرف الخاطئ أنه سيحيا إلى الأبد بعيدًا عن حضرة

الله، لا يسمع صوته ولا ينعم بالملكوت الذى أعده الله منذ إنشاء العالم:

[ثُمَّ يَقُولُ الْمَلِكُ لِلَّذِينَ عَنْ يَمِينِهِ: تَعَالَوْا يَا مُبَارَكِي أَبِي رَثُوا الْمَلَكُوتَ الْمُعَدَّ لَكُمْ مِنْذُ

تَأْسِيسِ الْعَالَمِ] [متى ٢٥: ٣٤]..

٧ - الصلاة من أجل الموتى

صلاة البار وشركة القديسين :

يوصينا يعقوب الرسول فيقول:

[وَصَلُّوا بَعْضُكُمْ لِأَجْلِ بَعْضٍ لِكَيْ تُشْفَوْا. طَلِبَةُ الْبَارِّ تَقْتَدِرُ كَثِيرًا فِي فِعْلِهَا] [يعقوب ٥:

١٦]...

وفى كتاب المكابيين نجد أن صلاة البار تقدر على الصفح عن الخاطئ حتى بعد

وفاته:

[لِأَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ مُتَرَجِّيًا قِيَامَهُ الَّذِينَ سَقَطُوا لَكَانَتْ صَلَاتُهُ مِنْ أَجْلِ الْمَوْتَى بَاطِلًا وَ عَبَثًا. وَ

لَا عَيْبَارَهُ أَنَّ الَّذِينَ رَقَدُوا بِالتَّقْوَى قَدْ إِذْخَرَ لَهُمْ ثَوَابٌ جَمِيلٌ. وَهُوَ رَأْيُ مُقَدَّسٍ تَقْوَى وَ لِهَذَا

قَدَّمَ الْكَفَّارَةَ عَنْ الْمَوْتَى لِيُحْلُوا مِنَ الْخَطِيئَةِ] [٢ مكابيين ١٢: ٤٤ - ٤٦]...

أما يوحنا الإنجيلي فيعكس الآية ويقول لناك

[وَلَمَّا أَخَذَ السَّفَرَ خَرَّتِ الْأَرْبَعَةُ الْحَيَوَانَاتُ وَالْأَرْبَعَةُ وَالْعِشْرُونَ شَيْخًا أَمَامَ الْحَمَلِ، وَلَهُمْ

كُلٌّ وَاحِدٌ قَبِيرَاتٌ وَجَامَاتٌ مِنْ ذَهَبٍ مَمْلُوءَةٌ بِخُورٍ هِيَ صَلَوَاتُ الْقَدِّيسِينَ ... وَجَاءَ مَلَائِكُ

آخَرُ وَوَقَّفَ عِنْدَ الْمَذْبَحِ، وَمَعَهُ مِخْرَعةٌ مِنْ ذَهَبٍ وَأَعْطَى بِخُورٍ كَثِيرًا لِكَيْ يُقَدِّمَهُ مَعَ

صَلَوَاتِ الْقِدِّيسِينَ جَمِيعَهُمْ عَلَى مَذْبَحِ الذَّهَبِ الَّذِي أَمَامَ الْعَرْشِ] [رُؤْيَا ٥ : ٨ و ٨ : ٣
...]

ويشبهه صلوات القديسين أمام عرش الحمل بكؤوس من ذهب مملوءة بالبخور...

فالموت، إذًا، لا يفصم عُرَى وحدة جسد المسيح...

والأحياء في هذا العالم والذين إنتقلوا على رجاء القيامة هم دائماً جسد واحد...

وهذا ما نسمّيه بـ " شركة القديسين"...

هذه الشركة التي سبق وتحدثنا عنها في الفصل الثامن تتجلى على أفضل وجه في

حياة الكنيسة الليتورجية...

فالكنيسة جمعاء تصلّى وليس الأحياء فقط...

لأن الأموات الموجودين معنا في الكنيسة والذين تمثلهم أيقونات القديسين

الموضوعة في الكنيسة هم أيضاً يشاركوننا التسبيح...

وشئ آخر هام يحصل في القداس الإلهي إذ أن الكاهن يذكر الأحياء ويضع قطعاً من

خبز التقديم على الصينية ثم يذكر الأموات ويضع على الصينية نفسها قطعاً من خبز

التقدمة، وبعدئذ يضع ما تجمّع على الصينية في الكاس فيغذو الأحياء والأموات

جسداً واحداً بالمسيح...

لذلك، فالمكان الوحيد الذى يلتقى فيه الأحياء والأموات بكل معنى الكلمة هو

الكنيسة وبالتحديد في الكأس المقدس أى في المسيح يسوع...

لذا، فنحن مدعوون إلى أن نحمل أمواتنا في صلواتنا إلى الرب وهم أيضاً يشتركون

معنا في التسبيح فيتمجد اسم الرب فيهم وفينا وينمو الجسد الذى يجمعنا والذى هو

الكنيسة جسد المسيح...